A.U.B. LIBRARY

CLOSED AREA

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

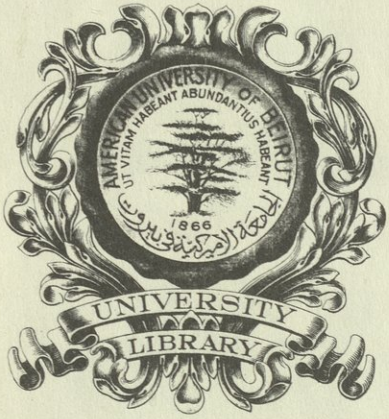

A.U.B. LIBRARY

CLOSED AREA

CA
838
R384aA
c.1

في

الجبهة الغربية

A L'OUEST RIEN de NOUVEAU

ALL QUIET ON THE WESTERN FRONT

تأليف

اريك ماريا رمارك

ونرجمة

جبور

طبع في المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٠

اريك ماريا رمارك

شاب في مقتبل العمر ابصر نور هذا الوجود منذ اثنتين وثلاثين سنة. وهو جرماني المولد من اصل افرنسي. هاجر اسلافه الى ارض الرين في زمن الثورة الافرنسية. ولما كان في الثامنة عشرة من عمره خرج من المدرسة وذهب توّا الى ساحة الحرب في الجبهة الغربية. وفي مدة الحرب ماتت امه وقتل كل ارفاقه فوجد نفسه بعد المجزرة العالمية وحيدًا فريدًا . اما ما اصابه بعد الحرب فصورة حقيقية لما اصاب كل ابناء جيله من الارتباك وعدم الاستقرار على امر والحيرة ومقابلة الامور بكل برودة وعدم اكتراث وهذه كلها نتيجة الحرب العالمية. قد تقلب في اعمال كثيرة وانصرف الى مشاغل متباينة ولكنه في كل منها كان عبدًا لما تركته الحرب فيه وفي امثاله من الارتباك والشك

وفي السنة ١٩٢٨ كتب مذكرات فيها اختباراته واختبارات اصدقائه في الحرب العالمية ولم يدر في خلده قبل ذلك الوقت ان ياتي عملاً كهذا . وكتابه هذا مبني على ملاحظاته ان شباناً كثيرين من ابناء جيله قضوا حياة منفردة يسود فيها الاهمال وعدم الاكتراث رغم كونهم شباناً يبسم لهم الدهرَ وهم لم يعرفوا لحالتهم هذه من سبب. ثم لاحظ ان هذه الحالة لا تزال سائدة على القسم الاكبر من الذين عادوا من ساحة الحرب فامعن الفكرة واستنتج من ذلك ان العالم حتى الساعة يقاسي الامرين من الحرب العالمية

وهو يحاول في كتابه هذا ان يصف ثلاثة امور. الحرب وفظائعها. ما آل اليه جيل من الشبان. وماهية المرافقة الحقيقية. وما كاد يظهر الكتاب حتى اقبل عليه الناس فانتشر في الجزء الاكبر من العالم باللغات الحية في اوربا واسيا كلها كالافرنسية والانكليزية والايطالية الخ والصينية واليابانية. وقد بيع منه في السنة ١٩٢٩ مئات الالوف من النسخ في اللغات التي ذكرناها

ايضاح

لم اقدم على ترجمة هذا الكتاب الا واسطة للوصول الى غاية يتوخاها العالم باسره نتيجة ما قاساه في الحرب العالمية وما هذه الغاية الا نشر الدعاية للسلم العام. اجل ان العالم قد نسي الحرب وما رافقها من الفظائع والمؤلمات وصار الان ما يكتب عن الحرب مبتذلاً لا محل له في عالم الادب ولكن العالم اليوم اكثر اهتماماً بنشر دعاية السلام من ذي قبل وهذا فقط ما فتح باب الشهرة لهذا الكتاب مع انه صدر بعد الحرب بعشر سنوات وبعد صدور عشرات الكتب عن الحرب

ثم لم ار مبرراً لابناء اللغة العربية ان يمروا بكتاب طبقت شهرته العالمين القديم والجديد ولا ينقلونه الى لغتهم. اجل ان من هم اكثر كفاءة مني لهذا العمل كثيرون ولكن ما العمل ومنعهم عن العمل ما لا اعرفه. فلهذا اقدمت على هذا العمل الشاق معترفاً انني في بعض النقاط لم اتمكن من الباس الصور التي ارادها المؤلف ثوبها القشيب لتظهر في العربية كما ظهرت في الانكليزية

ثم ان في الكتاب تعابير عديدة واوصافاً كثيرة فيها ما لم نالفه ويستهجنه المتادبون وعليه قد حاولت قدر المستطاع ان انقل هذه الصور كما ارادها مؤلفها ولكن بلغة تتفق نوعاً مع جانب اللياقة والتادب. غير ان الكتاب بحد ذاته درس نفسي سيكولوجي مسهب فهو من هذه الوجهة علمي فلا حياء في العلم

وفي تعابير كثيرة اضطررت ان انقلها بصورة اقرب الى العامية منها الى الفصحى وذلك لسهولة تلك ومجاراة للاصول التي ترجم عنها الكتاب

واني لاشكر الى الاصدقاء لبيب جريديني وانيس الخوري فريحه ويوسف غريب ما بذلوه في مساعدتي في هذا العمل

فالى محبي السلام من ابناء العربية والى تلامذة السيكولوجيا في هذا الوطن العزيز اقدم هذا الكتاب معتذراً وشاكراً.

جبور

مقدمة المؤلف

ليس هذا الكتاب اعترافاً بما اقترفناه او شكوى مما اصابنا او اخبار مغامرات اقتحمناها اذ لا مغامرة في اقتحام الموت وجهاً لوجه. وما هو الا اخبار جيل من الشبان افتتهم الحرب وكان بالامكان ان لا تصيب احداً منهم قذائف مدافعها

الفصل الاوّل

ها نحن الان في راحة نبعد عن الجبهة خمسة اميال وقد عدنا منها بالامس وبطوننا ملأى باللحم واللوبياء فنحن بسلام ولكل فرد منا وعاء مملوء بطعام المساء وهل نطلب اكثر من جرايتين من الخبز والمقانق. فهذا وحده يكفي لبسطنا وسرورنا لاننا حرمنا هذه اللذة وقتاً طويلاً. وها الطاهي براسه الجزري الشكل يرجو كلاً منا ان لا يبقي على شيء من الطعام الذي يكيله لنا كيلاً مهزوزاً ملبوداً. وهو بحيرة لا يعرف كيف يفرغ طنجرته قبل موعد توزيع القهوة. تجادن ومولر قد اتيا بطشتين للغسيل وطلبا الى الطاهي ان يملاهما طعاماً احتياطاً للزمن المقبل والدافع في تجادن الى هذا العمل شراهة وطمع واما في مولر فبعد نظر وتحسب للدهر الاتي. ان تجادن اكول ولكنه مع نهمه وكثرة اكله نحيف كعصا المجرفة وسيبقى هكذا

وزيادة عن كل هذا نصيب الجندي من السيكارات هذه المرة مزدوج عشرة من السيكار وعشرين من السيكارات وتبغ يكفي لمضغتين اما انا فقد اعطيت كاتزنسكي نصيبي من تبغ المضغ واخذت منه عشرين سيكارة عوضاً عنه وبهذا يصير لي اربعون سيكارة وهذه تكفيني نهاراً كاملاً.

البروسياني مشهور ببخله وما هذا الاغداق كرم ولكنها غلطة يجب ان نحمد الباري عليها

كان علينا منذ اربعة عشر يوماً ان ننجد الصفوف في الجبهة ونريح بعضهم. اما حيث نحن فكان كل شيء بسلام وعليه طلب ضابط الاعاشة (وهو دائماً في مؤخرة الجيش) مؤونة تكفي الفرقة كلها

مئة وخمسين رجلاً . ولكن بغتنا بقوة انكليزية اصلتنا ناراً حامية وصوبت علينا متفجراتها الغير المنقطعة وكبدتنا خسائر فادحة رجعنا بعدها الى المعسكر ثمانين جندياً فقط كلنا اقوياء

ليلة البارحة تقهقرنا الى الوراء لننام ونستريح وما اصدق كاتزنسكي بقوله انه اذا اتيح لنا ان ننام اكثر مما ننام فالحرب ليست بالامر الردي . وعندما كنا في خط النار بقينا اربعة عشر يوماً لم تذق اعيننا طعم الكرى ولم يغمض لنا جفن وهذا زمن لا يستخف به .

الساعة الثانية عشرة تماماً ابتدات طلائعنا ان تخرج من معسكرنا وبعدها بنصف ساعة كان كل واحد منا وبيده الوعاء الذي ياخذ فيه طعامه واقفاً امام المطبخ ورائحة الدهن في المطبخ مما يفتح القابلية انها لرائحة مغذية . وكان اكثرنا جوعاً في راس الصف وهو البرت كروب الصغير ولانه كان اكثرنا تفكراً كان وكيل اونباشي (اي وكيل قائد عشرة) . ثم بعده مولر وهو لا يزال يحمل كتبه المدرسية وهو يحلم بالفحص ويردد خلال اطلاق المدافع بعض القواعد الرياضية والطبيعية . ولير ذو اللحية الطويلة يفضل البنات الخارجات من المواخير المفروزة للضباط ويحلف انهن بامر عسكري يلبسن قمصان الحرير ويغتسلن قبل استقبال الزبائن بشرط ان يكون هولاء من صف قواد المئة وما فوق . والرابع انا بول باومر فنحن الاربعة كلنا بسن التاسعة عشرة وكنا في المدرسة بصف واحد وتطوعنا معاً لخدمة الجيش في هذه الحرب . ووراءنا اصدقاؤنا الاربعة .

تجادن شاب هزيل نهم كثير الاكل لا يضارعه احد في كل الفرقة بكثرة الاكل . كان صانع اقفال . يجلس للطعام هزيلاً كالجندب ولكنه يقوم منفوخاً كالبق الحبالى . وهو ابن التاسعة عشرة مثلنا . والثاني وستوس

بعمرنا ايضاً معدنجي ويمكنه لكبر كفه ان يضع فيها رغيفاً عسكرياً ثم يغلق عليه اصابعه ويسال الحاضرين ان يحزروا ما في كفه. والثالث دترنك فلاح لا يفتكر الا بحقله وزوجته . والاخير ستانسلوس كاتزنسكي عمره اربعين سنة وهو زعيم فرقتنا بعيد النظر حكيم شاطر. قسّاه الاختبار لون وجهه كلون التراب وعيناه زرقاويتان منحني الكتفين وانفه معكوف وبغاية الملائمة للهواء الرديء وهو دائماً يتمتع بالطعام اللذيذ والعمل الهين.

فنحن الثمانية كنا في راس الصف امام المطبخ وقد عيل صبرنا لان الطباخ لم ينتبه الينا . واخيراً صاح به كاتزنسكي «افتح الباب يا هنريك. كل واحد يعرف ان اللوبيا قد تم طبخها ونضجت»

اما هنريك فيهز راسه وهو نصف نائم ويقول «لا افتح الباب ما لم يحضر الكل» فاجابه تجادن «كلنا هنا». كل هذا والطباخ لم يفهم حقيقة الحال فقال «ان هذا الجواب يقنعك انت ولكن اين البقية». «لا يمكنك اطعامهم اليوم. فهم الان اما في المستشفى تضمد جراحهم او في الفضاء تغطيهم زهور الحقل». فانتبه حالاً الى حقيقة الحال واجفل وقال «اما انا فطبخت لمئة وخمسين جندياً» . وللحال نخسه كروب في جنبه وقال «اذاً سنشبع مرة في الحياة. فهلم بنا وابتدىء بتوزيع الطعام»

فبغتة ظهرت الى تجادن رؤيا وابرقت اسرته وصغرت عيناه وتحرك شدقاه وهمس في اذن الطباخ. «اذاً عندك من الخبز ما يكفي مئة وخمسين»

فهز الطباخ راسه بالايجاب ولكنه غائب مشتت الافكار فعاد تجادن ومسكه بثوبه وساله «وعندك ايضاً هذه الكمية من المقانق» فهز راسه ايجاباً ثم عاد تجادن وقال «وهل يصح ذلك على التبغ ايضاً» فصاح به

مجيباً «على كل شيء». فاشرقت اسرة تجادن وابرقت عيناه وقال «ما هذا الاغداق سيصيب كل فرد مضاعف تعيينه تقريباً»

فاغتاظ جنجر مما جرى فهز كتفيه وقال «ان هذه القسمة لا تكون». فاهاجنا قوله هذا وتجمهرنا حوله وصاح به كاتزنسكي «لماذا لا يكون هذا ايها الفجل المعفن»

«كيف يمكن ان نوزع على ثمانين حصة مئة وخمسين» فعرّ مولر قائلاً «سنريك عاقبة هذا العناد»

اما جنجر فبقي مصرّا وقال «ساسمح لكم باليخنة اما الباقي فلا اعطيكمه»»

فعيل صبر كاتزنسكي وصاح به «انك لم تجلب من الانبار طعام ثمانين جندي بل جلبت مؤونة الفرقة الثانية كلها فها هي امامك بكاملها فكن سخياً كريماً ولو مرة واحدة في حياتك واعط الفرقة ما جلبته لها واتيت به باسمها»

انه قد جنى على نفسه فتجمهرنا حوله واخذنا نغضبه وندفعه باكواعنا زد على عناده هذا انه في وقت الحرب لم يات بالطبخ الى نقطة قريبة من خط النار وكان على الذين كانوا ياتوننا بالطعام ان يسيروا مسافة طويلة بها يبرد الطعام ويخسر نكهته. وكانت هذه المسافة اطول جدّا من المسافات التي كان يمشيها ناقلو طعام الفرق الاخرى. بولك طباخ الفرقة الاولى افضل منه جدّا لانه رغم سمنه كان يحمل طناجره ويتقدم الى الجبهة الى خط النار

كلنا كنافي وضعية مناسبة لكل ما عملناه ولو لم يحضر قومندان فرقتنا لكنا بدون شك افرغنا كل طناجره وتولينا بايدينا امر تفريغ الاوعية التي فيها المؤونة وتنظيفها. وعندما حضر القومندان عرف

باختلافنا مع الطباخ فاحنى راسه وقال «اجل ان خسارتنا كانت اليوم فادحة جداً» ثم تطلع الى الطنجرة وقال «يظهر ان هذه اللوبياء جيدة جداً» فحنى جنجر راسه واجاب «اجل لقد طبخناها باللحم والدهن» فنظر الملازم في فرقتنا الينا وقد عرف ما يجول في خواطرنا وهو يعرف اموراً كثيرة من هذا النوع لانه اختبر ما نحن فيه بنفسه فقد دخل الجندية نفراً بسيطاً وارتقى في المعارك الى رتبة ملازم. فتقدم هذا الى القدر ورفع الغطاء عنها ثم التفت الى الطباخ وقال «اعطني صحناً مملوءاً منها ووزع الكل فنقدر كلنا على القيام بواجبه»

فخجل جنجر وطفق تجادن يرقص حوله طرباً وقال له «لم تنفق على هذه فلساً من جيبك وعملك هذا يجعل الناس يفتكرون انك صاحب الانبار والمؤونه . عجل ايها البخيل الممسك ونفذ الامر وحذار ان تخطىء مع احد»

فاجابه جنجر «ليتك تموت ـ يقصف عمرك» وبما انه غلب على امره اخذ يرمي ما بيده الى الهواء وتظهر عليه علامات الانكسار والخذلان ثم يعود الى رشده ويزيد على التعيين نصف اوقية من العسل الى كل جندي كل هذا حتى يظهر ان كل شيء يجري بارادته

.....

ما اجمل هذا النهار . جاء البريد وفيه لكل جندي رسائل وجرائد لا يقل نصيب الواحد منا عن اثنتين منها وها نحن نمشي الهوينا الى المرجة وراء معسكرنا وكروب يتابط غطاء علبة زبدة نباتية

على يمين المرجة محلات الراحة مسقوفة قوية للجنود الحديثي العهد الذين لا يعرفون ان يستقبلوا الحوادث والحالات بالتي هي احسن. اما نحن فلنا افضل من كل هذا لنا في المرجة صناديق مربعة

الشكل مصنوعة من الخشب مرتبة. القعود عليها مريح جداً على جانبي الواحد منها مسكتان ليسهل نقلها من مكان الى اخر. فننقل ثلاثة منها ونضعها في شكل مستدير ثم نجلس عليها براحة ولا نقوم عنها قبل مرور ساعتين. لا ازال اذكر الارتباك الذي استولى علي في احد هذه البيوت التي لا ابواب لها عندما كنت بين الجنود الحديثين اذ جلسنا الواحد جنب الاخر كاننا في عربات القطار يسهل استعراضنا في لحظة واحدة لا غرو في ذلك فكلما يفعله الجندي عرضة للاستعراض

ان صداقة الجندي مع معدته وامعائه لامتن منها في غيره من الرجال وثلاثة ارباع الكلمات التي يتلفظ بها مشتقة من المعدة والامعاء وما يجاورهما فله بهذه الالفاظ معان لا يمكن التعبير عنها بغير هذه الكلمات وهي تزيد تعابيره طلاوة وجمله بلاغة كما وانها تزيد سروره وتعبر عن حنقه وغضبه . ولو سمع اهلنا ومربونا لغتنا هذه لاغمي عليهم. ولكن هي لغة الجندية العامة . الساعات التي نقضيها في هذا المكان ساعات راحة ونجاة من كل اهتمام. فوقنا السماء الزرقاء وفي الافق تسبح طيارات العدو الاستكشافية الصفراء اللامعة ومن حولها غيوم بيضاء صادرة من القنابل المرمية عليها وتظهر هذه الغيوم كانها احزام مكدسة ونسمع دوي المدافع في الجبهة كقصف الرعد البعيد يخنقه ازيز النحل القريب منا. وحولنا المرجة الخضراء الكثيرة الازهار يلعب الهواء بالعشب الطويل فيها والفراشات البيضاء تقفز مسرورة ونحن نقرا الرسائل والجرائد وندخن سيكاراتنا ثم تنزع قبابيعنا عن رؤوسنا فيلعب الهواء بشعورنا وافكارنا والفاظنا زد على كل هذا اننا في وسط شقائق النعمان الجميلة . ونستخدم الغطاء الذي يتابطه كروب طاولة نلعب عليها بالورق وبعدها ننام

قليلاً. اه يا ليتنا نبقى في هذه المسرة كل الدهر. وبينما نحن في سرورنا هذا تاتينا انغام الموزيكا(Accordion)من اكواخ الجنود وخيامهم وغالباً نضع ورق اللعب جانباً وندير ابصارنا فيما حولنا وللحال يقول احدنا «قوموا يا شباب» او «المعركة هذه المرة قريبة منا» فنصمت قليلاً وفي كل منا شعور بانه مكره على امره فلهذا لا نتكلم عن هذا الشعور قط وقد كان من السهل ان لا نكون على هذه الصناديق وقد كان هذا الامر قريباً جداً منا فلهذا نرى كل شيء حولنا جديداً وجميلاً وباعثاً للنخوة والشجاعة. وما اشهى من الشقائق الحمراء والطعام اللذيذ والسيكارات الممتازة ونسيم الصيف البليل . ثم يسالنا كروب «هل راى احد منكم كماريخ مؤخراً» فاجيبه «انه في مستشفى القديس يوسف» ومولر يخبرنا انه مجروح في فخذه جرحاً بليغاً جداً لكنه لم يصل الى العظم فنتفق ان نذهب اليه بعد ظهر هذا النهار. ويخرج كروب رسالة من جيبه ويقول «كانتورك يهديكم اذكى السلام» فنقهقه كلنا من الضحك ويرمي مولر سيكارته ويقول «يا ليته معنا الان».

.....

كانتورك هذا كان معلمنا في المدرسة وهو رجل قصير قاس يلبس دائماً جاكتة رمادية ذات ذيل على وجهه ملامح الفارة الحذرة وحجمه كحجم الاونباشي هملستوس الملقب «رعب كلوستربرج». ومن العجيب ان الرجال القصار القامة غالباً هم شقاء العالم ومعظم تعاسة البشر تجيء عن يدهم وذلك لانهم بطبيعتهم مندفعون لا يقبلون لارائهم تبديلاً ودائماً اتحاشى ان اكون في فرقة قوادها قصيرو القامة فهم بالغالب مدققون حائرون مرتبكون. ففي اوقات التمرين كان كانتورك هذا يخطب فينا متحمساً حتى ان الصف كله ذهب الى قائد الموقع وتطوع

للحرب. اراه الآن وهو ينظر الينا من وراء نظارتيه يصيح فينا «الا تريدون ايها الاصحاب ان تدافعوا عن الوطن وتتطوعوا للحرب». ان الاساتذة الذين على شاكلة كانتورك هذا يحملون شعورهم في جيوبهم يسهل عليهم اظهاره وتفريغ جيوبهم منه ساعة يريدون وعند الاقتضاء. اجل لم نعرف هذا عندما كان كانتورك يخطب فينا متحمساً.

احدنا جوزف بهم لم ياخذه هذا الحماس وقد تردد كثيراً ولكنه انخدع اخيراً كما خُدعنا ولولا هذا لنجا من الهلاك. العلنا كلنا كنا من رايه في التردد وعدم الانقياد الى هذا الحماس الفارغ ولكننا لم نجرا على التصريح بما نراه ومن كان يجرا على التلكؤ في تلك الاوقات. الكل حتى الوالدون مستعدون ان يلقبوا المتمردين بالجبناء فكانت كلمة جبان على افواه العامة والخاصة

الفقراء البسطاء كانوا اكثر الكل حكمة لانهم راوا الحرب تعاسة وشقاء مع ان من كان ينتظر منهم ان يروا العواقب والامور باكثر وضوح جنوا من الفرح وقد قال كاتزنسكي عنهم بعد افتكار طويل ان عملهم هذا نتيجة تربيتهم الناقصة وها هم بها بلداء حمقى

ومن اغرب الامور ان جوزف بهم كان اول الذين سقطوا في ساحة الوغى ففي احدى الهجمات اصيب بعينه وتركناه مطروحاً على الارض حاسبينه ميتاً ولم نقدر ان نحمله في تقهقرنا لاننا رجعنا متفرقين يطلب كل منا مخبأ. ثم بغتة سمعناه بعد ظهر ذلك النهار يدعونا. نظرنا اليه فاذا به يزحف على بطنه نحونا. فما اصابه قبل الظهر القاه مغمياً عليه ولما استيقظ من اغمائه ووجد ان عينه قد فقئت وقد اشتد عليه الالم فلم يقدر ان يبقى مختبئاً فزحف نحونا فاصابته رصاصة قضت عليه قبل ان يتمكن احدنا ان يركض لنجدته وخلاصه

لا احد منا يلوم كانتورك على عمله هذا. وما مصير العالم لو عاش كل فرد حسب حرفية كتبه ونصوصها . الكانتوركيون كثيرون الوف مؤلفة وكلهم يعتقدون بصحة ما يجرونه متاكدون انه الافضل غير ان عملهم هذا وحماسهم لا يكلفهم شيئاً. ولكنهم قد جرونا الى تعاسة متناهية. كان الاحرى بهم ان يرشدونا نحن الفتيان ابناء الثامنة عشرة الى عالم العمل والرشد واتمام الواجب والتهذيب والنجاح الى مستقبل مجيد ينتظرنا وهو في ايديهم. اجل كثيراً ما كنا نهزا بهم ولكننا كنا في دواخلنا نثق بهم ثقة عمياء لانهم لنا فكرة السلطة نراهم يمثلونها مرفوقة بالحكمة والانسانية المتناهيتين ولكن سرعان ما انتسخ هذا الاعتقاد منا لاننا بثقتنا بهم راينا الموت يحصدنا وعليه يمكن القول ان الثقة بجيلنا لاسلم عاقبة وافضل منها بجيلهم. اجل انهم يفوقوننا فصاحة وفي تنسيق العبارات وتجميلها وها نحن عرفنا خطأنا باستسلامنا الى حماسهم عند طلق المدفع الاول وللحال تحطم امامنا العالم الذي علمونا عنه وتقطع قطعاً لا تستحق ادنى انتباه او اهتمام . فبينما هم يخطبون ويكتبون نرى الجرحى والموتى وبينما هم يعلمون ان واجب الفرد لوطنه اعظم الاشياء نجد نحن حشرجة الموت والاحتضار اقوى عزماً واشد تاثيراً وفوق كل ذلك نعرف باننا لسنا متمردين وجبناء ومتشردين كما كانوا يغدقون علينا مثل هذه الالقاب. نحن نحب اوطاننا مثلهم ونخوض غمار المعارك بكل شجاعة وزد على ذلك اننا نقدر الان ان نفرق بين الصحيح والفاسد وبغتة ينزل من اعيننا قشور فنرى الحقائق كما هي وعليه نرى الان انه لم يبق شيء من العالم الذي صوروه لنا وها نحن قد تركنا لانفسنا منفردين ولكننا نحارب منفردين ايضاً الى النهاية

.....

علينا قبل ان نذهب لزيارة كمريخ ان نجمع حوائجه لانه يحتاج اليها برجوعه الى بيته. وها في غرفة تضميد الجراح حركة دائمة وعمل متواصل متتابع والغرفة محشوة برائحة الكربوليك والايثير والعرق ولا اعرف لماذا كاد يغمى علينا منها في هذا المكان مع اننا اعتدناها في الثكنات . وعند وصولنا نسال عن كمريخ ونتبع مرشدنا فنرى كمريخ ملقى على سرير خشبي في غرفة كبيرة فيستقبلنا وعليه كل علامات الضعف والاعياء ولكنه يظهر بعجز من وراء هذا الفرح والانبساط ثم يخبرنا انه بينما كان في حالة الاغماء سرقت ساعته فيهز مولر راسه مستخفاً ويقول له «ما اجنك لطالما قلت لك ان من يحمل ساعة ثمينة كهذه في محيط كهذا لمجنون».

ان مولر عديم الذوق لا يزال على طبيعته الفطرية ولولا ذلك لبقي صامتاً ولم ينبس ببنت شفة. ان كمريخ لا يخرج من هذا المكان حياً وهذا ظاهر لكل من يراه فوجود ساعته عنده او فقدانها سيان غير انه كان من الممكن ان يرسل احدنا هذه الساعة الى اهل كمريخ بعد موته. ثم يتقدم كروب ويساله «كيف الحال يا فرانز» فيرمي كمريخ راسه الى الوراء ويجيبه «الحالة ليست رديئة ولكن رجلي تؤلمني جداً» فننظر الى فراشه ونرى شبكاً من الشريط فوق رجله ليرفع ثقل الغطاء فيهم كروب ان يخبره بما قاله لنا الخادم في المستشفى عنه فبادر كروب بلطمة على فخذه ليصمت. اما ما قاله لنا الخادم فهو ان رجل كمريخ قد بترت وما لونه الاصفر الا من علامات الموت وهذه الخطوط التي تظهر على وجهه هي خطوط الجهاد الاخير بين الموت والحياة وهي علامات قد راوها على مئات من المحتضرين قبل كمريخ وفي هذا المستشفى ايضاً. وما كان فيه من علامات الحياة قد وقف في داخله عن

النبض وما كان من النبض ظاهراً على البشرة فانما هو في مرحلته الاخيرة لانه خارج من الجسم وها سلطة الموت تظهر في عينيه

هذا هو صديقنا ورفيقنا كمريخ الذي من مدة وجيزة كان يشاركنا في سرائنا وضرائنا في شي لحم الخيل وفي التخبؤ في الحفر والخنادق فها هو زائل فانٍ مع انه موجود . لقد ساد عليه الضعف والناظر اليه لا يعرفه كمن ينظر الى زجاج قد رسم عليه المصور بالشمس صورتين الواحدة فوق الاخرى وها صوته كصوت الضرب في الرماد

افتكر الان بامه فعندما ذهبنا الى المحطة لنجيء الى ساحة الحرب ظهرت امراة طيبة القلب كبيرة الجثة متورمة الخدين والعينين لكثرة البكاء وما هي عند التحليل سوى دهن وماء ومعها ابنها كمريخ الذي كانت عليه علامات الحيرة والارتباك لكثرة بكاء امه وفرانز هذا كان ولداً لين العظام وبرهاناً على ذلك ان عظامه التوت في التمارين العسكرية مدة اربعة اشهر وبينما نحن ننتظر السفر جاءت هذه الام الباكية وطلبت مني ان اعتني بفرانز ولكن من اين لنا ان يعتني الواحد بالاخر في ساحة الحرب

فيعود كروب ويكلم كمريخ «عن قريب ستذهب الى بيتك برخصة . ولولا حالتك الان لكان عليك ان تبقى في ساحة الحرب اربعة اشهر قبل ان تنال رخصة كهذه» فيحني كمريخ راسه . اما انا فلا اقدر قط ان انظر اليه وقد صارت يداه كالشمع وها اوساخ الخنادق والجندية تحت اظافره كانها السماد على البقدونس فتستمر الاظافر على نموها حتى بعد موته فيلف الواحد منها على الاخر وان شعر راسه سينمو على جمجمته الفانية نمو العشب في التربة الجيدة . اجل كيف يمكن ان

يكون هذا. ثم ينحني مولر فوقه ويهمس في اذنه قائلاً «لقد اتيناك بكل حوائجك يا فرانز»

فيشير كمريخ بيده ان يضعها تحت السرير فيصدع مولر بالامر وكمريخ يعود ويسال عن ساعته المفقودة. وكيف يمكنا ان نهون عليه الامر بدون ان نثير فيه الشك والريبة بمن يتولون خدمته

يعود مولر ويريه حذائين انكليزيين من احذية الطيارين قويين اصفرين يعلوان حتى الركبتين يربطان بشريط عريض وبالاجمال هما مجلبة للتحاسد والتزاحم. ان مولر يبتهج جداً برويتهما ويقابلهما بحذائيه القذرين المفتقين ويقول «هل تود يا فرانز ان تاخذ هذين الحذائين معك»

اجل ان قول مولر هذا يجعلنا نحن الثلاثة الباقين ان نفتكر فكراً واحداً وهو على فرض ان فرانز قد شفي تماماً فلا يمكنه الانتفاع من الحذائين لان احدى رجليه قد بترت ثم ان بقاءهما في المستشفى مع ما هو عليه فرانز من الضعف وخطر الموت خسارة لان خدام المستشفى سيستولون عليهما وعلى كل حوائج كمريخ قبل ان يلفظ نفسه الاخير

ثم يعيد مولر عليه الكرة «الا تسمح لنا ان نحفظهما لك معنا» فيابى كمريخ ذلك لانه يحبهما محبة شديدة فيعود مولر ويقول «اذن دعنا ان ناخذهما ونعطيك بدلاً عنهما لانه قد ينتفع احدنا بهما» فلا يغير كمريخ رايه او عزمه. وقد وضع مولر في قلبه ان يستولي عليهما فلذلك ادوس على قدمه ان يصمت فيصمت ويرجع الحذائين الى تحت سرير كمريخ وبعد ان نحدث كمريخ قليلاً نخرج مودعينه متمنين له العافية واعده انا ان اعوده في الصباح التالي ويقول مولر القول نفسه وهو يود ان يحضر في الوقت الملائم لياخذ الحذائين

كمريخ يتنهد ويتاوه لشدة وجعه وعظم الحمى عليه فنمسك خادماً ونطلب اليه ان يعطي كمريخ مسكناً مورفيناً فيرفض الخادم قائلاً «لو اردنا ان نحقن كل متالم بالمورفين لما كفانا الالوف المؤلفة من البراميل منه» فيغضب كروب ويقول له بشراسة «انتم هنا لا تهتمون الا بالضباط» وللحال اتداخل بالامر واقدم الى الخادم سيكارة فياخذها واساله «هل يسمح لكم ان تحقنوا المتالم بمورفين» فيغضب ويقول «لماذا تسال هذا السوال وانت تعرف جوابه» فاعود واضع في يديه سيكارات عديدة وارجوه ان يمن علينا بحقنة مورفين لكمريخ. فيلبي الطلب ويدخل معه كروب لانه لا يثق بخدام المستشفيات في الحرب. اما نحن فنبقى خارجاً ويعود مولر الى الحديث عن الحذائين ويقول «انهما يلائمانني كل الملائمة وها رجلاي يصيبهما الجرح تلو الاخر من جراء الحذائين الذين البسهما. اتظن ان كمريخ يبقى حياً حتى صباح الغد والى بعد قيامنا بالتمارين المفروضة لانه اذا مات في هذا الليل فلا امل لنا بالحذائين بل عليهما الف سلام»

ثم يعود كروب ويسال «اتظن انه...» فيجبه مولر «قضي الامر».

نعود الى اكواخنا وانا افتكر بما عساي ان اكتب في اليوم التالي الى ام كمريخ. وهذا مما يجمد الدم في عروقي ويجعلني ان اشعر بحاجة الى شرب كاس من الرم (مسكر) اما مولر فيقتلع لنفسه من الارض حشيشاً ويمضغه. وكروب يرمي سيكارته بغتة ويدوسها بقدمه بكل شراسة ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال ويتمتم لنفسه وعليه علامات الحزن والانكسار ويقول «يلعن هذه الحالة. ما العن هذا الحظ» فنخرج الى الفضاء ونسير ذهاباً واياباً مدة طويلة وهذا ما يهدىء من روع كروب. ان كروب قد راى الدم يجري وفي هذه الامكنة منظر

الدم جارياً منظر شائع يراه كل فرد

ثم يلقي مولر على كروب سوالاً فيه «ماذا كتب اليك كانتورك يا كروب» فيبتسم كروب ويقول «كتب الي اننا احداث كالحديد» فنبتسم كلنا ابتسامة المرارة ولكن كروب يزيد على الابتسامات علامات الاستهزاء والاحتقار وهو بالوقت نفسه مسرور لان له فرصة ان يتكلم

اجل ان هذا ما يدور في خلد كانتورك والالوف الذين على شاكلته يقولون اننا احداث كالحديد . اجل احداث لان عمر الاكبر فينا لا يزيد عن العشرين سنة ولكن حداثتنا كانت منذ اعوام عديدة. فنحن الان شيوخ وكهول

الفصل الثاني

من الغريب ان يتسلط علي الان فكر ان في جرار مكتبتي في البيت القسم الاول من رواية «شاول» وعدد عديد من قصائد واشعار احييت الليالي لتحبيرها ونظمها ولكنها اليوم تظهر لي كانها حلم مضى وكانها لم تكن لانني لا اقدر ان احيط بها علماً. فنحن قد فصلنا عن حياتنا الاولى ساعة جئنا الى الساحة الحربية. يتم كل هذا ولا راي لنا به او يداً في حدوثه. ولطالما نجرب الان ان نعود بالذاكرة الى الماضي لنربطه بالحاضر او على الاقل لنجد مبرراً لحالتنا هذه ولكننا كل مرة نفشل. اجل ان كل شيء غير صريح وواضح لنا نحن اقول لنا نحن كروب ومولر ولير ولي انا ابناء العشرين من يقول

عنا كانتورك وامثاله اننا احداث كالحديد. من هم اكبر منا سناً مربوطون بماضيهم لهم زوجات واولاد واعمال ومصالح هذه الامور كلها عظيمة لا يمكن للحرب ان تفصلهم عنها. اما نحن الاحداث ابناء العشرين فما لنا سوى الوالدين وتاثيرهم علينا في هذا العمر ضعيف جداً. وقد يكون لبعضنا عشيقة ولكن لا سلطة مطلقة للبنات على من هم من اعمارنا. وما خلا هذا فقد يكون لبعضنا بعض الملاهي والمدرسة. وعلى كل ان حياة كل منا لم تشمل اكثر من هذا وها الحرب لم تترك لنا شيئاً من كل هذا

قد يقول كانتورك اننا على عتبة الحياة وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن اقدامنا لم ترسخ بعد فالحرب قد جرفتنا وما الحرب لمن هم اكبر منا سوى توقف وقتي عما يربطهم بماضيهم فهم لا يزالون يفتكرون بما هو ابعد من الحالة الحاضرة اما نحن فقد قبضت علينا الحرب بيد من حديد وبطريقة غريبة جعلتنا ارضاً مهملة غير صالحة لشيء ومع هذا لسنا متاسفين على ما نحن عليه

.....

مع ان مولر يود ان يكون له حذاء كمريخ ولكن شعوره الشريف يمنعه عن ان يفتكر بهذا . اجل انه يرى الاشياء كما هي. ولو كان كمريخ قادراً على الانتفاع من حذائيه لفضل مولر ان يدوس الشريط الشائك حافياً على ان يخط الطرق ليعرف كيفية الحصول عليهما. وها الحالة معروفة فكمريخ يحتضر ولا يمكنه الانتفاع منهما بينما مولر يستفيد منهما فائدة كبرى. وكمريخ لا يهمه من يستولي على حذائيه فلماذا لا يستولي عليهما مولر. وهو اكثر اهلية من خادم مستشفى للاستيلاء عليهما. وعندما يموت كمريخ يفوت الوقت فمولر متيقظ جداً حتى لا تفوته الفرصة .

قد افقدتنا الحرب كل شعور ولا نهتم لمراعاة خاطر احد . ان هذه امور اصطناعية ونحن تهمنا الحقائق فقط. والحقيقة الان ان الاحذية الجيدة قليلة جداً.

.....

احوالنا كانت عكس كل هذا فعندما ذهبنا الى شعبة اخذ العسكر لنتطوع للحرب كنا عشرين شاباً من صف واحد في المدرسة وبعضنا كانوا يفتخرون لانهم حلقوا لحاهم لاول مرة قبل وصولهم الى الثكنة العسكرية . ولم يكن لاحد منا خطة معينة يتبعها في مستقبله وافكارنا فيما يتعلق بعمل خاص للحياة او مهنة كانت لا تزال قصوراً هوائية وهمية لا يعول عليها في ترتيب خاص للحياة المستقبلة. وكانت رووسنا لا تزال مفعمة بالاراء المبهمة التي جعلت الحياة كلها حتى الحرب فيها مثلاً عالياً وصبغتها بصبغة الخيال اللذيذ المنعش. بقينا عشرة اسابيع في الجندية تتمرن على حركاتها وهذه الاسابيع العشرة تركت فينا اثراً لم تتركه عشر سنوات من سني المدرسة وللحال تعلمنا ان الزر النظيف لاثمن جداً من اربعة مجلدات من اقوال شوبنهور. ابتدانا الجندية معجبين متعجبين ثم صرنا ساخطين متمرمرين وبعده صرنا ولسان حال كل منا «لا يهمني وشو بيسايل» لا ناقة لي فيها ولا جمل» وعرفنا ان لا قيمة للعقل في العسكرية بل القيمة لفرشاة الاحذية ولا اهمية للفطنة بل للنظام العسكري ولا مكان للحرية بل للتمرن الجندي . جئناً للتجند بحماس وغيرة واخلاص ولكن ذوي الامر قد نزعوا كل هذا منا. وبعد ان قضينا ثلاثة اسابيع عرفنا ان لموزع البريد القذر سلطة علينا تفوق سلطة والدينا ومعلمينا لا بل سلطة رهط المهذبين وجماعة المدنية منذ عصر افلاطون حتى زمن غوته. وها عيوننا قد

انفتحت فعرفنا ان نظريتنا السامية ببلاد ابائنا تلك النظرية التي اوجدها فينا المعلمون قد تحولت الى حقيقة ناصعة وهي ان ينكر الفرد شخصيته ويطيع اوامر بحد ذاتها تافهة للغاية كالتحية العسكرية والانتباه الجندي والسير العسكري المنظم وضرب عقبي الرجلين الواحد بالاخر وسماع الشتائم والتوبيخات والاهانات والسكوت على ذلك والوف من هذه التوافه المخجلة وكلها قد تصدر من خادم دنيء حقير. كنا نظن ان عملنا يكون غير ذلك ولكن وجدنا ان تربيتنا للبطولة الحربية هي تربية خيول السبق والالعاب البهلوانية ليس الا. ولم يمض علينا الا القليل حتى اعتدنا هذه الامور وظهر لنا ان بعضها ضروري والبعض الاخر ليس الا هيبة ـ وللجنود ميل خاص للهيبة والتظاهر

.....

اننا قد قسمنا الى فرق من ثلاثة واربعة وتوزعنا على الفرق المختلفة وفي كل فرقة صيادو سمك وفلاحون وعملة ولكننا حالاً صادقناهم. وكان نصيب كروب ومولر وكمريخ ونصيبي انا ان نكون في الفرقة التاسعة تحت امرة الاونباشي هملستوس.

وهملستوس هذا كان مشهوراً بدقته في العسكرية وتمريناتها وقد كان فخوراً بهذا الصيت وهو قصير القامة ذو شاربين معكوفين جندي منذ اثنتي عشرة سنة. وقبل ذلك كان موزع بريد. وقد كان يظهر عليه كره خاص لكروب وتجادن ووسوس ولي لانه شعر بميل فينا لاحتقاره.

في احد الاصباح اضطررت ان ارتب فراشه اربع عشرة مرة وكان كل مرة يجد فيه عيباً فيرميه الى الارض واعود الى ترتيبه. ومرة بقيت عشرين ساعة تقريباً ادلك حذاءً قديماً اقسى من الحديد حتى صار

ليناً كالحشيش ولم يبق في جعبة هملستوس انتقاد بشانه • ومرة امرني فغسلت بلاط غرفته بفرشاة الاسنان وقد امرني وكروب ان ننقل الثلج من دار الثكنة بمكنسة البيت ومجرود صغير وبينما نحن نعمل وقد جلّدت اطرافنا مرّ رئيس فرقتنا فارجعنا الى اكواخنا ووبخ هملستوس على عمله هذا وما كان هذا الا ليزيده بغضاً لنا• لستة اسابيع متوالية كانت قرعتي ان اكون نوبتجياً كل يوم احد وبعدها بقيت ستة اسابيع اخرى خادم كوخه ومرة حملت المعدات التامة وارسلت الى حقل مفلوح في يوم ممطر للتمرين في كيفية الهجوم والاضطجاع على الارض حتى صرت اخيراً كومة واحدة من الوحل وبعد ذلك بربع ساعة كان علي ان اجيء اليه نظيفاً في كل ما علي من الثياب والاحذية ولكن الدم كان يسيل من يدي الملتهبتين• ومرة وقفت وكروب ووشوس وتجادن وقفة عسكرية في يوم صقيعه قارص مدة ربع ساعة ولا كفوف في ايدينا وكل ذلك ليرى هملستوس حركة اصابعنا على ديك البندقية• ومرة اجبرت ان اركض ثماني مرات من الطابق العلوي الى دار الثكنة وذلك الساعة الثانية بعد نصف الليل ولا لباس علي سوى قميص النوم وكل ذلك لاني وضعت بنطلوني على كرسي بقربي وكانت طيته تزيد عن مساحة الكرسي بثلاثة قراريط وكان الاونباشي هملستوس يركض معي ويدوس على قدمي الحافيتين• وعندما كنا نتمرن على استعمال الحراب كان نصيبي ان احارب ضد هملستوس فكان يحمل قضيباً خفيفاً يسهل نقله وانا كنت احمل حربة حديدية ثقيلة ولهذا كان يسهل عليه ان يصيبني بقضيبه فكان يضربني على ذراعي حتى تصيران زرقاوين وسوداوين • ومرة جننت من الالم فهجمت عليه وانا لا اعي على شيء وصفعته على معدته صفعة قوية رمته الى الارض ولما

شكا امره الى قائد الفرقة اجابه ذلك مستهزئاً انه كان عليه ان يكون اكثر تيقظاً. قال هذا لانه كان يعرف من هو هملستوس ولم يغضب لما اصابه. ان التمرينات الجمناستيكية العديدة التي اجبرنا عليها جعلتني ان احذقها كلها حتى صرت فيها استاذاً. وبالحقيقة اننا كلنا كنا نرتجف خوفاً عند سماع صوت هملستوس ولكننا لم نفسح لهذا «البوسطجي» الحقير ان يتغلب علينا بشيء

كنت وكروب في صباح احد ايام الاحاد ننقل دلواً مملوءاً من الماء فمر بنا هملستوس مرتب الثياب نظيفها فوقف امامنا وسالنا اذا كنا نحب عملنا. ولكننا بالرغم عنا افرغنا الدلو على ساقيه فهاج وماج غضباً ولكن قضي الامر. فصرخ بنا

«ان هذا العمل يستوجب القصاص» ولكن كرو بوقد عيل صبره قال «ولكن قبل كل شيء ـ الفحص ـ وعنده سنفرغ جعبتنا»

فاجاب هملستوس «هل جننت حتى تتكلم مع ضابط هذا الكلام وبهذه اللهجة كان الاولى ان تبقى صامتاً حتى اتكلم اليك وما عساك ان تعمل»

«انك سترى يا سعادة الاونباشي» قال كروب هذا ويديه في جيبه

فتاكد هملستوس اننا عزمنا على العمل فانسل دون ان يزيد كلمة على ما قال ولكن قبل انصرافه قال «انكما ستشربان عاقبة هذا» وهذا القول كان خاتمة سلطته علينا لانه جرب مرة اخرى ان يظهرها فاخذنا الى حقل مفلوح حديثاً واخذ يصدر اوامره بان ننطرح على الارض ونهجم فكنا نطيع الاوامر لانها اوامر عسكرية ولكننا كنا نطيعها بكل بطء حتى بح صوته قبل ان شعرنا بادنى تعب او عرق. فعندئذ تركنا

بسلام وهو يشتمنا باقبح الشتائم ولكنه هذه المرة كان يقرن شتائمه بلهجة احترام واعتبار

الاونباشيون كثيرون وبعضهم كانوا اكثر تادباً منه ولكنهم كانوا يهتمون بان يحافظوا على مراكزهم واعمالهم فكانوا مدققين مع المتطوعين والرديف -

وهكذا اجتزنا كل ما يعرف بالتهذيب العسكري حتى صار بامكاننا ان نستشيط غيظاً ونقذف الشتائم. غير ان الكثيرين منا قد مرضوا من جراء هذا وولف قد مات من التهاب الرئتين ولكن لو حافظنا على شخصيتنا الاولى لكنا موضع السخرية والاستهزاء ونحن تحت السلاح صرنا قساة سيئي الظن عديمي الشفقة ارذالاً وهذا ما كنا ننقصه. فلو ذهبنا الى الخنادق بدون هذا التمرين لجنّ اكثر من نصفنا وبهذا فقط نستعد الى ما هو مخبا لنا فنحن لم ننحط ولكننا بهذا نصير اكثر ملائمة لاحوالنا ويساعدنا على ذلك كوننا ابناء عشرين الامر الذي سابقاً كان سبباً للشفقة والعسكرية توجد فينا ما هو اهم من كل ما ذكر الا وهو الذكاء وخفة الروح وهذا يتطور في اوقات الحرب فيوجد الصداقة بين الجنود وهذا امر شريف سامٍ

.....

اجلس بقرب سرير كمريخ وهو يحتضر. وحولنا حركة وغوغاء. ها قد وصل قطار من ساحة الحرب فيه جرحى يمكن نقلهم فالطبيب يمر بسرير كمريخ بدون ان ينظر اليه

«يا فرانز المرة التالية» فينهض كمريخ راسه مستنداً على ذراعيه ويقول «انهم قد بتروا رجلي»

انه يعرف هذا فاحني له الراس ايجاباً واقول «يجب ان تشكر الله على خلاصك بهذه الحالة»

فرانز يصمت اما انا فاستانف الكلام واقول «كان من الممكن ان تخسر رجليك معاً ها وجلر قد فقد يده اليمنى وهذه حالة اسوأ من حالتك وزد على كل ذلك انك ستذهب الى البيت» فينظر الي ويقول «اتظن ان هذا يتم» «بدون شك يا فرانز. وعن قريب ستشفى»

وهو يرجوني ان انحني اليه فعندما انحني يهمس في اذني قائلاً «اني لا ارى الحياة نصيبي»

«بلا خلط يا فرانز سترى بنفسك الامر بعد يومين وما الرجل المبتورة بالامر الهام فها هم في هذه الايام يرقعون ما هو اصعب جداً من هذا».

فيرفع يده ويقول لي «ولكن انظر الى هذه الاصابع»

«ان هذا نتيجة العملية. فقط عليك ان تاكل كثيراً لتتغذى وعندئذ تشفى. هل يهتمون بك هنا»

«انظر الى تلك الصحفة التي لا تزال مملوءة»

«يا فرانز عليك ان تاكل والاكل دواؤك الوحيد» . وبعد سكوت قليل يعود ويقول «كنت عازماً ان اكون عاملاً في الاحراج»

«وهذا لا يزال لك فها هم اليوم يصنعون ايدٍ وارجلاً وقد احكموا الصنعة حتى تكاد لا تفرق الاصطناعية عن الطبيعية. وهم يربطون هذه الى العضلات بطريقة يمكن للعضلات ان تحركها فتقدر ان تكتب بيد اصطناعية. وزد على كل ذلك ان هذه الصناعة في سبيل التحسين والرقي المتواصل»

يصمت كمريخ برهة ثم يقول «يمكنك ان تاخذ حذائي الى مولر»

فاحني راسي مذهولاً ومتحيراً ما عساني اقول لانفخ فيه روح الشجاعة فشفتاه قد ارتختا وفمه قد كبر وظهرت انيابه كانها مصنوعة من طباشير وها لحمه قد ذاب ونتأ جبينه وخداه وها هيكله العظمي اخذ ان يظهر ظهوراً تاماً وعيناه قد غارتا وحياته قد تنتهي بعد ساعتين

لم يكن كمريخ اول من رايت محتضراً ولكننا ربينا معاً وهذا ما يجعل الفرق كله بين احتضاره واحتضار غيره. فلطالما كنت انسخ مقالاته وفي المدرسة كان يلبس جاكتا بنية حولها زنار ولها اكمام لمّاعة وكان الوحيد في الصف الذي يقدر ان يدير جسمه على الجامنستيك دورة الابطال وكان شعره يتدلى على وجهه كتدلي خيوط الحرير. كانتورك كان يفاخر به ولم يقدر ان يشم فيه رائحة تدخين التبغ فبهذا كان كانه ابنه

انظر الى حذائي فاذا بهما كبيران يغطيان رجلي بنطلوني وعندما نقف نظهر كاننا رجال قد تكامل نمونا وتناسبت اعضاؤنا ولكن عندما نذهب للاستحمام ونخلع ثيابنا تظهر سيقاننا الرفيعة واكتافنا الدقيقة فلا نظهر بمظاهر الجنود وما نحن سوى صبيان كبار ويكاد الناس لا يصدقون اننا نحمل على ظهورنا ما يحمله الجنود من عدد ومعدات. عندما نقف عراة نشعر ثانية باننا متمدنين. وعندما نستحم كان كمريخ يظهر نحيفاً سريع العطب كالطفل وها هو الان مطروح على فراش الموت ـ لماذا ـ فيجب ان يمر بفراشه العالم باسره ويقول «هذا فرانز كمريخ عمره تسع عشرة سنة ونصف وهو لا يريد ان يموت فيجب ان لا يموت»

فمن هذا تضطرب افكاري وها هواء الغرفة المشبع من رائحة الكربوليك ورائحة الغنغرينا مما يوقف الرئتين ويخنق اشد الابطال ها الظلام يقترب رويداً ويتغير لون وجه كمريخ. يرفعه عن

مخدته وهو يلمع لكثرة اصفراره. يتحرك فمه قليلاً فاجيء اليه وانحني لاسمع كلماته الاخيرة فاذا به يوصيني ان ارسل ساعته الى اهله اذا وجدتها

لا اقدر ان اجيب على هذا ولا نفع من تعزيته او تشجيعه وها انا قد فقدت كل قواي انظر فاذا امامي جبين ناتيء وفم مملوء من الاسنان وانف حاد وافتكر بامراة سمينة تذرف الدموع سخينة اذا كتبت اليها وها الخدمة في المستشفى يروحون ويجيئون وبايديهم زجاجات وسطول واحدهم يقترب من كمريخ ويلقي عليه نظرة ويذهب ولكن من يراه يفعل ذلك بسهولة يدرك ان الخادم بحاجة الى السرير الملقى عليه كمريخ فاعود انا وانحني لاكلم فرانز كان كلامي سيخلصه «العلك عن قريب تذهب الى كلستربرج دار النقاهة بين البيوت الجميلة ومن ورائهما في الافق الشجرتين . اه ما اجمل الطقس هذه الايام فها الحنطة قد نضجت وعند المساء تتكسر عليها اشعة الشمس وتظهر كانها لؤلؤ وهناك ترى الشارع في كلوستر باخ ومن على جانبيه الاشجار فهناك تقدر ان تبني بركة لتربية السمك وتصطاد منها ساعة تريد بدون استئذان احد ويمكنك ان تذهب لتعزف على البيانو ساعة تريد»

اعود وانحني على وجهه فاذا به لا يزال يتنفس وخداه مبللان من دموعه لانه يبكي . ما اجهلني ان اقول له كل هذا فللحال اعود واقول له «الا تريد ان تنام الان» اقول هذا واضع يدي وراء ظهره وخدي على خده . اما هو فلا يجيب ولكن دموعه تتساقط على خديه. اريد ان امسحها ولكن منديلي قذر للغاية

تمر ساعة وانا جالس اراقب كل حركة من حركاته عله يقول شيئاً. ما العمل اذا فتح فاه وصرخ . لكنه يبكي وينقل راسه لا يذكر

امه واخوته واخواته لا يقول شيئاً فكل هذه الامور الان وراءه لا علاقة له بها وهو الان وحيد معه تسع عشرة سنة فقط وهذه ايضاً تتركه عما قليل وهو يبكي لان هذه تبتعد عنه. ان احتضار كمريخ اصعب احتضار رايته . اجل ان احتضار تيدجان كان صعب . نادى امه ولا مجيب وهو كان كالدب الكبير وبعينين مملوئتين خوفاً ابعد عنه الطبيب شاهراً عليه سكيناً وبقي هكذا حتى لفظ انفاسه الاخيرة

بغتة يتاوه كمريخ ويبقبق فاركض الى الخارج طالباً طبيباً وعندما يقع نظري على مريول ابيض امسكه بكلتي يدي صارخاً «اسرع فرانز كمريخ يحتضر» اما هو فيفلت مني ويسال الخادم من هو هذا كمريخ

«نمرو ٢٦ صاحب الرجل المقطوعة»

«كيف اعرفه وقد قطعت اليوم خمسة ارجل»

يقول هذا ويدفعني ثم ينظر الى الخادم ويامره ان يهتم هو بالامر ويركض الى غرفة العمليات . اما انا فارتجف من الغضب واسير مع الخادم الذي ينظر الي ويقول «منذ الساعة الخامسة هذا الصباح ونحن نجري عملية تلو الاخرى. واليوم مات ستة عشر وصديقك السابع عشر وقد يصل العدد الى العشرين»

لقد خارت عزائمي واكاد يغمى علي وبغتة شعرت باني لا اقدر على شيء ولذلك لا اريد ان ازيد اللعنات والشتائم واخاف ان اسقط ولا اعود اقوم . ها نحن بقرب سرير كمريخ. قد مات. ووجهه لا يزال مبللاً بدموعه. عيناه نصف مفتوحتين وصفراويتان

ثم يلطمني الخادم قائلاً «وهل تريد ان تاخذ امتعته» فاحني راسي ايجاباً ولكنه يستانف كلامه ويقول «يجب ان ندفنه حالاً لاننا بحاجة الى سريره. وها غيره في الخارج على الارض ينتظرون ادخالهم الى

الداخل» فللحال اجمع امتعة كمريخ وانزع عنه نمرته وما تعرف منها هويته اما الخادم فيسالني عن الدفتر الذي يقيد فيه اجرته من العسكرية فاجيبه بانه لربما في غرفة الخدمة اقول هذا وامضي. وها هم ورائي يلفون فرانز بشرشف من المشمع واشعر في الظلام والهواء خارج الغرفة بحرية فاتنفس الصعداء واشعر بالهواء البارد يهب على وجنتي كانه عليل بليل وحالاً تعود الي الافكار عن الصبايا والمروج المزهرة وانا اركض مسرعاً والجنود تمر بي سراعاً واسمع اصواتهم دون ان افهمها . اما الامطار فغزيرة لدرجة اشعر ان الارض كلها تتفجر ينابيع تصب مياهها علي وعلى حذائي

هدوء الليل تزعجه الاصوات التي ترعد في الجبهة بالكهربائية كانها جوق موسيقى من الطبول. اما رجلاي فتحملانني بسهولة واشعر ان اعصابي كلها متشددة واتنفس الهواء تنفساً عميقاً. ان في الليل حياة وانا حي . واشعر بجوع لم اشعر به من ذي قبل وهذا اعظم جداً من الجوع الذي نشعر به في المعدة

على باب كوخنا مولر ينتظر رجوعي . اعطيه الحذائين وندخل ويجربهما فاذا بهما يلائمانه غاية الملائمة ثم يعطيني مما عنده من الماكولات قطعة لحم ومعها يقدم لي شاياً وروماً.

الفصل الثالث

لقد وصلت القوات وسدت الفراغ الذي احدثته المعارك ولم يبق كيس من القش في الاكواخ الا واصابه ان يكون فراش احد القادمين حديثاً

يظهر ان بعض هولاء القادمين خبيرون فيما انتدبوا لاجله ولكن بينهم خمسة وعشرين رجلاً من جبلة حديثة كلهم اصغر منا بسنتين فعند رؤيتهم ينظر الينا كروب ويقول «انظر الى الاطفال». اهز راسي ايجاباً اما نحن فننفخ صدورنا الى الامام ونذهب الى العراء لنحلق ذقوننا ثم نضع ايدينا في جيوبنا ونتفحص الجنود الذين وصلوا حديثاً وعندئذ نشعر بذواتنا اننا خبيرون بالحرب ومحنكون فيها كاننا من بقايا العصر الحجري

يجيء كاتزنسكي وينضم الينا فنسير الهوينا مارين بالجنود الحديثين وننظر اليهم وتُوزع عليهم القهوة والكمامات الواقية من الغاز

فيسال كاتزنسكي احد الصغار «من مدة مديدة لم يصل اليكم شيء لائق للاكل اه ؟»

فيجيبه باستخفاف «للترويقة خبز اللفت وللغداء شوربا اللفت وفي العشاء شقف لفت مع سلطة لفت»

فيجيبه كاتزنسكي بصفرة الاستهزاء بانه يعرف ذلك «لقد كنتم سعداء ان تاكلوا الخبز مصنوعاً من اللفت. فلا شيء يمنع من ان يكون

الخبز من نشارة الخشب. فما قولكم بطبخة لوبياء. خذ منها»

فيحمر الصغير غيظاً ويقول «لا يمكنك ان تهزأ بي»

فيجيبه كاتزنسكي «عليك ان تاتي بالتنكة»

فنتبعهما نحن حشرية. وهكذا يقودنا كاتزنسكي الى قصعة كبيرة بقرب كيس القش الذي ينام عليه وبكل تاكيد انها مملوءة من اللوبياء واللحم حتى نصفها اما كاتزنسكي فيقف امامها كانه جنرال فيصدر امره قائلاً «البروسيانيون يقولون ليكن نظركم حاداً وايديكم خفيفة الحركة» فنعجب جداً من هذا فاساله انا «يا ازعر يا كاتزنسكي كيف حصلت على كل هذا»

«اخذتها من جنكز واعطيته عوضاً عنها ثلاث قطع من الحرير. وقد سرّ جداً بهذه المقايضة. اللوبياء الباردة لذيذة جداً»

يقول هذا ويعطي الجندي الصغير نصيبه قائلاً «في المرة التالية عندما تجيء بقصعتك اجلب معك لي سيكاراً او تبغاً للمضغ. اما انتم فتاخذون نصيبكم مجاناً»

.....

لولا كاتزنسكي لقضي علينا فله حاسة سادسة. في كل مكان اناس ككاتزنسكي ولكن الناس لا يقدرونهم قدرهم الا عند الحاجة . وفي كل فرقة كاتزنسكي واحد او اثنان اما كاتزنسكي فكان اسكافاً وهذا لا يعيبه لانه يفهم كل حرفة ومهنة . وما اثمن مصادقته فانا وكروب وهاي وستوث اصدقاؤه وهاي يصدع بامره عندما تدعو الحاجة الى اللكم واللطم لانه اهل لهذا

خذ مثلاً. امرنا ان ننام ليلة في بقعة مقفرة تخربت كلها وقد اعد لنومنا معمل قديم تخرب وقد وضع فيه الواح خشب عليها شريط

جديد. وكيف يمكن النوم على الشريط وهو قاس ولا شيء لنا لنضعه عليه وها شراشف المشمع التي لنا رقيقة جداً وها نحن نستخدم الحرامات للغطاء. فينظر كاتزنسكي الى المكان ثم يامر هاي ان يتبعه فيذهبان للاستكشاف والاكتشاف وبعد نصف ساعة يعودان حاملين القش والتبن . فكاتزنسكي وجد مزرب حصان فاخذ منه كل القش والتبن. ولولا جوعنا الشديد لامكننا ان ننام الان

كروب يسال احد رجال المدفعية الذين صار لهم زمن مديد في هذه البقعة «هل من «كنتين» في هذه الجيرة»

فيقهقه المدفعجي قائلاً «ماذا تقول؟ هنا لا شيء لتقتنيه ولا تقدر ان تجد شيئاً حتى كسرة الخبز»

«اليس في هذه الامكنة سكان اذاً» ؟

فيبصق المدفعجي ثم يجيب «نعم قليلون وهم يبقون كل النهار بقرب المطبخ يستعطون»

«اذاً الحالة رديئة وما علينا الا ان نزيد شد زنانيرنا وننتظر بفروغ الصبر توزيع المؤونة غداً صباحاً»

ولكني ارى ان كاتزنسكي قد لبس قبعته

«الى اين المصير يا كات»

«فقط لاتفقد المكان قليلاً» يقول هذا ويخرج اما المدفعجي فيقول مستهزئاً «ليتفقد ما يشاء ولكن لا رجاء في ذلك»

اما نحن فنتطرح على اسرتنا وروح الفشل مخيمة علينا متعجبين فيما اذا كنا نقدر ان نخاطر ونسلب المؤونة المقفل عليها. ولكن هذا امر دونه اهوال ومخاطر وعليه نجرب ان ننام

يقوم كروب ويشطر سيكارة الى شطرين يعطيني احدهما اما تجادن

فيجلس ويسهب بوصف اكل بلاده اللوبياء ولحم الخنزير وانه يكرهها اذا لم يوضع عليها البهار. «ولخاطر كل الالهة ليطبخوها كلها معاً وما اقبحها اذا طبخت اللوبياء واللحم والبطاطا كل على حدة» وبينما تجادن يسهب في وصف الطعام اللذيذ يصيح به احدنا «اصمت والا دققتك كما يدقون البهار» فعندها تسود السكينة على الكل ولا يبقى متحركاً الا الشمعات المركزة في قنانٍ اضف اليها بصقات المدفعجي على الارض من اونة الى اخرى

وبينما النعاس يتغلب علينا يفتح الباب ويدخل كاتزنسكي وكاني بحلم عميق اراه وتحت ابطه رغيفان وكيس ملطخ بالدم مملوء من لحم حصان. فللحال يسقط غليون المدفعجي من يده فيلمس الخبز «حقاً انه خبز طاظه ولا يزال حاراً» اما كاتزنسكي فلا ينطق بكلمة وما يهمنا وكل ما نهتم اليه ان نحصل على الخبز واني اتاكد انه لو وجد كاتزنسكي في قلب الصحراء لاوجد لنفسه في نصف ساعة عشاء من اللحم المشوي والخمر والبلح

«اقطع لنا قليلاً من الحطب يا هاي» يقول هذا ويخرج من تحت ابطه مقلاة وقليلاً من الملح وقطعة دهن من جيبه. قد افتكر بكل شيء ولم ينس امراً. اما هاي فيضرم النار وهذه تضيء الغرفة الفارغة

فنخرج نحن من اسرتنا

المدفعجي يتلكا قليلاً متحيراً ماذا يصنع ايمدح كاتزنسكي ليعطيه قليلاً من هذه الغنيمة. غير ان كاتزنسكي لا يراه كانه الهباء المنثور. وكاتزنسكي يستمر شاتماً ولاعناً وهو خبير بطبخ لحم الحصان ليكون ليناً فيجب ان يسلق اولاً ثم يقلى. اما نحن فنجلس حول القدر والسكاكين في ايدينا لنملأ بطوننا

اما كاتزنسكي هذا فغريب جداً في جهوده وحظه فلو كان في كل السنة مرة واحدة فيها شيء يؤكل وهذا الشيء محجوب عن الابصار فيظهر له بروٍّ يا ووحي وللحال يلبس قبعته ويذهب اليه بخط مستقيم كانه يسترشد بالحال فلا يلبث قليلاً الا ويجده . له موهبة خاصة لايجاد كل ما يؤكل او له علاقة بالطعام كالكراسي والمائدة والوجاق والحطب الخ. وهو نهم للغاية يحب السلاطين ولكننا كلنا نفضل اللحم

.....

نجلس في الشمس قرب كوخنا تحيط بنا رائحة الزفت والارجل العرقانة ويجلس بقربي كاتزنسكي وهذا كان بعد ان قضينا قسماً من النهار نتمرن على السلام العسكري لان احدنا تجادن لم يسلم سلاماً عسكرياً على قائد. فكاتزنسكي لا يمكنه السكوت فيقول «الا تلاحظ باننا نُغلب في هذه الحرب لاننا نسلم عسكرياً من الطبقة الممتازة»

وللحال يقف كروب رافعاً رجلي بنطلونه الى ركبتيه ويسير حافياً لانه ينشر جواربه على العشب لتنشف قائلاً «يجب سماع اصغر الاشياء كما يجب روٍّيتها»

وعندئذ يحتدم الجدال بين الاثنين فيتراهنان على قنينة بيرا فيما يتعلق بالحرب الهوائية التي تجري فوق روٍّوسهم. اما كاتزنسكي فلم يحد عن رايه واستمر يردد اغنية معناها «لو كان لهم ما لنا من شظف العيش والمشقة والاجرة لانتهت الحرب في يوم واحد»

كروب رجل فكور وهو يقول «ان الحرب يجب ان تكون حفلة صراع تباع تذاكر الدخول اليها في الاسواق والناس يجيئون اليها للتسلية وعند حلول الاجل المعين ينزل وزراء الدول المتحاربة وقوادها يلبسون لباس السباحة وبايديهم العصي والنبابيت. وعندئذ

يبتدىء هولاء بالصراع واية فئة غلبت كانت مملكتها المنتصرة. وهذا افضل جداً من ان يقوم بالحرب اناس لا يريدونها ولا يعرفون عن الخصومة شيئاً».

نوقف الكلام ونحول مجراه الى التمارين العسكرية وللحال ترتسم امام مخيلتي صورة الثكنة في يوم محرق تتجسم حرارته كانها مادة معلقة فوق باحة الثكنة وها كل شيء نائم خامل لكثرة الحر وللحال يقوم ضارب الطبل ونافخ الزمر يتمرنان على عملهما ويصوتان اصوات مملة مكربة تضايق الملائكة فتباً لها من حالة ما هي الا شمس محرقة وثكنة عسكرية وسماع المتمرنين من ضاربي الطبل ونافخي الزمر

شبابيك الثكنة فارغة وداخلها ظلام دامس غير انه معلق على بعضها بناطلين بعض الجنود لتنشف. اجل ان الغرف في الداخل باردة ولكن يشتاق اليها كل فرد منا

واشوقنا الى اكواخ المعسكر المظلمة المعفنة حيث الاسرة الحديدية وعليها القش وبقربها الكراسي الخشبية فهي بحالتها هذه موضوع شوقنا واشتياقنا لان فيها شيئاً يشبه ما في بيوتنا. في هذه الاكواخ رائحة الطعام الفاسد وروائح النوم والتدخين والالبسة القذرة

وكاتزنسكي يجد فيها الواناً براقة جذابة. اولسنا نبذل كل ما في استطاعتنا بذله لنعود الى هذه الاكواخ ولو في الفكر والتمني. تباً لتلك الساعات ساعات التمرين والتعليم في الصباح. وهاك مسطرة منها: «ما هي اقسام البندقية نمره ٩٨» ثم التمارين الجسدية عند الظهر. وما اغلظ الاوامر الصادرة الى موسيقي ان يذهب بسرعة الى المطبخ ليقشر البطاطا. هذا في التمارين وقبحها.

للحال نهمل هذا التذكار وكروب يقهقه ضحكاً ويقول آمراً:

«انقلوا في لوهن». هذه العوبة كان اونباشينا يحبها جداً. لوهن مركز تلتقي به سكك الحديد ولكي لا يضيع فيه المسرحون كان هملستوس يحب جداً ان نتمرن في غرف الثكنة على النقل في لوهن

يصل الفروع بالخط الرئيسي في لوهن خط تحت الارض. فالاسرة تقوم مقام الارض وما تحتها يقوم مقام هذا الخط الموصل الفرعي بالرئيسي فكل فرد منا يقف بقرب سريره وقفة الجندي المنتبه وللحال يصدعنا امر الرئيس «انقلوا في لوهن» وكوميض البرق كل فرد منا يمر تحت سريره الى الجهة الاخرى . ولطالما نجري هذه العملية ساعات كاملة دون راحة او انقطاع

وفي خلال هذا التمرين يصاب طيار المائي فتسقط طيارته الى الارض راساً على عقب كنجم ذي ذنب او كجدول من الدخان جار وفي تمرين كهذا يضع كروب زجاجة من البيرة فينهض مغتاظاً ليعد دراهمه

وبعد ان يهدا روع البرت وتعود اليه شجاعته اقول «ان هملستوس بدون شك كان شخصاً اخر عندما كان في ادارة البريد».

«اذاً كيف يمكن ان يكون كالثور وهو ضابط في التعاليم العسكرية»؟ ان هذا السوال ينعش كروب وخصوصاً عندما يسمع ان الكاتبين قد فرغ من البيرا. وللحال يقول «ان هذه المسالة ليست مسالة هملستوس وحده فكل واحد منهم يتغير بكليته عندما ينال شريطة او نجمة فينتفخ كانه قد ابتلع اكياس عديدة من السمنت» فاقول انا «ان هذا عائد الى البدلة التي يلبسونها» . اما كاتزنسكي فيستعد لالقاء خطاب طويل . ويقول «اذا اوجزنا الكلام نقول ان سبب كل هذا غير ما ذكرتم . خذوا مثلاً . اذا عودتم الكلب ان ياكل البطاطا وبعد ذلك وضعتم له قطعة

لحم فانه ينهشها مشتاقاً لان هذا الامر من طبيعته. واذا اعطيتم الانسان سلطة ولو كانت وجيزة قليلة فيتصرف بها تصرف الكلب بقطعة اللحم بعد انقطاعه عنها. فالانسان بذاته حيوان ولكنه يطلي حيوانيته كما نطلي الخبز بالزبدة والعسل. وما الجندية الا مبنية على هذه النظرية يجب ان يكون لشخص ما سلطة على غيره. والشر كل الشر من اتساع هذه السلطة ووفرتها. فالضابط الصغير يعذب النفر والملازم يعذب الضابط الصغير والرئيس يعذب الملازم والقائد يعذب الرئيس وهكذا كل فرد يعذب من هو اوطا منه درجة وكثيراً ما يوصل التعذيب المعذَّب الى الحدة والجنون. وبما انهم يعرفون ان لهم هذه السلطة ويستخدمونها تصير بهم ملكة يصعب عليهم التغلب عليها. خذوا لكم مثلاً صغيراً. نعود من التمرين تعابى مضنكين فتصدر لنا الاوامر ان نغني فنغني بدون حمية او حماس لاننا بالكاد نقدر ان نسحب قوائمنا ونحمل اسلحتنا وعتادنا فيغتاظ الاونباشي ونعود الى التمرين المتعب ساعة اخرى قصاصاً لنا. وفي عودتنا تعود لنا الاوامر ان نغني ونعود نحن الى الغناء. فما منفعة كل هذه السفاسف والمضحكات اوليست كل هذه لان السلطة المعطاة الى الاونباشي قد نفخت راسه وبرمت دماغه والانكى ان رؤساءه يمدحونه لتدقيقه ولا يلومونه على عمل امر لا نفع منه. على كل هذا مثال بسيط ولكنه يخبركم عن حقيقة كل حال. اخبروني ماذا يصيب الرجل الذي يتصرف مثل هذا التصرف في غير الجندية. الا يكثر اللكم واللطم على انفه؟ ان اموراً كهذه لا تحدث الا في الجندية. وهذا ما يدخل في راس كل واحد منهم. وكل ما كان الفرد مجهولاً في غير الجندية ازدادت هذه النفخة فيه في الجندية».

فيقول كروب وعليه علامات التفكير «اجل ان هذا امر ضروري

للنظام والترويض» . فيجيبه كاتزنسكي «بدون شك ان ما تقوله صحيح ولكن يجب ان لا يساء استعمال هذه السلطة. ولكن اذا قدرت اوضح هذه النظرية الى العامل او الفلاح وها كلهم من هذا الصف. فهم لا يرون في المسالة الا انهم ساروا في التمارين العسكرية ثم ارسلوا الى الجبهة للمحاربة وهم يعرفون تمام المعرفة ما عليهم ان يعملوه وما عليهم ان يتركوه. واني اصدقكم الخبر ان ثبات الجندي البسيط في الجبهة لامر عجيب غريب» . لا احد يعترض على هذا القول وكلهم يعرفون ان هذه التمارين العسكرية تبطل عندما يصلون الى الجبهة وتعود الى نشاطها عندما يبتعدون عن ساحة الحرب والمعارك ولو اميالاً قليلة. هذا وفي هذه التمارين مضحكات مزعجات كالتحية العسكرية والاستعراض فهذه شرائع حديدية ليكون الجندي تحت العمل الشاق في كل حال

وبينما نحن في هذا الحديث يجيء تجادن محمر الوجه مضطرب الاعصاب يتاتىء ويبابىء قائلاً «هملستوس يجيء الينا. ها هو قادم. ان الطريقة التي استخدمها هملستوس في الثكنة لتعليم تجادن اوجدت فيه كراهية شديدة له فتجادن يرطب في فراشه وهو نائم وقد عزا هملستوس ذلك الى كسل متزايد فيه فقاصه قصاصاً لا يحلم به الا من كان على شاكلة هملستوس فانه كان في الكوخ المحاذي جندي اخر من صف تجادن اسمه كندرڤاثر. فجاء هملستوس به وجعله يتناوب الاسرة مع تجادن كل ليلة وكان السريران اللذان ينامان عليهما الواحد فوق الاخر وبهذا كان من ينام على السرير الواطىء يقضي الامرين تلك الليلة. ان هذه الوسيلة لم تفد شيئاً لفساد نظرية هملستوس التي بنى عليها هذا القصاص فلم تكن حالة هذين المسكينين نتيجة كسل وكل

من ينظر اليهما وما عليهما من علائم الضعف يعرف السبب . وقد قادهما هذا الامر ان من كان نصيبه السرير الواطىء كان ينام على الارض وانتهى الامر بزكام الاثنين زكاماً شديداً

حالاً يجلس هاي بقربنا ثم يشير الي غامزاً بعينيه فاركاً يديه وقد قضينا معاً احلى ايامنا العسكرية وذلك كان اليوم قبل الذي ارسلنا به الى الجبهة. وكنا قد عينا الى فرقة جديدة وكانت نوبتنا للذهاب الى ثكنة اخرى لجلب معدات للجنود الاولى وموعدنا ان تنصرف في الصباح التالي باكراً فنتفق في ذلك المساء ان نسدد كل حساباتنا مع هملستوس. وقد عقدنا النية على ذلك باغلظ الاقسام منذ اسابيع حتى ان كروب اشار بان يستخدم في البريد بعد الحرب وبهذا يكون رئيس هملستوس فيقتص منه . ولطالما كان يحلم بطحنه انئذ. ولربما شعور هملستوس باننا سنثار منه بعد الحرب ما جعله يمتنع عن سحقنا. وكيف كان الحال عزمنا على ان نختبىء ونباغته بما لم يكن في حسبانه وما يهمنا وهو لا يمكن ان يعرفنا ونحن على سفر باكراً في الصباح التالي نعرف خليلته التي كان يزورها كل مساء وعليه ان يسير راجعاً في طريق مظلم منفرد خالٍ من كل بشر فنختبىء له وراء عرمة من الصخور وقد اخذت معي شرشفاً كبيراً وها نحن نرتجف فرحاً وشوقاً وننتظره بفروغ صبر املين ان يكون لوحده . وعندما نسمع وقع اقدامه وقد اعتدنا عليها كل صباح عندما كان يدخل الثكنة ليفتح الابواب ويصرخ بنا «قوموا انهضوا» يهمس كروب في اذني «انه منفرد» «وحده» وللحال ازحف مع تجادن الى ما وراء مخبئنا وهملستوس هذا فرح يغني والقطعة المعدنية على زناره تشع بالليل وتدلنا عليه مع انه لا ينتظر مباغتة ما فنمسك الشرشف وبسرعة متناهية نلقيه عليه كما يلقي

الصياد الشبكة ونلفه به فيصير كانه في كيس ابيض عاجز عن رفع يديه. وللحال يمتنع عن الغناء ثم يبرز الى الميدان هاي وستوس ويشير الينا ان نبتعد ليكون الاول في هذه الرواية وهو اختار مركزاً بغاية الملائمة ثم يرفع ذراعه وكفه كرفش الفحم وهوى على الكيس بضربة توقع الثور فكيف بها وهي على هملستوس الذي يسقط للحال ويتدحرج الى مسافة خمسة امتار ويبتدىء يصرخ ويستغيث . ونحن قد اعددنا العدة للتخلص من استغاثته لاننا قد جلبنا معنا مخدة فيركض هاي الى حيث هملستوس ويتجسس راسه ويضعه على المخدة بطريقة تقطع بها الكلام والصراخ على هملستوس ولكنه من وقت الى اخر يسمح له ان يتنشق الهواء . اما هملستوس فيصرخ في هذه الاونة مستغيثاً فيعود هاي الى طريقته

للحال ينزع تجادن الزنار عن هملستوس ويخلع عنه لباسه ماسكاً في فمه السوط وعندما يظهر كفل هملستوس يبتدىء تجادن بعمله وفي هذه صورة غريبة الشكل مبهجة للنظر

هملستوس ملقى على الارض . هاي منحن فوقه فاتحاً فمه كالعفريت وعلى تكشيره علامة الثار الدموي وراس هملستوس على ركبتيه وبعد هذا تجادن فوقهما كانه البرج الهائل او الحطاب القوي . ثم النظر الى الحركات الخاصة التي كان يجريها هملستوس عند كل ضربة والى التشنجات وما يسقط في اللباس المعلق في ركب هملستوس واخيراً نضطر ان نبعد تجادن لينال كل منا نصيبه في العمل

وبعد كل ذلك يوقف هاي هملستوس ليكون له خاتمة الاعمال. فيرفع يده كانه يطلب بها نجماً ويهوي على هملستوس ويعود هذا يتدحرج على الارض فيوقفه هاي ثانية ويستعد ان يهبه الجائزة

الاخيرة فيدير يسراه ويرسم بها على خده صورة جميلة لا يمحوها الدهر فيجعر هملستوس ويهرب على قوائمه الاربع يشع على ظهره في ضوء القمر اثار الضرب. اما نحن فنختفي بسرعة البرق. اما هاي فيدير نظره الينا ويقول «ان الثار كاطيب الكعك»

على هملستوس ان يفرح بما اجريناه معه لان تعليمه قد افادنا فائمر فينا . ولطالما كان يعلمنا ان نعلم بعضنا بعضاً وها الان نحن كالتلاميذ الذين يستخدمون طريقة معلمهم فينجحون

على كل لا يتوفق هملستوس لمعرفة من اجزلوا له العطية ليشكرهم ولكنه يربح من كل هذا الشرشف لاننا نعود نطلب الشرشف فلا نجده . وها نحن لن نجده ابداً. ان عملنا هذا يوجد فينا شيئاً من الطمانينة والرضى لسفرنا في الصباح التالي . كيف لا وقد قال فينا احد المتقدمين باننا «الابطال الصغيرون»

الفصل الرابع

علينا ان نسافر ولو كان التعب لا يزال مستحكماً في رقابنا فاللوريات تسافر في اول الظلام ونحن ندخلها. الهواء حار والغسق يظهر كانه قبة تجتمع تحتها ملتصقين الواحد بالاخر لتظللنا حتى ان تجادن البخيل يشعر بالالتصاق فيعطيني سيكارة وكبريتاً لها

نقف في اللوري الواحد تلو الاخر ككبس الجبن او ستف السردين في علبه اذ لا مكان لنجلس كما واننا لا ننتظر هذه النعمة .

مولر هذه المرة فرح وهي فريدة في حياته العسكرية لانه يلبس الحذاء الجديد

تسير بنا اللوريات على طريق كثيرة الحفر والاخاديد فتصعد بنا وتهبط ونحن في اللوريات نقفز ونرقص اضطراراً ونميل ذات اليمين وذات الشمال كما تقتضيه الحال او تطلبه الاخاديد في الطريق. كل هذا ونحن لا نجرأ ان نستخدم ضوءاً لانارة الطريق خوفاً من ان يهتدي الينا العدو فلذلك نرتضي بهذا الرقص والقفز والتمايل فكسر الذراع اهون جداً من حفرة في الامعاء او بتر في البطن وكثيرون منا يتمنون كسر الذراع لانه يفتح لهم طريق البيت

وبقربنا تسير قوافل اللوريات الحاملة الذخائر والمعدات الحربية كانها نهر جارٍ ونحن نداعب الواحد الاخر ونكثر النكات مع كل من يمر بنا منهم وهم لا يتاخرون عن اجابتنا كما تقتضيه الحال

وبينما نحن نسير نصل الى حائط بيت على جانب الطريق فبغتة افتح اذني فاسمع نقنقة الوز احسبها لاول مرة خداعاً ولكنني اتحقق وجودها في المرة الثانية فانظر الى كاتزنسكي وللحال ينظر هو الي فيفهم منا الواحد الاخر

«يا كاتزنسكي اسمع الان ما تطلبه المقلاة»

فيحني راسه ايجاباً «ساهتم بالامر بعودتنا وها اني اعرف عددها»

بدون شك كاتزنسكي يعرف عددها لانه يعرف كل شيء عن الوز ولو كان الوز بعيداً عنه مسافة خمسة عشر ميلاً.

تصل اللوريات الى خط المدفعية والمدافع كلها مغطاة بالقش والشوك كي لا تمكن رؤيتها من الجو وتظهر للناظر اليها كانها استعداد للنيران التي يضرمونها في الاعياد. غير ان هذه الاغصان على المدافع لا تظهر علامات الفرح والابتهاج كما تظهر نيران الاعياد الهواء قارص مؤلم لكثرة ما فيه من الضباب الممزوج بدخان

المدافع ودخان البارود يجعل على الالسن طعماً شديد المرارة. وقصف المدافع يجعل اللوريات التي تحملنا ترتجف وتتمايل كما وان الصدى يهز كل ما في تلك البقعة حتى مؤخر الجيش. فتتغير وجوهنا دون ان نشعر بهذا التغيير. اجل اننا لسنا في الجبهة ولكننا في صفوف الرديف ومع ذلك في وجه كل منا يقرا «اننا في الجبهة وفي احضانها ايضاً»

ما نشعر به ليس خوفاً ومن قام بما قمنا به «يتمسح» جلده. ولكن هذه الحالة تهز اعصاب المستجدين المستحدثين في الجندية. فيوضح لهم كاتزنسكي بقوله «هذا من عيار ١٢ قيراطاً. يمكن معرفة ذلك من القصف الذي يحدثه الان تسمعون صوت انفجاره»

اما صوت الانفجار فلا يسمع لان الاصوات العديدة المختلفة في الجبهة تخنقه ثم يصغي كاتزنسكي قليلاً ويقول «الليلة سيجري اطلاق المدافع» فنصغي نحن وتظهر لنا الجبهة بحالة قلقة لا تستقر على حال واحدة. فيقول كروب «ان الجنود الانكليز يطلقون مدافعهم وبنادقهم»

صوت اطلاق المدافع مسموع بوضوح والمدفعية الانكليزية من على يميننا وقد ابتداوا بعملهم قبل الوقت المعين بساعة فالمعروف عندنا انهم يبتدئون الساعة العاشرة تماماً

فيقول كروب «وما حدا بهم الى هذه السرعة فالظاهر ان ساعاتهم مسرعة جداً» فيهز كاتزنسكي كتفيه ويقول «اقول لكم انه سيكون هذه الليلة اطلاق المدافع فعظامي تشعر بذلك»

ثلاثة مدافع بقربنا تصلي العدو ناراً حامية فانفجار نيرانها يسير في الضباب كالسهم وصوتها يهدر ويقصف كالرعد فنرتجف نحن ثم نفرح لاننا نكون في اكواخنا باكراً في الصباح التالي

ان وجوهنا ليست اشد اصفراراً ولا اكثر احمراراً من المعتاد

وليست متعلقة او مرتخية اكثر من المعتاد ومع كل هذا مغيرة. نشعر في دمائنا في هذه اللحظة بسلك كهربائي يربطنا ببيوتنا. وما هذا قول مجازي بل حقيقة راهنة فالجبهة والشعور بوجودها ما يولد هذا السلك الكهربائي. وفي اللحظة التي تنفجر بها القنبلة الاولى ويتعطر الهواء بانفجار اخواتها تتنبه اعصابنا وبغتة نجد في ايدينا واعيننا وكل حاسة من حواسنا وكرية من كريات اجسامنا انتباهاً ويقظة فيصير الجسد بمجمله كتلة استعداد ويقظة

ويظهر بان تموجات الهواء وما فيها من خصائص الجبهة تقفز علينا بلا صوت او جعجعة او بالحري ان في الجبهة مجرى كهربائياً يصل الى مركز مجهول في اجسادنا فيوقظها ويحرمها لذة الراحة

وهذا شعور واحد في كل مرة ندخل الجبهة جنوداً بسيطين اما فرحين او عابسين ولكن المدفع الاول يغير كل حركة فينا حتى اقوالنا وكلماتنا

فعندما يقف كاتزنسكي في باب الكوخ ويقول «سيصير اطلاق المدافع» نقول كلنا هذا رايه ولكنه عندما يقول هذا في الجبهة فلقوله حد قاطع كحد السيف فيخرق كل الحواجز والموانع ويصل الى هذا المجهول فينا فيوقظه ويجعل للقول «ستطلق المدافع» معنى مظلماً ولعل نفوسنا الداخلية وحياتنا السرية هي التي ترتجف عند هذا القول وتتنبه كما اشرنا

يظهر لي ان الجبهة كدوامة البحر العجيبة فمع انني على مياه هادئة بعيد جداً عن مركز الدوامة هذه اشعر بها تجتذبني اليها رويداً بطريقة لا يمكنني ان ادفعها عني او اتخلص منها وكل ذلك لتبتلعني فاسقط فيها

فها قوات تعمل على المحافظة على كيان اصحابها تنسكب علينا من الارض ومن الهواء واكثرها يندفع علينا من الارض فلا رجلاً في العالم يقدر الارض قدرها كالجندي. فعندما ينطرح عليها ويلتصق باديمها لا بل يدفن وجهه وجسده فيها هرباً من الموت الزؤام الذي يحيط به من اطلاق المدافع وانفجار القنابل يجدها عندئذ صديقه الصدوق لا بل اخاه الحبيب وامه الحنون . فالجندي يدفن في سكونها والطمانينة عليها كل مخاوفه وبكاءه فهي تحميه من طوارق الحرب وتساعده على اطالة حياته عشر ثوان وما الثواني العشر في اطالة الحياة بالامر البسيط الذي يستخف به. وبعد ذلك تحتضنه الى الابد ولا تدعه ان يعود الى الحياة.

فيا ايتها الارض طوباك طوباك طوباك فانت باخاديدك ووديانك وثقوبك ومغائرك ملجا الانسان يرمي بنفسه عليك مضطجعاً ولطالما يكون مطمئناً.

ففي تشنجات المخاوف وتحت وابل الرصاص والانفجارات المدفعية تلك التي تحمل في فيها الموت تهبينا ايتها الارض حياة بحق تدعوها «ربحاً جديداً» لا بل تهبيننا قوة تقاوم هذا التلاطم فتكون الحياة ربحاً جديداً. فها وجودنا يكاد يجرفه تيار العاصفة ذاك الذي يدفع ايدينا عن التمسك بك. اما نحن ابناؤك الذين تفتديهم بحنوك نتمسك بك حتى بثفاهنا وفينا رجاء المحتضرين الساكت الصامت . فعند سماع اطلاق القنبلة الاولى نعود بسرعة يعجز عنها وميض البرق الى ما وراء الوف السنين. الى الغريزة الحيوانية التي تستيقظ فينا فتقودنا الى الحماية الحقيقية

فهذه الغريزة ليست الضمير او الوجدان بل هي اسرع من كل ذلك

وهي اكثر منها صوابية وابعد منهما عن الخداع والغلط. ولا يمكن لفرد ان يوضح امرها

يكون الفرد منا سائراً في طريقه غير منتبه الى شيء وبغتة يرمي نفسه على الارض ويرى فوقه ما هو كالعاصفة يحمل قذائف المدافع وشظايا القنابل تلك التي تتطاير فوقه دون ان تؤذيه. واذا سالته لقال لك انه لم يسمع انطلاق المدافع ولم يفتكر بانطراحه على الارض ولولا خضوعه لهذا الدافع الغريزي لصار عرمة من لحم وعظام. فما رمانا على الارض هو الشخص الثاني فينا لا بل نظرنا الحيواني الذي نجانا. كل ذلك ونحن لا نعرف الكم والكيف عن الشخص الثاني والنظر الحيواني . ولولا هذا لما بقي شخص واحد في كل مناطق الحرب حياً

فها نحن نسير اما يائسين عابسين او فرحين متهللين حتى نصل الى المنطقة التي تبتدىء بها الجبهة فللحال نتحول الى حيوانات بهيئة بشر

ويكون اول من يستقبلنا حرش عليه علامات العوز والفقر. ثم نمر بالمطابخ متظللين بالحرش مختبئين باشجاره . نخرج من اللوريات فتدير اللوريات رؤوسها على ان تجمعنا في الصباح التالي قبل الفجر لتعود بنا الى حيث كنا.

اما الضباب ودخان البارود فلا يعلو عن الارض الى ما يوازي الصدر . القمر يرسل اشعته الفضية على الحقول وفوقها الضباب الكثيف والدخان المتلبد. وعلى جانبي الطريق صفوف العسكر تنعكس عن خوذهم اشعة القمر لان رؤوسهم وبنادقهم فقط التي تعلو عن الضباب. هذا والروؤس منحنية وبراميل الذخيرة تموج. وفي الطرف الاخير

من هذا الضباب الابيض تتحول الروؤس الى اشخاص بسراويلها واحذيتها وتمام لباسها وتظهر كانها خارجة من بركة من الحليب ثم تصير الاشخاص صفاً يسير بخطوات ثابتة ثم يصير الصف مربعاً وعندئذ لا يمكن معرفة الافراد بل يرى الكل جسماً اسود كبيراً يشق طريقه في الضباب كما يشق الاسفين طريقه في الخشب ولا يظهر فوق الضباب الا الروؤس ورؤوس الحراب. فاولئك ليسوا رجالاً بل صفاً او جسماً واحداً.

المدافع والعربات التي تنقل الذخائر تسير في طريق متقاطعة وظهور الخيل تشع في ضوء القمر. اه ما اجمل سيرها فروؤسها تنحني وعيونها تلمع. فالمدافع وعربات الذخائر والمعدات الحربية كلها تنهب الارض نهباً ويغطي الظلام هذا القسم من الارض لانه وراء تلك التي ينيرها القمر باشعته. وها الخيل وعلى ظهورها الفوارس بخوذهم الفولاذية يذكروننا بفرسان الاجيال المنسية. انه لمنظر جميل بذاته فريد بحيثيته يجذب الابصار ويسلب الالباب

اما نحن فنتقدم الى الامكنة الخطرة وبعضنا يحمل الاسلاك الحديدية الشائكة والاخرون يضعون قضباً طويلاً من الحديد في ملفات منه ويحملون الكل. احمال ثقيلة للغاية وصعبة المنال

وبينما نحن نسير تصير الارض تحت اقدامنا كثيرة الحفر والاخاديد ولهذا تكثر علينا اوامر النهي والمحذورات. مثلاً «انتبهوا على الشمال حفرة عميقة من قنبلة» او «احذروا الخنادق» ولهذا تجحظ اعيننا لكثرة التحديق ولكن نجس الارض بارجلنا والعصي التي بايدينا قبل ان تسقط اثقال جسومنا على الطريق. هذا وبغتة يقف الصف فيلتطم راسي بملف الاسلاك الشائكة الذي يحمله من يسير امامي فاشتم والعن ويكون

نصيب من ورائي كنصيبي ايضاً

وفي الطريق نصادف لوريات طحنتها القنابل ثم تصدر الينا الاوامر ان نرمي السيكارات ونطفىء كل ما فيه ضوء ولو كان ضئيلاً للغاية . وذلك لوصولنا الى خط النار

وبينما نحن في اعمالنا يغطينا ظلام دامس فننتشر في حرج صغير قربنا وليس امامنا الا خط النار . وما هي لحظة الا وينتشر في الجلد فوقنا شعاع احمر كانه بحركة دائمة ينفجر فيه من مدة الى اخرى لهيب صادر من المدافع ثم ترتفع فوقنا كرات نور فضية وحمراء هذه التي تمطرنا عند انفجارها بشآبيب من النجوم الخضراء والحمراء والبيضاء . ان هذه اسهم نارية افرنسية تصعد في الهواء ثم تنفتح كانها مظلة حريرية تهبط الى الارض ببطء وسكينة وهذه الاسهم تنير كل شيء فيصير الظلام كانه في رابعة النهار وها نورها يضيء علينا لدرجة يمكننا معها ان نرى اظلالنا على الارض بكل وضوح وهذه الاسهم ترفرف في الهواء دقيقة قبل ان تحترق وقبل احتراقها يصعد الى الهواء غيرها وبهذا يستمر الشعاع وظهور النجوم الحمراء والخضراء والزرقاء

يقول كاتزنسكي «لاحظوا اطلاق المدافع» ان قصف المدافع متصل لدرجة ان السامع يظنها كلها صوتاً واحداً ثم بغتة يتقطع فتحدث انفجارات مستقلة الواحدة عن الاخرى يرافقها صوت المدافع النقالة . فالهواء فوقنا تكثر فيه حركة سريعة غير منظورة ويكثر فيه الصفير والتزمير والولولة والعوي والهسهسة والفحيح وما مصدر هذه كلها الا القنابل الصغيرة بينها القنابل الكبيرة الضخمة تدوي كل الليل . ان اصوات هذه الكبيرة ابح كصوت الوعل الشهواني نسمعها عن بعد وهي تعلو عن صوت القنابل الصغيرة وصفيرها . ان هذه تذكرني بقطيع من

الوز البري الذي كان في الخريف الفائت يهرب من القنابل من مكان الى اخر.

ان انوار الكشافة تبتدىء ان تجلو الجلد الحالك فتنشب الواحدة منها كانها جبار عنيد تقف لحظة ثم ترتجف قليلاً فتظهر اختها بقربها ويظهر بين الاثنين حشرة سوداء صغيرة هي طيارة مستكشف الذي يجرب ان يهرب عند ظهور هذه الانوار ولكن عينيه تبهران بها فيسقط

كنا في فترات منتظمة ندخل في لفافة الاسلاك الشائكة عصياً من خشب ثم يحمل كل لفافة اثنان. ان هذه الاسلاك لحاجة مكربة مزعجة وفيها الاشواك المتلاصقة . اني غير معتاد على نشرها وتمزيق يدي بها

بعد ساعات قليلة يتم نشرها ولكن علينا ان ننتظر رجوع اللوريات فاكثرنا يرتمون على الارض وينامون وانا احاول ان انام ولكن الهواء بارد قارص والقريب من البحر يقلق كثيراً بسبب البرد

قد يحدث مرة ان انام نوماً عميقاً. ثم بغتة استيقظ ولا اعرف اين انا. ارى النجوم والاسهم النارية فاحسب نفسي في حديقة غناء مخيم عليها افراح العيد ولا اعرف ما اذا كان الوقت صبحاً او مساء فها اني انام في ارجوحة الشفق الصفراء منتظراً ان اسمع الكلمات اللطيفة التي تاتيني ناعمة وقريبة. ابكي؟ اضع يدي على عيني وما اعجب هذا الامر هل انا طفل لماذا ابكي؟ كل هذه في لحظة عين ثم تتبين لي هيئة كاتزنسكي ذلك الجندي القديم فهو يجلس بهدوء ويشعل غليونه (المغطى طبعاً) ولما يراني مستيقظاً يقول لي «قد اخافتك اه. انها صغيرة تلائم ان تكون غطاءاً للانف. وقد سقطت في العليقة هناك»

اجلس واشعر بانني منفرد ولكن ها كاتزنسكي الطيب هناك فهو

يحدق الى الجبهة امامنا مفتكراً ثم يقول «لو لم تكن هذه الاسهم النارية خطرة لكانت متناهية في الجمال»

تنزل احداها وراءنا فيقفز بعض الجنود خائفين مذعورين وبعدها بدقيقتين تسقط اخرى وهي اقرب الينا هذه المرة من اختها فينفض كاتزنسكي غليونه ويقول «ستحصدنا» وبعد هذا يحمى وطيس المعركة فنزحف بسرعة كلية مبتعدين عن هذا المكان وبعده تسقط الثالثة في وسطنا فيصرخ اثنان منا مستغيثين ثم يصعد في الهواء قرب الافق اسهم خضراء . ان هذا العمل يشير الى ان المدفعية ستنفجر علينا من وراء الذين يضربوننا بهذه الالاعيب النارية . وما هي لحظة الا ويتطاير الوحل من حولنا وتبتدىء شظايا قنابل المدافع تئز حولنا. وها نحن نسمع قرقعة المدافع البعيدة عنا بعد دوي انفجار قنابلها بوقت طويل

بقربنا جندي جديد ذو شعر احمر يرتجف خوفاً وقد غطى وجهه بيديه وسقطت خوذته عن راسه اما انا فاعود والبسه اياها وهو ينظر الي ثم كالولد الصغير يرمي خوذته جانباً ويختبىء تحت ذراعي ويلتصق الى صدري وكله يرتجف وصدره وكتفاه ترتفع وتنخفض لسرعة تنفسه . ان ظهره كظهر كمريخ . فتركته في مخبئه وحتى ينتفع من الخوذة وضعتها على ذيله ولم افعل ذلك استهزاءً به ولكن ذيله في هذه الوضعية هو الجزء الاعلى من جسمه . ورغم كون ذيله كثير اللحم والشحم فلا بد انه اذا اصيب برصاصة فيه يتالم كثيراً . وزد على كل هذا انه اذا اصيب باذى في ذيله عليه ان يبقى نائماً على بطنه في المستشفى شهراً كاملاً وبعد كل هذه الاتعاب يخرج من المستشفى اعرج

ان القنبلة قد اصابت احدنا اصابة خطرة فها نحن نسمع الصراخ بين الانفجار

وبعد هذه المخاوف يهدا الحال فالنار الان تسير من فوقنا وتسقط على جنود الاحتياط ولهذا قدرنا ان نخاطر وننظر الى ما فوقنا. الاسهم النارية الحمراء تشق كبد الفضاء ويظهر انه سيعقب كل هذا هجوم شديد. اما الحالة حيث نحن فبهدو وسكينة فاجلس انا واهز الجندي الجديد بكتفه صارخاً «قد انتهى الامر يا ولد والنتيجة حسنة هذه المرة»

اما هو فينظر الى ما هو حوله دائخاً متحيراً فاقول له «لا باس ستعتاد على كل هذا»

ينظر خوذته فيلبسها وتدريجاً يعود اليه ادراكه فيعرف حقيقة حاله. وهكذا بكل حذر يضع يده على ذيله وينظر الي بخجل وكآبة. اما انا فاعرف حالاً موقفه ولم يكن خجله لاني وضعت خوذته عليه فاني اهون عليه قائلاً «لا خجل في الامر فرجال كثيرون قبلك ملاوا لباسهم التحتي عند حضورهم الموقعة الاولى. فما عليك الا ان تذهب الى ما وراء تلك العليقة وتخلع لباسك التحتي وترميه فاذهب واسرع» فيذهب وتهدا الامور ولكن الصراخ لا يبطل فاسال البرت «ما كل هذا»

«ان صفين من الجنود هناك قد ذاقوا الامرين» اما الصراخ فيستمر ولا يمكن ان يكون هذا صراخ بشر فالبشر لا يقدرون على صراخ مخيف قوي كهذا. فيقول لي كاتزنسكي «هذا صراخ الخيل المجروحة

حالة لا تحتمل ان هذا انين العالم فالخليقة المستشهدة قد جنت من الكرب والالم والعذاب فامتلات افواهها بالتنهدات والانين وافعمت ارجاءها بالمخاوف والاهوال

تصفر وجوهنا كلنا من هذا الموقف فيقف دترنك وينظر الى السماء ويقول «يا لله ـ اكراماً لله صب عليهم نيرانك»

دترنك فلاح ويحب الجياد والخيل كثيراً ولا يمكنه ان يراها

تتعذب وكان كلما ضعف صوت النار والمدافع قوي صراخ الحيوانات وانينها. ولا احد يقدر ان يعرف من اين جاءت هذه الاصوات في هذه البقعة من الارض الجميلة الساكنة وما هذا الصوت الا خيالي غير منظور ولكنه في كل مكان بين السماء والارض يسير ويملأ الفضاء بسرعة لا تقاس . اما دترنك فيبتدىء يهذي ويصرخ «اكملوا عليها بالرصاص. اطلقوا الرصاص لتموت . الا يمكنكم ذلك. لعنكم الله». اما كاتزنسكي فيجيبه بكل برودة «عليهم اولاً ان يهتموا بالبشر!»

ونحن نقف ونحدق بابصارنا لنعرف اين كل هذا ولو قدرنا نرى الحيوانات لسهل علينا احتمال صراخها وانينها . مع مولر نظارات فبها نرى مجموعاً اسود. ثم حاملو محامل الجرحى وبقربهم ركام اسود اكبر منهم يتحرك هو الجياد المجروحة وليس هذا الركام كل الجياد بعضها تركض مسافة ثم تسقط فتقوم وتستانف الركض ان جوف احدها مفتوح وقد وقعت مصارينه فهي كحبال تشبكه فيسقط ثم يقوم وللحال يتناول دترنك بندقيته ليرميه بالرصاص وبكل سرعة يرفع كاتزنسكي فوهتها الى الهواء ويصرخ به «امجنون انت» فيرتجف دترنك ويرمي بندقيته الى الارض فنجلس نحن ونسد اذاننا بايدينا ولكن هذه الاصوات المرعبة والانين المخيف تخرق كل شيء حتى الصخور الصوانية. نقدر ان نحتمل كل شيء الا هذه الاصوات وها الان قد انفجرت ينابيع «العرق» علينا فعلينا ان ننهض ونركض الى مكان ما بشرط ان لا نسمع هذه الاصوات اصوات الجياد وليست اصوات الرجال

يعود حاملو المحامل من المجموع الاسود الى حركاتهم وعملهم ونسمع طلقة مفردة بعد اخرى اما الركام الاسود فيرتج ثم يسكن مع كل هذا لم ينته الامر بعد. فالرجل مهما اسرع لا يمكنه ان يسرع اكثر

من حيوان مجروح متالم يركض مفتوح الفم من الرعب والخوف والكرب. وها احد الرجال يركع على ركبتيه فنسمع طلقة نارية فيسقط حصان ثم اخر. والحصان الاخير يرتمي على رجليه الاماميتين ويسحب نفسه بدائرة كانه يرقص فرحاً وهو مقرفص في هذه الوضعية يسحب نفسه في دائرة مركزها رجلاه الاماميتان المتصلبتان ويظهر انه اصيب بسلسلته الفقرية فيركض الجندي ويرميه بالرصاص فيسقط الى الارض ببطء وهدوء

ثم نرفع ايدينا من عن اذاننا ويسكت الصراخ غير انه معلق في الهواء خيط طويل من اصوات حشرجة الموت. وبعد هذا لا نسمع الا صوت الاسهم النارية وازيز القنابل المدفعية ونرى نجومها . اليس في هذا منتهى الغرابة . اما دترنك فيمشي ذهاباً وايابا ويملأ الفضاء شتماً وسباباً قائلاً «احب ان اعرف اي ضرر قد جناه الحيوان الابكم على الانسان» وهو يعيد هذه الجملة مرات متعددة اما صوته فقد ارتفع وظهرت فيه الابهة والجلال حين قال «اوكد لكم ان استخدام الخيل في الحرب لمنتهى الدناءة والشر»

الساعة الثالثة صباحاً الان وها قد حان الوقت لرجوعنا الى اللوريات وها النور قد ابتدا ان يهزم الظلام. النسيم عليل بارد واصفرار الشفق يجعل وجوهنا تظهر كانها رمادية اللون . وها نحن نسير صفاً واحداً بين الخنادق والاخاديد التي حفرتها القنابل نسير على هذا حتى نصل الى منطقة الضباب اما كاتزنسكي فمضطرب وهذه دلالة سيئة . «ما بالك يا كاتزنسكي» يساله كروب . «يا ليتني في البيت». البيت يعني الاكواخ . «لا باس يا كاتزنسكي فها عن قريب سنبعد عن هذه الارض كلها»

كاتزنسكي مضطرب ومهيجة اعصابه ويقول «لا اعرف هذا لا اعرف هذا». وبعد هذا نصل الى الخندق الذي فيه معدات المخابرات ومنه نقفز الى الحقول الواسعة فيعود الحرش الصغير يظهر لنا وها نحن نعرف كل بقعة من الارض وفيها المقبرة وعليها ركم التراب والصلبان السوداء. ففي تلك اللحظة ينفجر وراءنا ما لا نعرفه ولكننا نسمع اصواته كقصف الرعد فكان الارض قد زلزلت زلزالها واخرجت اثقالها ودكت جبالها فللحال نرتمي على الارض وينتشر على مسافة مئة يرد امامنا غيوم يخالطها لهيب النار وفي الدقيقة التي تلي نسمع انفجاراً اخر به نرى الحرش قد ارتفع في الهواء قليلاً وها ثلاث شجرات او اربع منه تطير في الهواء ثم تسقط الى الارض فتتقطع الى شقف شقف وللحال يصرخ احدنا «اختبئوا اختبئوا». الحقول مسطحة مكشوفة والحرش بعيد مخطر فلم يبق لنا مخبأ سوى المقبرة وركم التراب فنقع عليها والظلام يغطينا وها كل واحد يلتصق بركام من التراب التصاقاً كانه جزء منها. وما هي لحظة الا وقد جن الظلام فتعود الارض الى زلزالها واثقالها ودك جبالها ويصير الظلام اشد حلكاً من اظلم ليالي الشتاء ولكنه ظلام يسير فوقنا وامامنا بخطوات مسرعة فلهيب الانفجارات ينير المقبرة ولا مفر لنا من هذا الغضب. ونود القنابل يعينني لارى الحقول فاذا هي بحر تلاطمت امواجه يرتفع في لهيب انفجار القنابل بهيئة خناجر كالينابيع. وهذا ما يجعل خرقها مستحيلاً. وفي دقائق اقل من القليل يضمحل الحرش فاشجاره قد قطعت اربا اربا ثم طحنت وذريت كالرماد. فعلينا ان نبقى في المقبرة

ثم تعود الارض الى انفجارها فتنفجر امامنا وتمطرنا وابلاً من مدر

وكتلاً من الوحل والتراب فاشعر بضربة منها وتمزق اكمامي شظايا متطايرة وللحال اطبق يدي فلا اشعر بالم ولا عبرة بهذا فالجراح لا ياتي الالم منها الا بعد وقوعها بمدة. فاعود واجس ذراعي كلها فاجدها مقشوطة ولكنها سليمة لا كسر ولا فكش فيها ولكن بعده اشعر بصدمة قوية على جمجمتي فابتدىء ان افقد رشدي ولكنني يجيئني فكر كانه وميض البرق وهو ان اتجالد ولا يغمى علي ولكني اسقط الى الارض فاعود واقف فتصيب شظية اخرى خوذتي. وبما ان هذه الشظية قد قطعت مسافة طويلة فلا تؤذيني . اما انا فامسح الوحل والتراب من على وجهي وعيني وبغتة تفتح امامي حفرة وبما ان القنابل المتتابعة لا تسقط في حفرة واحدة اجد في هذه الحفرة حصناً امينا وبوثبة واحدة اقفز مسطحاً كقفز السمك الى الحفرة فيعود الصفير والازيز فاعود الى الاختباء والتصق به واشعر من عن شمالي بشيء فالتصق به اما هو فيفسح لي طريقاً فاتنهد واتاوه وتعود الارض الى هيجانها ورعودها فازحف الى تحت هذا الشيء الذي شعرت به واختبىء تحته فاذا هو خشب وقماش وما اقبحه من مخبا في حالة كهذه يتطاير فيها القذى والشظايا فافتح عيني وتمسك يدي اكمام ثوب ثم ذراعاً . ابقربي مجروح وانا اختبىء به فاصرخ اليه ولا مجيب فاذا هو ميت. فامد يدي الى ابعد من ذلك فتقع على شظايا خشبية متطايرة من الحرش فاذكر انني في المقبرة وما هذه الا اجسام الموتى المدفونة قد اعادتها الارض بزلزالها واثقالها الى الفضاء لتشهد شقاء الانسان وشره

اما القنابل فيزداد وابلها وهي بهذا لا تترك عقلاً ولا ادراكاً فاهرب الى الموتى واختبىء تحت التابوت الذي فيه الميت لانه سيحميني من هذا الغضب

امامي حفرة حفرتها القنابل ونظري يتعلق بها كاني ممسك بها بيدي وعلي ان اكون فيها بقفزة واحدة. ولكن اشعر بلطمة على وجهي ويد تمسك بكتفي فهل استيقظ الميت. اما اليد الماسكة فتهزني فانظر الى ورائي وانتظر الشهب التالية وعند اضاءة نورها ارى وجه كاتزنسكي امامي مفتوح الفم صارخاً ومزعقاً اما انا فلا اسمع شيئاً ولا افهم شيئاً وهو يستمر صارخاً وبالتدريج يهدا روعه وينخفض صوته فاسمعه يقول «الغاز الغاز الغاز احذر منه» وللحال اخرج البرقع الذي يقيني من الغاز وها امامنا على مسافة جندي جديد فاذ ذاك لا يمكنني ان افكر بشيء سواه. علي ان اعرف ذاك عن الغاز المقبل الغاز الغاز فابتدىء اصرخ اليه ثم انحني الى جهته وابتدىء الوح اليه بحقيبتي اما هو فلا ينتبه فاعيد الامر مرة ومرتين ولا جدوى من كل ذلك فاصرخ الى كاتزنسكي يائساً فاذا عليه برقعه واقيه من الغاز فالبس برقعي وبهذا تسقط خوذتي من على وجهي الى جانب اخر فاركض الى الرجل وارى بقربه حقيبته فآخذ منها برقعه والبسه اياه فيفهم اذ ذاك قصدي في كل عملي فاتركه واقفز الى الحفرة القنبلية . وهكذا تمتزج قرقعة قنابل الغاز بدوي الانفجارات المتواصلة وبينها تقرع اجراس الخطر والنواقيس وقرقعة المعادن كلها تنذر كل فرد بالخطر المقبل «الغاز الغاز الغاز» .

احدهم ورائي ثم الاخر فامسح بخار تنفسي من على نظارات برقعي فارى كاتزنسكي وكروب وشخصاً اخر وهكذا كلنا الاربعة نرتمي في تلك الحفرة متعلقين بحبل الانتظار والصبر كل منا يحبس نفسه قدر طاقته . اما الدقائق الاولى والبراقع على وجوهنا فهي التي تفصل الموت عن الحياة وتعين لكل نصيبه منهما. وها البراقع مشدودة لدرجة

لا يخرج منها الهواء. وللحال اذكر تلك المشاهد المرعبة مشاهد اولئك الذين دخل الغاز الى رئاتهم فهم يقضون النهار بطوله يسعلون سعالاً مزعجاً للغاية ويخرج مع بصاقهم نتف من رئاتهم المحروقة

بكل حذر اجذب فمي الى فم الصمام واتنفس قليلاً غير ان الغاز لا يزال يزحف على الارض ويملأ بزحفه كل الحفر والاخاديد فكانها قنديل البحر كبير يسبح في الحفرة التي نحن فيها ويتغلغل في كل زواياها مفسداً كل ما فيها

فاشير الى كاتزنسكي ان نخرج من هذه الحفرة المجتمع فيها الغاز ونزحف الى العراء ولكننا لا نقدر ان نحصل على هذا لان المدافع عادت الى انطلاقها وليس الامر دوي قنابل بل هو حالة من حالات غضب الارض

وها يسقط علينا شيء اسود يتكسر بسقوطه هذا يقع بقربنا ننظر اليه فاذا به تابوت

ارى كاتزنسكي يتحرك وللحال ازحف للجهة المقابلة . التابوت قد اصاب الرابع في الحفرة واصابه في يده التي كان يمدها الى خارج الحفرة. وللحال يحاول هذا ان ينزع عنه برقعه فيركض كروب ويمسك بيده ويضعها وراء ظهره ويمسكها بقوة حتى لا تتحرك. ونعود انا وكاتزنسكي فنركض لنخلص يده. غطاء التابوت محلول فبسهولة نزعناه عن التابوت ثم اخرجنا الجثة منه ورميناها في الحفرة التي نحن فيها واخذنا نحاول ان نفك اسفل التابوت وقد اسعدنا الحظ بان اغمي على الرابع وبهذا اخذ كروب يساعدنا فلم يكن علينا ان نعمل بحذر كلي بل ناخذ المعاول ونحفر تحت التابوت حتى يهوى ويسقط. وللحال ينتزع كاتزنسكي قطعة خشب من التابوت ويضعها تحت ذراع

المسكين وناخذ نحن كل الاقمطة التي معنا ونربط الذراع المصابة وهذا كل ما نقدر على اجرائه في مثل هذه الحالة

اما راسي فيدوي ويئز ضمن برقع الغاز وقارب ان ينفجر . اما رئتاي فتسد منافذهما فهما تتنفسان الهواء الحار المملوء كربون نفسه كل مرة واعصاب اصداغي تتورم واشعر باني اختنق

ضوء ضئيل يتسرب الينا فاتسلق الى حافة الحفرة فاجد في ذلك الشفق القذر رجلاً قد بترتها القنابل ولم يصب الحذاء بضرر. انني ارى كل هذا بتمامه بلحظة . وارى ايضاً شخصاً يقف امامي على مسافة يردات قليلة فاعود وانظف برقعي ولكن حماسي يزيده قذارة فابقى ناظراً الى الرجل فاذا هو قد خلع برقعه وانتظر بضع دقائق فاجده لا يزال واقفاً ثم اراه ينظر الى حوله ويمشي خطوات قليلة فللحال انزع برقعي واسقط الى الارض فيجري الهواء النقي المنعش في احشائي كانه الماء الزلال فتتفجر عيناي بالدموع فها تموجات الهواء البارد تسير فوقي فتطفي ما بي من حرقة وحشرجة

. . . . .

وقفت القنابل عن عملها وارجافنا فانظر الى فوهة الحفرة واقول للباقين عن وقوفها فينزعون براقعهم ثم نرفع المجروح ويحمل احدنا ذراعه المكسورة ونسرع هاربين ساقطين الى الارض مرات

المقبرة في حالة مرعبة فكل التوابيت قد قذفت من القبور وقد قذف منها المدفونون فيها وقد قتلوهم مرة ثانية. غير ان كل واحد من هولاء المقتولين ثانية كان واسطة لخلاص احدنا نحن الاحياء

السياج حولنا قد اختفى اثره. وخطوط سكة الحديد قد نزعت من مكانها وكثير منها يقف في الهواء منتصباً. وبهذا تكثر القناطر التي

تكونها هذه الحالة. ها امامنا شخص مطروح على الارض فيحمل كروب الجريح ويذهب به ونحن نتقدم الى الرجل المطروح فاذا به احد الجنود المستحدثين وحرقفته (وركه) مغطاة بالدم وقد اعياه التعب فاهتم ان اعطيه من الماء والمسكر الذي معي فيمنعني كاتزنسكي وينحني عليه ويساله «اين اصابتك الرصاصة يا رفيق» فتتحرك عيناه ولكنه قد اعيا لدرجة يعجز بها عن الكلام فللحال نمزق سراويله فيتنهد ويطلب الينا باصوات متقطعة ان نجري هذا بكل هدو ولطف لان حالته احسن نوعاً.

لو اصيب هذا في بطنه لما جاز له ان يشرب ماءً. وعدم تقيئه علامة طيبة وها نحن قد كشفنا عن الحرقفة (الورك) فوجدناها مجموعة عظام مطحونة ولحم مدقوق . لقد اصيب في مفصل وركه وكتب له ان لا يمشي ابداً

وللحال ابلل صدغيه باصابعي المبلولة واعطيه جرعة ماء قليلة. فتتحرك عيناه ايضاً. ونكتشف انه قد اصيب بذراعه والدم يتفجر منها. وللحال ينشر كاتزنسكي ربطتين من القطن ويغطي بهما الجرح وانا افتش عما يمكنا ان نربط الجرح به فلا نجد شيئاً وللحال اطلب لباسه التحتي لامزق منه قدة نستعين بها لتضميد جراحه فلا نجد شيئاً. فانا اتامل بالمجروح فاراه نفس الصبي الذي اختبا تحت ابطي من مدة وجيزة بنفسه . غير ان كاتزنسكي يرى رجلا مائتاً فينزع من جيبه الربط التي معه وبهذا نقدر ان نضمد جراح هذا الصبي الذي عيناه ثابتتان فينا فاقول له «سنعود اليك حالاً ومعنا محمل اما هو فيفتح فاه ويقول بصوت منخفض كانه الهمس «ابقيا هنا»

فيجيبه كاتزنسكي سنعود حالاً وما ذهابنا عنك الا لناتي لك بالمحمل»

وكاتزنسكي ينظر ذات اليمين وذات اليسار ثم يهمس لي قائلاً «اليس الافضل ان نرمي هذا الصبي برصاصة تقضي عليه وتريحه من كل هذا» . ان الصبي لا يحتمل الحمل وقد لا يعيش سوى ايام قليلة جداً وما احتمله لا يعد شيئاً بالنسبة الى ما سيصيبه من الاوجاع والالام قبل ان يلفظ نفسه الاخير. هو الان متخدر ولا يشعر بشيء ولكنه بساعة من الزمن يصير كومة اوجاع لا تطاق وصراخ لا يحتمل وكل يوم من ايامه المقبلة عذاب شديد وصراخ اليم. ومن يهمه امر هذا واوجاعه فاحني راسي الى كاتزنسكي علامة الايجاب واقول «اجل علينا ان نريحه من تعاسته» فيجمد كاتزنسكي دقيقة وتظهر على وجهه علامات التصميم فينظر الى ما حوله ولكن ما العمل والروؤس ترتفع من الحفر المحيطة بنا والكل ينظرون الينا ولكننا نحصل على محمل. اما كاتزنسكي فيهز راسه متعجباً وقائلاً «انعجة مثل هذا» «ويا له من صغير بري» وهو يسير مردداً قوله هذا

خسائرنا اقل جداً مما كنا ننتظر . قد قتل خمسة جنود وجرح ثمانية. ان اطلاق المدافع لم يطل امره واثنان من القتلى وقعا في المقبرة وما كان علينا الا ان نغطيهما بالتراب

نرجع القهقرى سائرين بصف الواحد وراء الاخر وقد اخذ الجرحى الى غرفة التضميد

الصباح متلبد بالغيوم وحاملو محامل الجرحى يضجون لكثرة العدد والجرحى يبكون كالاطفال بكاء متقطعاً. وللحال ينزل المطر علينا. نصل الى اللوريات باقل من ساعة. وهذه المرة نراها متسعة لقلة عددنا اما المطر فيشتد امره. فننشر على روؤسنا المشمعات التي معنا. اما المطر فيصب كانه ينابيع متفجرة والجداول تجري على

جانبي الطريق بغزارة واللوريات بسيرها ترتج لمرورها على الحفر والأخاديد. ونحن فيها نصف نيام نهتز ذات اليمين وذات اليسار وقرب السائق رجلان بايديهما عصوان طويلان في راسيهما تشعبات عليهما ان يحذرانا من اسلاك التلفون المتشابكة فوق الطريق وهي واطئة لدرجة يمكن ان تلتف حول اعناقنا وتفصل رؤوسنا عن اجسادنا. فعلى هذين الرجلين ان يرفعا هذه الأسلاك في الوقت الملائم بالعصوين اللتين معهما وها نحن نسمعهما من اونة الى اخرى يصرخان «احذروا الاسلاك» فنركع ونحن نصف نيام ثم ننتصب

فسير اللوريات ممل وسقوط المطر ممل ايضاً وتحذير هذين الرجلين وصراخهما ممل ايضاً . المطر يسقط على رؤوسنا ورووس القتلى في الجبهة وعلى ذلك الجندي الجديد المجروح جرحاً كبره يفوق كبر حرقفته (وركه) وهو يسقط على قبر كمريخ وفوق كل ذلك يسقط في قلوبنا

نسمع انفجاراً فتنقبض نفوسنا وتجمد عيوننا وتستعد ايدينا لنقفز من على اللوريات الى حفر واخاديد في جانب الطريق. لا يحدث شيء من هذا ولا نسمع سوى الصراخ الممل «احذروا الاسلاك» فتنحني ركبنا ثم نعود نصف نيام

الفصل الخامس

اذا كان على المرء قتل المئات من القمل فقتل كل واحدة على حدة امر متعب ممل فهذه الحييونات قاسية صلبة وقتل كل واحدة بالاظافر لمن اتعب الامور. وعليه تجادن اخذ غطاء علبة بويا للاحذية وربطها الى شمعة مشتعلة بسلك حديدي وهكذا صرنا نرمي القمل الى هذا الوعاء الصغير وللحال يفرقع القمل ويموت

نجلس وقمصاننا في ايدينا واجسادنا عارية وايدينا تعمل بكل قوتها. اما القمل التي على هاي فنوع جيد خاص لها على رؤوسها صليب احمر وهو يقول بانه قد اتى بها من المستشفى من ثورهوت ويظن انها كانت بخدمة رئيس الجراحين وهو يقول ايضاً بانه ينوي ان يجمع بقاياها كلها في غطاء علبة البويا ليمسح بها حذاءه. يقول هذا ويقهقه من الضحك نصف ساعة لمزاحه. اما اليوم فلنا اعمال اخرى اهم من مزاحه ولهذا لا نجاريه في قهقته وضحكه

قد تحققت الاشاعات عن حضور هملستوس. حضوره كان امس وقد سمعنا صوته المالوف عند كل واحد منا. يظهر انه قد جاء بالتمرين واغلظ معاملة صغيرين من الجنود الحديثين وكان ابن القاضي يراقب حركاته وهو لم يدر به وهذا قد صب عليه كل جامات غضبه

وبدون شك انه سيلاقي هنا مباغتات جمة فتجادن قد قضى ساعات يفتكر بما سيقول له. وهاي ينظر الى كفيه متاملاً ثم يغمزني. ضربه بالسياط كان منتهى امال تجادن ويقول لي انه احياناً يحلم بهذه الامنية

اما كروب ومولر فيتسليان. لا اعرف من اين حصل كروب كمية من اللوبياء ولعله جاء بها من المطبخ وعلى هذه اللوبياء اثار تدل انها من عصر الانسان الاول ومولر ينظر اليها جائعاً ولكي يردع نفسه عن اختطافها يقول الى كروب «يا البرت. ما تعمله لو بغتة استتب السلم» فيجيبه البرت بكل خشونة «بلا خلط فلا عودة الى الحياة المدنية»

«ولكن ما تعمله اذا استتب السلم»

«اخرج من هذا المكان»

«اجل وبعد هذا»

«اشرب الخمرة حتى اسكر»

«لا تهذي . ما اقوله فاقوله بكل جد»

«اني اجيبك بكل جد ولا هزل في كلامي. وما عسى المرء ان يعمل غير ما ذكرت»

«اجل انك تشرب الخمر وتسكر اولاً. وبعده تركب القطار وتذهب الى امك وبيتك. انتبه يا رجل اقول استتباب السلم يا البرت»

يقول هذا ويمد يده الى جزدانه المعمول من المشمع ويخرج منه صورة يريها الى الكل قائلاً «هذه امراتي» ثم يرجعها شاتماً لاعناً قائلاً «يلعن الحرب المملوءة قملاً» فاقول له «ان هذا الكلام يلائمك جداً لان لك زوجة واولاد»

«اجل علي ان اهتم بان يكون لهم ما ياكلونه» فنقهقه كلنا «لا خوف عليهم من ذلك فانك تقدر ان تحصل لهم قوتهم بالقوة من امكنة عديدة»

اما مولر فماخوذ بالموضوع ولهذا لا يترك لنفسه مجالاً للراحة. فيوقظ هاي وستوس من احلامه ويساله «لو بغتة استتب السلم فما كنت

تعمله» فاقول «اني البطك على ظهرك للطريقة التي تتكلم بها . اخبرنا كيف ياتي السلم»

فيجيبني مولر بكل اختصار «اخبرني كيف يصل زبل البقر الى سطح البيت» . ثم يدور الى هاي وستوس وهذا السوال يصعب على هاي اجابته فيهز راسه المنموش ويقول «معناك عندما تنتهي الحرب»

«بالتمام كما قلت»

«اه . اذاً سنلتقي بنساء ايضاً» يقول هذا وهو يمص شفتيه

«بدون شك»

«اذاً اقسم بكل عزيز اني التقط سيدة ناصحة فرحة نشيطة سافلة سليطة تعرف الطبخ والنفخ وعندها الكثير من الماكول فاقفز للحال الى الفراش وتاملوا يا شباب بفراش ناعم من الريش على سرير من الرفاص . فاني اعاهدكم باني لا البس ثيابي اسبوعاً كاملاً» . يقول هاي هذا وقد اشرقت اسرته . اما نحن فسكت كلنا لان هذه الصورة التي رسمها هاي لجميلة وشهية جداً . وعليها نوخذ بها (ويفلش جلدنا) ثم يعود مولر ويساله «وماذا تفعل بعد ذلك»

فيتامل هاي قليلاً ثم يقول بفظاظة . «اذا كنت ضابطاً فابقى مع البروسيانيين واتم خدمتي العسكرية»

فاقول «يا هاي فلت برغي في دماغك بدون شك»

اما هو فيجاوب بكل لباقة «الا تعرف كيف يعدنون الطحالب والنبات في دور التفحيم . اذهب وجرب» يقول هذا ويسحب ملعقة من القسم الاعلى من حذائه ويهجم على لوبيا كروب اما انا فاقول «ان هذا ليس اردا من حفر الخنادق»

اما هاي فيمضغ ما في فيه ويكشر عن انيابه ويقول «اجل ان هذه

لاشق عمل تاتيه وتستغرق وقتاً اطول ولا طريقة للخروج منها»

«لكن البيت افضل من كل هذه يا رجل» فيجيبني «في بعض الامور» يقول هذا ويفتح فاه ويغرق في احلامه

يقدر الفرد ان يلاحظ ما يفتكر به. لا شيء له الا الكوخ الحقير في ارض غمقة والعمل الشاق في الحر الشديد في بقعة من الارض هي بالحقيقة بورة الموت الزوام وزد على كل ذلك الاجور البخسة وثياب العملة القذرة. اما هاي فيستانف الكلام ويقول «وفي الجندية في وقت السلم لا هم عليك ولا اهتمام. عليهم ان يحضروا طعامك كل يوم والا حق لك الصياح وان تقيم قيامتهم. لك فراشك. وفي كل اسبوع تغير ثيابك التحتية ببدل نظيفة للغاية فتظهر بمظهر الاسياد. ثم تتم واجباتك كضابط. ثم تلبس ثوباً لائقاً وتذهب الى المحلات العمومية كل مساء لانك حر انئذ»

ان هذه الحالة ملتصقة في فكر هاي كانها جزء منه. ثم يستانف الكلام ويقول «ثم عندما تتم خدمة اثني عشرة سنة تحال الى التقاعد فتصير غنوج القرية وعندئذ يمكنك ان تسير في القرية بدون عمل»

يقول هذا والعرق يتصبب على جبهته لاهتمامه بالامر «ثم تامل بالمعاملة التي تعامل بها. كل واحد يهتم ان يصادق غنوجاً. فتارة جرعة صغيرة من الخمر واخرى غبة كبيرة منه»

فيقاطعه كاتزنسكي ويقول «ولكنك لن تصل الى رتبة ضابط يا هاي»

اما هاي فينظر اليه متاسفاً ويبقى صامتاً لان افكاره لا تزال معلقة بقريته والمساآت الاحدية في الخريف وباجراس القرية وبالمساآت التي يقضيها مع الخادمات وباللحم المقلي والشعير والساعات الطويلة التي يقضيها في الخمارة بدون هم او اهتمام. وعليه لا يمكنه ان يطرد

عنه هذه الافكار بسهولة وبسرعة . فعليه يعود ويقول كانه يعرف «ما هذه الاسئلة البليدة» ؛ ثم يرفع قميصه الى فوق راسه ويزرر قباءه فيعود كروب ويسال تجادن «ماذا تعمل انت يا تجادن» . لتجادن فكر واحد «اني اهتم بان لا اعف عن هملستوس» . يظهر انه يحب ان يكون هملستوس في قفص وان يجيء اليه كل صباح بنبوته وهراوته . ثم يقول الى كروب «لو كنت مكانك لاهتم ان اصير ملازماً حتى يكون لي سلطة ان اعذب هملستوس حتى يحترق جلده»

«وما تعمله انت يا ديترنك» . ان مولر كمعلم مدرسة يكثر السوالات وهو يسال ديترنك هذا السوال كمحقق

من طبيعة ديترنك ان يكون قليل الكلام ولكنه في هذا الموضوع خطيب لسن فقبل ان يجيب ينظر الى السماء ثم يقول جملة واحدة «اني اذهب تواً الى الحقل للزرع والحصاد» يقول هذا فيقف ويمشي . افكاره مضطربة لان زوجته وحدها التي تهتم بحقله والحكومة قد اخذت حصانين من خيله . وهو يقرا الجرائد اليومية بكل تأنٍ ليعرف فيما اذا كان الله قد انعم على قريته اولدنبرج بالمطر . لحد الان لم ياتوا بالتبن الى الاهراء

في هذه الدقيقة يظهر هملستوس وهو يسير تواً الى جماعتنا . وللحال يصير وجه تجادن احمر فيرتمي على الارض ويمد جسمه على الحشيش ويغمض عينيه . يفعل كل هذا لانه متهيج . اما هملستوس فتظهر عليه علامات التردد ويبطيء السير ثم يتقدم الينا فلا يتحرك فرد منا او يهتم احد منا ان يقف . وكروب ينظر اليه نظرة خاصة ملوءها الاهتمام . اما هو فيقف امامنا ويبقى واقفاً وينتظر وينتظر وعندما يجد ان كلنا قد اهملناه يقول «ها ها» . اما هذه فلا تجديه نفعاً فيمر ثانيتان

او اكثر وهملستوس يحتار في امره وكان يود ان يامرنا ان نقف للتمرين العسكري ولكنه يعرف جيداً ان الجبهة وخط النار ليسا الثكنة والتمارين العسكرية ومع هذا كله يجرب ان يطلب منا هذا واملاً منه ان يجاب على كلامه يخاطب فرداً منا دون ان يخاطب الجماعة كلها وبما ان كروب هو الاقرب اليه يخصه بهذا الانعام ويساله «ها ها انت هنا ايضاً»

ان البرت ليس صديقه وعليه يجيبه بكل استخفاف «اظن جئت الى هنا قبل مجيئك بقليل» فيعكف شاربه الاحمر ويصيح به «الا تعرفني حتى تتكلم بهذه القحة»

فيفتح تجادن عينيه ويقول «انا اعرفك» فيلتفت هملستوس اليه «ما هذا يا تجادن» . فيرفع تجادن راسه ويقول «وهل تعرف انت من انت» فيضطرب هملستوس لهذا الكلام وتبلغ الحدة به اشدها «من اي متى صرنا اصحاب لدرجة تكلمنا بها بهذه الحرية» «لا اذكر اني قضيت واياك ليلة واحدة في بلوعة» . ان هملستوس لا يعرف كيف يتخلص من هذا المازق ولم ينتظر هذه المعاملة وهذا العداء ولكنه حذر وقد تعلم من اختباره السابق عندما اوقعوه في شركهم . اما مسالة البلوعة فتخرج تجادن عن صوابه وللحال يجيبه «اجل لانك نمت فيها وحدك»

وهذا الجواب يهيج بركان غضب هملستوس ولكن تجادن يسبقه ويقول له «الا تود ان تعرف من انت. انت كلب قذر. هذا ما انت. وكنت اود ان اقول لك هذا من مدة طويلة». يقول هذا ويظهر على عينيه الصغيرتين علامات الرضى التام عندما يلفظ له القول «كلب قذر».

اما هذه المرة فيطير صواب هملستوس «ما هذا يا مجرفة الزبل ويا سارق ولص. قف وضع قدميك كما يجب عليك عندما تكلم ضابطك ومن

هو اعلى منك رتبة»

اما تجادن فيدفعه ويقول «يا هملستوس الأفضل ان تطلق ساقيك للريح واغضب على نفسك فقط»

هملستوس الان برج غضب. تعود على مخيلته قوانين الجندية ويحسب اهانة القيصر اهون جداً من اهانته هذه. «يا تجادن اني ضابطك آمرك ان تقف»

«وهل لك شيء اخر ان تامر به»

«قل لي هل تحب ان تطيع اوامري»

اما تجادن فيعطيه جواباً وهو لا يدري ان بعمله الجواب المفعم بلغة مشهورة بالتاريخ فيدير له ظهره

ان هذا قد ري الكاس فيصب هملستوس كل غضبه ويصيح «ساسوقك الى المحكمة العسكرية»

اما نحن فنجلس ونراقبه يذهب الى غرفة مامور البوليس العسكري اما هاي وتجادن فينفجر الضحك معهما كانفجاره في المدنيين ويضحك تجادن لدرجة يخلع بها فكه فيقف مفتوح الفم مبغوتاً طالباً نجدة فيضطر البرت ان يصفعه صفعة قوية ليرجع الفك الى موضعه

اما كاتزنسكي فيضطرب ويقول «اذا اشتكى الى البوليس العسكري فالمسالة ليست بسيطة»

فيقول تجادن آوهل تظن انه يفعل ذلك»

فاجيب «بدون شك»

ويقول كاتزنسكي «ان اقل قصاص يكون سجن خمسة ايام»

ان هذا القصاص لا يزعج تجادن لان خمسة ايام في السجن انما هي خمسة ايام راحة

ولما كان مولر بعيد النظر دقيقاً يقول «ولربما ساقوك الى القلعة»

«ما احلى ذلك فاحسب ان الحرب قد انتهت ولو ذلك الى مدة»

تجادن رجل فرح مسرور دائماً. لا شيء يقلقه فهو يستمر بكلامه مع هاي وليز كانه لم يحدث شيء

مولر لم ينته بعد فيعود الى كروب سائلاً «يا البرت لو كنت الان في بيتك ماذا كنت تعمل». اما كروب فيريد ان يغير الموضوع لانه اكتفى منه. يقول «كم كان عدد صفنا تماماً»

فنعد عشرين سبعة منهم قتلوا واربعة جرحوا وواحد جن. فهولاء اثنا عشر

فيستانف مولر الكلام ويقول «ثلاثة في رتبة ملازم فما رايكم هل يسمحون الان لكنتورك ان يضايقهم»

نرجح انهم يابون ذلك وها نحن لا نسمح لاحد ان يضايقنا»

ثم يتذكر كروب ايام التلمذة ويقول «ما معنى قولهم في رواية وليم تل «الموضوع مثلث» يقول هذا ويصرخ مقهقهاً

فينتبه مولر ويسال بكل جد «ما القصد من الاتحاد الشعري في كوتنجن»

اعود انا واسالهم «كم ولداً كان لتشارلس الاصلع» ثم يقول مولر مازحاً «يا بومر انك لا تصلح لشيء في كل حياتك»

فيعود كروب ويسال مستفهماً «اي متى كانت معركة زانا»

فاقول «اجلس يا كروب يعوزك العقل الصبور الفاهم اجلس فهذه علامتك ٣ ـ ١٠»

فيسال مولر متظاهراً بانه يرفع عويناته عن عينيه «ما هي الوظائف التي حسبها ليكورغس اكثر اهمية للحكومة والبلاد»

فاعود انا واقول «اي افضل ان يقال نحن الجرمانيون لا نخاف احدًا في العالم الا الله او نحن الجرمانيين لا نخاف في العالم الا الله».

ويعود مولر الى اسئلته ويقول «كم كان عدد سكان مدينة ملبورن»

اما انا فالتفت الى البرت واقول له بعجرفة «وكيف تتوخى النجاح في العالم وانت لا تعرف هذا»

اما هو فالتقط النكتة واضاف اليها «ما معنى جاذبية الالتصاق»

اليوم لا نذكر من هذه التوافه الا القليل. وكيف كان الامر فلم ننتفع منها بشيء. لم يعلمنا احد في المدرسة كيف نشعل الكبريتة لنشعل السيكارة في يوم العواصف والامطار. ولم يعلمنا احد كيف نشعل النار بحطب مبلل ولم يعلمنا احد ان نغرز الحراب في البطن لان لا شيء هنالك يعيقها كما تعيقها الاضلاع اذا اغرزت في الظهر

فيعود مولر الى الكلام ويقول وعليه علامات الافتكار «ما نفع كل هذا. علينا ان نعود الى المدرسة ونجلس في الصفوف لنكمل ما ابتدانا به» اما انا فاحسب ان كل هذه الامور خارجة عن حقيقة الحال فاقول «لعلهم يمتحنوننا امتحاناً خاصاً»

«الامتحان يحتاج الى استعداد وعلى فرض جزت الامتحان فما بعد ذلك. الا تعلم ان حياة التلميذ ليست افضل مما نحن فيه. فاذا كنت معوزًا لا دراهم ولا دينار لك عليك ان تشتغل من الفجر الى النجر كالعفريت او الشيطان الرجيم»

«لا شك انها لحالة تفضل ما نحن فيه قليلاً ولكن كل ما يعلمونك اياه انما هو سخافة وبلا فائدة»

فينهض كروب ويأخذ جانبي فيما اقول ويقول «كيف يمكن ان

يحتفظ المرء بكل هذه المعلومات احتفاظاً ينتفع به اذا جاء مرة الى حيث نحن الان»

فيعود مولر ويقول مؤكداً لكل فرد منا كانه كتوركَ «اجل وعلى كل ان يكون له مهنة يستعين بها على معيشته»

البرت ينظف اظافره بسكينه وما عمله هذا من قبل النظافة والترتيب ولكنه فقط علامة التامل والكآبة. ثم يضع سكينه في جيبه ويقول «هذا ما افتكر به. كاتزنسكي وديترنك وهاي سيرجعون الى اعمالهم لانهم كانوا يعملون عملاً ما قبل الحرب ومثلهم هملستوس. اما نحن ولم يكن لنا ادنى شيء نعمله فكيف يمكن ان نالف عملاً بعد ان نكون قد قضينا مدة هنالك» يقول هذا مشيراً الى الجبهة وخط النار

«كل ما نحتاج اليه مبلغ من المال دخله يكفينا ان نعيش في الحرش منفردين عن العالم» اقول هذا ثم حالاً اخجل من نفسي لهذه الفكرة العقيمة المستحيلة

ثم يقول مولر مستفهماً متعجباً وكان الفكرة تزعجه «اجل ماذا يحدث عندما نعود الى اوطاننا»

فيهز كروب كتفيه ويقول «لنعود اولاً ثم نتدبر الامر»

«الامر يهمنا كلنا وكلنا لا نعرف عنه شيئاً ماذا يجب ان نعمله عندما نعود»

فيجيب كروب تعباً «لا اريد ان اعمل شيئاً. لكل منكم يوم يموت به اذاً لماذا تهتمون بالامر. لا اظن قط باننا سنعود الى اوطاننا»

وبعد قليل اعود الى القول «عندما افتكر بالامر يا البرت. وعندما اسمع كلمة «السلم» تضطرب كل اعصابي وفيما اذا جاء السلم حقاً فاظن اني اعمل عملاً لا يتصوره عقل. عملاً يستحق ان ننام في هذه المزبلة

لاجله. ولكنني لا اقدر الان ان اتصور امراً او افتكر بعمل ما. وكلما اعرفه الان ان المهنة والعمل والاجرة والمعاش وكل الامور التي تشابهها تتبعني ولا ازال اقرف منها كما كنت في الماضي. وبالحقيقة يا البرت فاني لا ارى شيئاً لي في المستقبل. لا مستقبل ولا شيء فيه»

اقول هذا واشعر ان كل الامور امامي مشبكة مشوشة ولا امل لنا بها ولا رجاء لنا بتحسينها. وكان كروب يشعر بذات الامر يقول «ان مسائلنا صعبة للغاية والظاهر ان لا احد من الذين في اوطاننا يهمه امرنا. واعلموا انه لا يمكننا ان نخلع عنا تاثير سنتين كاملتين تحت وابل القنابل ودوي المدفع بسهولة كما نخلع جواربنا او ثيابنا التحتية»

كلنا نصادق على هذا الامر وهذا نصيب كل فرد منا. وليس نصيبنا وحدنا بل نصيب كل جندي من جيلنا الحاضر في كل بقعة ومكان. اجل ان نصيب البعض اسوأ من نصيب البعض الاخر ولكن نصيب الجيل كله سيء جداً.

البرت يفصح فيقول «الحرب قد خربت حياتنا وجعلتنا غير ملائمين لحالة ما»

ما اصدق قوله هذا. لم نعد احداثاً لنبني في العالم قصوراً واملاً فها نحن هاربون

نهرب من انفسنا ومن حياتنا. كنا ابناء الثامنة عشرة وكنا قد ابتدانا ان نحب العالم والحياة فيه ولكننا اضطررنا ان نصليهما ناراً حامية فالقنبلة الاولى انفجرت في قلوبنا وبهذا ابتعدنا عن كل حركة او عمل او جد او اجتهاد او طلب التقدم والنجاح. كنا نحب هذه ونؤمن بها اما الان فلا قيمة لها عندنا لا نؤمن الا بالحرب

ها غرفة بوليس الجندية في ضجة وحركة فيظهر ان هملستوس قد

هيج البوليس فيها وها هم قادمون وفي مقدمتهم الجاويش السمين ومن الغريب ان كل امناء البلوك (الجاويش الذي يدفع المعاشات) بسمن فاحش ومن ورائه يسير هملستوس متعطشاً للانتقام . وها احذيته تلمع لانعكاس نور الشمس عليها وعند وصولهم نقف فيقول الجاويش

«اين تجادن»

على كل لا احد يعرف اين مقره ولكن هملستوس يصرخ بنا غاضباً «بدون شك تعرفون مقره ولكنكم لا تريدون ان تخبرونا به تكلموا حالاً»

وها السمين ينظر باحثاً ذات اليمين وذات الشمال ولكن تجادن غير موجود فيلجا الى طريقة اخرى ويقول «ليجيء تجادن الى غرفة البوليس في خلال عشر دقائق» . يقول هذا ويذهب ويسير هملستوس في اثره

اما كروب فيقول لي «في المرة التالية التي نخرج بها لنشر الاسلاك الشائكة سارمي حزمة منها على رجل هملستوس»

فيقهقه مولر ويقول «ان هذا سيكون سبب مزاح شديد لنا»

ومن هذا ترون ان همنا الوحيد ان نكسر عنفوان ساعي البريد هذا ونذلل كبرياءه . اما انا فاذهب الى الكوخ واعلم تجادن بحقيقة الامر فيختفي

ونحن نحول مجرى افكارنا وكلامنا ونجلس لنلعب «بالورق» وهذا امر نعرفه جيداً لعب ورق وشتائم وحرب هذه امور الفناها وهي سهلة على ابناء عشرين لا شيء فيها لهم ولكنها بالحقيقة هي كل شيء لهم

بعد نصف ساعة يعود هملستوس ويسال عن تجادن اما نحن فنجيبه بهز اكتافنا

«اذاً الافضل ان تجدوه. الم يفتش عليه احدكم». اما كروب فيقول له وهو ملقى على ظهره على الحشيش «هل جئت الى هنا قبل الان»

فيجيبه هملستوس ساخطاً «ان هذا امر لا يعنيك اني اطلب جواب سوالي»

فيجيبه كروب وقد نهض «حسن انظر هناك حيث تلك الغيوم البيضاء الصغيرة . فهاكه مقابل الطيارات . كنا هنالك امس. فقتل خمسة منا وجرح ثمانية وهذا كانه لا شيء عندكم. اذهب معنا في المرة التالية فيجيء اليك كل من يصاب قبل ان يفارق الحياة ويحييك التحية العسكرية ويسالك «هل اموت». هل اقفز لها. اننا ننتظر من مدة طويلة شخصاً مثلك»

يقول هذا ويعود يجلس وهملستوس يختفي بسرعة كانه نيزك فيقول كاتزنسكي «سجن ثلاثة ايام»

فاقول الى البرت «المرة التالية ساشاركم في الامر»

في المساء ينتهي الامر ويجلس ملازم فرقتنا برتنك للقضاء وتبتدىء المحاكمة ويطلب كل منا الواحد بعد الاخر وانا احضرت شاهداً لاوضح سبب تصرف تجادن واستخفافه هذا

اما قصة ترطيب الفرشة فيكون لها وقع حسن فيطلب هملستوس واعود انا واوضح الامر . فيسال برتنك هملستوس «هل هذا صحيح» فيجرب هملستوس ان يجتنب اجابة هذا السوال ولكنه يضطر الى الاقرار لان كروب ايضاً سرد القصة نفسها

فيسال برتنك «لماذا لم يخبرنا احد منكم بالامر في حينه»

فنصمت كلنا . وعلى برتنك ان يعرف ان لا فائدة من اعلامهم بامور كهذه. والشكايات في العسكرية غير شائعة. وهو يعرف كل هذا

وعليه يلقي على هملستوس خطاباً ينهيه بقوله بان جبهة الحرب ليست ارضاً للتمارين العسكرية وليست ثكنات. وبعده تجيء نوبة تجادن فيلقي عليه عظة طويلة ويحكم عليه بالسجن الحر ثلاثة ايام ثم ينظر الى كروب ويحكم عليه بالسجن الحر يوماً كاملاً ويقول آسفاً «هذا ما لامناص منه»

برتنك شاب طيب . السجن الحر حالة لا باس بها. فالمحل كان مرة بيتاً للدجاج ويمكننا زيارة المسجونين كما واننا نعرف كيف ندبر امر زيارتهم . النوع الاخر من السجن هو البقاء في دهليز مقفل. كانوا اولاً يربطوننا الى شجرة اما الان فغيروا هذه الطريقة وصاروا يعاملوننا في بعض الامور كما يعامل البشر

بعد ذهاب تجادن وكروب الى ما وراء الاسلاك بساعة نذهب اليهما فيجيئنا تجادن ونقضي قسماً كبيراً من الليل نلعب بالورق. تجادن ذو حظ عال وعليه مؤكد ربحه

. . . . .

عندما ننهي اللعب ونهم بالانصراف يسالني كاتزنسكي «ما قولك لو حصلنا الان على وز مشوي» . «راي عال» فتسلق عربة لنقل الذخائر الحربية ونطلب المسير الى المحل الذي سمعنا فيه صوت الوز. كاتزنسكي يعرف المكان ونفقة السفرة لا تزيد عن سيكارتين. المحل مقر رئاسة احد الفيالق. اما انا فاقبل ان اجلب الوز وعلى كاتزنسكي ان يرشدني الى ما يجب علي ان اعمله. البيت حيث الوز وراء الحائط والباب مقفول ومسكّر بوتد فقط. فيرفعني كاتزنسكي وانا اضع رجلي على يديه واتسلق الحائط واقفز الى الجهة الاخرى ويبقى كاتزنسكي في مكانه حارساً يترقب الطوارىء. ثم انتظر ثواني قليلة ليعتاد نظري

على خرق الظلام الدامس فاكتشف البيت واذهب اليه متسرقاً وارفع الوتد وافتح الباب وارى شيئين ابيضين هما وزتان فهذا سوء حظ لانه اذا اخذت احداهما تقلق الاخرى الارض بنقيقها. فالافضل ان اسير بالاثنين معاً وهذا لا يمكن الا اذا كانت سرعتي كوميض البرق. فللحال اقفز وامسك واحدة وبلحظة التقط الاخرى . وكمن قد جن اضرب براسيهما عرض الحائط لاخمد انفاسهما ولكن لا قوة كافية لي فانهما يضربان بارجلهما واجنحتهما ويملآن الفضاء بنقيقهما. وعليه احاربهما مستقتلاً. لله ما اقوى لبط الوز واشده فهما يجاهدان وانا اترنح واتمايل. فهاتان البقعتان البيضاويتان مخيفتان في الظلام جداً. واني لاشعر بان يدي قد تحولتا الى اجنحة واني خائف ان يحملاني الى الفضاء كاني ممسك بالونين اسيرين. عندئذ يبتدىء العراك. فاحداهما تفلت راسها وتبتدىء تصيح كانها «منبه» وقبل ان اتمكن من عمل شيء لاسكاتها يجيء شيء ما من الخارج واشعر بلطمة فاقع الى الارض واسمع عوياً مخيفاً جداً فما هذا الشيء سوى كلب شديد الباس فانظر الى جانبي خلسة فيهجم علي ليمسك بعنقي فاقطع نفسي ولا ابدي حركة واجعل ذقني ان تلتصق بقبعة ردائي. فبعد مضي وقت هو الابدية بطوله يرفع راسه من فوقي ويجلس بقربي ولكنه ينبح لاقل حركة ابديها. فاعود الى فكري فلا خلاص لي الا باخراج مسدسي من جيبي وعلي ان افعل هذا ايضاً قبل ان يجيء احد. وها انا ادفع يدي قيراطاً بعد القيراط نحو مسدسي واني اشعر ان عملي هذا يستغرق ساعات طوالاً واقل حركة تسبب عريره فاعود الى سكوني واخيراً تصل يدي الى المسدس فترتجف. فالصق يدي بالارض واقول لنفسي بهزة اليد الى فوق ارمي عليه النار قبل ان يكون له وقت ان يقبض علي ثم انهض

بسرعة. فاتنفس تنفساً عميقاً ويهدا روعي وبعدها اقطع نفسي وتضغط اصبعي على المسدس فيقفز الكلب معويا الى جانب اخر فاركض حالاً الى باب السقيفة واقع راساً على عقب على احدى الوزتين المضطربتين فامسكها بسرعة زائدة وارميها الى ما وراء الحائط واتسلقه. وما اكاد ان اصل الى اعلى الحائط حتى يعود الكلب الى قواه ويقفز علي. فارمي بنفسي الى ما وراء الحائط وعلى بعد عشر خطوات من حيث وصلت كاتزنسكي والوزة تحت ابطه وعندما يرى الواحد منا الاخر نركض باسرع ما تحملنا ارجلنا. اخيراً نقف لنتنفس الصعداء فالوزة قد ماتت وقد اهتم كاتزنسكي بهذا واماتها بلحظة . وبعزمنا ان نشويها دون ان نخبر احداً فاجلب صفيحة من تنك وقطعة خشب من الكوخ ونذهب سراً الى بيت خلاء مهجور نستخدمه لغايات كهذه. وللحال نضع على الشباك برداية سميكة. فنضع فيه موقداً ونضع الصحن الحديدي على الموقد ونضرم النار

كاتزنسكي ينتف الوزة وينظفها ونخبىء الريش لاننا ننوي ان نصنع منها مخدتين نكتب عليها «نوم الراحة تحت نيران القنابل» وها صوت اطلاق المدافع يخرق الفضاء ليصل الى مقر راحتنا وملجانا وها لهيب النار ينير على وجوهنا واخيلتنا ترقص على الحائط. وبينما نحن في هذا نسمع بانفجار وانكسار فيهتز بيت الخلاء حيث نحن . ان رمي القنابل من الطيارات قد اصابت كوخاً. الطيارات تتكاسل في عملها ولكن المدافع تنشط فيسمع دويها . كل هذا ولا ضوء ضئيلاً يمكن روءيته من مخبانا

نجلس الواحد مقابل الاخر انا وكاتزنسكي. جنديان بثوبين رثين نشوي وزة في نصف الليل لا يكلم احدنا الاخر بل صامتين واني اتاكد

بان لدينا اموراً مشتركة واننا متحدان اكثر جداً من عشيقين مغرمين. نحن رجلان لا بل شعاعتان صغيرتان من اشعة الحياة. ففي الخارج ليل وموت ونحن نركع على حافة الموت تحت خطر جسيم والدهن يسقط من بين ايدينا. ونحن في قلبينا متحدين الواحد بالاخر والزمن الذي نحن فيه كالفرقة التي نحن فيها وكلاهما منقط ومخطط بانوار شعورنا واخيلته ومولد هذه الانوار والاخيلة نار هادئة صامتة. ماذا اعرف عن كاتزنسكي او ماذا يعرف هو عني. قبل الان لم يكن بيننا صلة او فكر صغير ولكننا الان نجلس وبيننا وزة فنشعر باتحاد نفسينا وها نحن متقاربان لدرجة تمنعنا عن الكلام

شيّ الوزة يستغرق وقتاً طويلاً ولو كانت صغيرة وسمينة. ولهذا تتناوب العمل. فبينما الواحد يقلبها على النار ينام الاخر. وتدريجاً امتلا الكوخ برائحتها والاصوات في الخارج تتزايد وهي تمر كاني احلم بها ولكنها تلتصق بذاكرتي فاستمر اسمعها. انظر الى كاتزنسكي يضع المغرفة في القصعة ثم يرفعها. احب كاتزنسكي بكتفيه وقامته المنحنية. ومن ورائه ارى الاحراج والنجوم وفوق كل ذلك اسمع صوتاً يتلفظ بكلمات تجلب السلام والطمانينة لي انا الجندي اللابس الحذائين الكبيرين الحامل على ظهره كيس الذخيرة والمؤونة وعلى وسطه منطقة الجندية. يسير في طريق مفتوح امامه تحت القبة الزرقاء ينسى الاشياء بسرعة وقلما يحزن . يستمر دائماً في سفره الى الامام تحت الظلام وفي الفضاء . جندي صغير واضح الصوت قلما يفهم حقيقة الحال اذا اهتم احد بغنجه ودلاله. هذا الجندي ذو الحذائين الكبيرين والقلب الحجري يمشي في الجندية فقط لانه يلبس حذائين كبيرين وها وراء الافق وطن تغطيه الزهور . فهذا الجندي الساكن الان

تجيش فيه العواطف ليبكي. ففي ذلك الوطن مناظر لم ينسها بعد ولكنه خسرها. او ليست هذه سنوه العشرون . اين انا ولماذا وجهي مبلل. يقف كاتزنسكي امامي ويقع علي خياله الكبير المنحني كوقوع ذكرى البيت علي فيتكلم بلطف ويبتسم ثم يعود الى النار ويقول «قد انتهى الامر».

اجل يا كاتزنسكي. فانهض وفي وسط الغرفة الوزة المشوية. فياخذ كل منا من جيبه سكينه ومن جرابه شوكته ويقطع فخذاً وناكل معها خبز الجندية مغموساً بالدهن الذائب منها. فناكل ببطء وشهية .

«كيف وجدت طعمها يا كاتزنسكي»

«لذيذ للغاية وما رايك بها»

«طعام فاخر»

كاخوين يعطي الواحد منا النصيب الافضل الى الاخر. وبعده ادخن سيكارة وكاتزنسكي يدخن سيكاراً.

«ما تركناه كثير فمارايك يا كاتزنسكي اذا اخذنا قسماً الى تجادن وكروب»

«حسن حسن»

فنقطع قطعة كبيرة نلفها بجريدة على ان ناخذ الباقي الى الكوخ. ولكن كاتزنسكي يسير مقهقهاً ويقول «تجادن» فاذعن لرايه ان ناخذ الكل الى تجادن. فبعد جمع الريش وتخبئته نذهب الى ماوى الدجاج اما تجادن وكروب فيحسبوننا سحرة ولكنهما بالسرعة يشغلان اسنانهما واضراسهما فتجادن يمسك جناحاً بكلتي يديه ويبتدىء يقرضه بانيابه ثم يشرب المرق من القصعة ويمص شفتيه قائلاً «اني لن انساكما».

نعود الى كوخنا والفجر يجمع جيوشه ليهزم النجوم ولكني اذهب

الى الكوخ انا الجندي اللابس الحذائين الكبيرين المملوء البطن انا الجندي الصغير. في فجر هذا الصباح وبقربي رفيقي كاتزنسكي ذو القامة المنحنية. اما الاكواخ ومنظرها في الفجر تمثل لنا نوماً عميقاً في الظلام

الفصل السادس

تروج بيننا اشاعة باننا سنقوم بهجوم فنذهب الى الجبهة قبل الوقت المعين بيومين. ونمر في طريقنا بمدرسة قد هدمتها القنابل وقد صف بجانبها توابيت صفراء جديدة وغير مصقولة انبعثت منها رائحة الاخشاب التي قطعت من الحرش منذ امد غير بعيد... وعدد هذه التوابيت لا يقل عن المئة

فيقول مولر بتعجب «انه استعداد بديع للهجوم»

فيجيبه دترنك بامتعاض «انهم لنا يا صاح»

فيقاطعه كاتزنسكي بحدة «لا تتكلم كلاماً فارغاً كهذا»

فيخاطبه تجادن باستهزاء «كن شكوراً اذا صح لك تابوت مثل هذا عند موتك. فجل ما يمكنك ان تحصل عليه هو قطعة من المشمع يلفونك بها ويتركونك جيفة في البراري والقفار»

ويطفق الجنود الباقون يسمعوننا نكاتهم غير السارة. ولكن ما العمل والحقيقة واحدة اوليست هذه التوابيت لنا ولا يمكن التغلب على هذه الحالة الا بنكات كهذه

.....

كل شيء امامنا في غليان مستمر. ففي الليلة الاولى نحاول ان نهيء العربات للنقل. ومتى تهدا الضجة قليلاً يمكننا ان نسمع حركات العدو وتقلياته التي لا تنقطع الا مع الفجر. ويقول كاتزنسكي بان العدو لا يرجع الى الوراء بل ينقل جيوشه وذخائره وقنابله الى الجبهة ويمكننا ان نلاحظ بسهولة ان المدفعية الانكليزية قد عززت. فهناك على الاقل اربعة مدافع عيار خمسة وعشرين موجودة في يمين المزرعة وراء اشجار الحور علاوة على المدافع الموجودة سابقاً. هذا عدا عن المفرقعات الافرنسية ذات الفتيل الذي ينفجر بسرعة. تخور عزائمنا من كل هذا .وبعد مرور ساعتين على وجودنا في الحفريات تبدا مدفعيتنا بقذف حممها على خنادقنا. وهذه هي المرة الثالثة التي تحدث فيها مثل هذه الامور من مدة اربعة الاسابيع الاخيرة. فاذا كانت عن خطاء فلا احد يجرؤ على التكلم بشيء. ولكن الحقيقة هي ان مدافعنا قد فنيت من كثرة الاستعمال وغالباً ما تكون قذائفها غير محكمة فتسقط ضمن منطقتنا. وفي هذه الليلة جرح اثنان من رجالنا من جراء هذه المسالة

.....

الجبهة ليست الا قفصاً علينا ان نبقى فيه كيف كان الحال ورغم خوفنا . وها نحن تحت شبكة من القنابل المنفجرة نعيش ولا نعرف المصير معلقين بالهواء وكان النصيب يرفرف فوقنا فاذا سقطت قنبلة فما علينا الا ان نلتصق بالارض ونحن لا نعرف اين تسقط حتى ولا يمكننا ان نعين موضع سقوطها ولو بالتقريب. فهذا الحظ او النصيب الذي يجعلنا عديمي الاكتراث بما يحدث حولنا. منذ اشهر قليلة كنت في حفرة العب ورقاً ثم خطر لي ان اذهب الى حفرة اخرى لازور

رفاقي ولما عدت الى الحفرة الاولى لم اجد لها اثراً لانه اصابتها قنبلة فقلبتها راساً الى عقب فعدت الى الثانية فوجدتها ايضاً قد هدمت وكاني وصلت بالوقت المناسب لاساعد ارفاقي في اعادة حفرها. ردمت في فترة قصيرة جداً.

فالمسالة ليست الا مسالة نصيب وما بقائي في قيد الحياة الا نصيب وقد يجوز ان اصاب في حفرة حفرناها لتقينا من القنابل و تتطاير اجزاء جسدي الى الوف الاجزاء وقد يجوز ان اكون في الفضاء مدة عشر ساعات تصب القنابل علينا جامات غضبها صباً متواصلاً ولا اصاب بادنى اذى. لا تسلم الجرة كل مرة فكم بالحري والمرات عديدة تعد بالالوف. ولكننا الجنود نؤمن بالحظ والنصيب و نسلم امورنا الى المقدور والحظ

.....

تخلل في الخنادق كثير من الجرذان فعلينا ان نهتم بالخبز و نعتني به لان الجرذان تتزايد عداً وديترنك يقول ان كثرة الجرذان علامة ثابتة لتفجر المفرقعات واطلاق المدافع.

اما الجرذان فمن النوع الذي تشمئز منه النفوس و ندعو هذا النوع «آكل الجثث» وجوهها شريرة مخيفة والنظر الى اذنابها الطويلة العارية من المقيئات المقرفات. وهذه الجرذان جائعة جداً سطت وقضمت خبز كل فرد منا تقريباً. كروب لف خبزه بمشمع ووضعه تحت راسه ولكنه لم يقدر ان ينام كل الليل لان الجرذان جعلت راسه ميدان سبق طامعة بالخبز. ديترنك اراد ان يحتال عليها فربط خبزه بسلك حديدي وعلقه في السقف وفي الليل اضاء النور الكهربائي الذي في جيبه فوجد الخبز كانه في ارجوحة يهز لليمين والشمال. وعليه جرذ كبير. اخيراً انهينا امرنا معها لانه لا يمكنا ان نرمي الخبز والا لما يبقى

لنا شيء لناكل في الصباح. وهكذا نقطع من الخبز الكسر التي قضمتها هذه الحيوانات القذرة ثم نضع هذه الكسر في كوم وسط الغرفة ويمسك كل فرد منا معوله مستعداً لهجوم الاول منها. اما ديترنك وكروب وكاتزنسكي فيمسكون انوارهم الكهربائية وبعد دقائق قليلة نسمع وقع اقدام المشي المتثاقل واصوات الجذب فيتزايد الصوت لانه وقع اقدام صغيرة عديدة وعندها تضاء الانوار وللحال ينزل كل فرد منا بمعوله على الكومة في الوسط فتتطاير اجزاؤها في الغرفة . النتيجة حسنة فنرمي اجزاء الجرذان من فوق المتراس ونعود الى انتظار المعركة الثانية معها. ونعيد هذا الامر مرات عديدة ولكن الجرذان اخيراً تفقه الامر وتشم رائحة الدم فلا تعود. ومع كل ذلك نقوم في الصباح فنجد كسر الخبز لم يبق منها كسرة. في المحل المحاذي الى حيث نحن هجم الجرذان على كلب وهر فعضوهما حتى ماتا ومن ثم اكلوهما

في اليوم التالي يوزع علينا من الجبن الاحمر وينال كل جندي ربع كرة منها تقريباً. من جهة واحدة هذا امر طيب لان هذا الجبن لذيذ ومن الجهة الاخرى لهو امركريه مبغوض لاننا نتشاءم منه. وبالوقت ذاته تزيد علينا المحرمات عندما يوزعون الرم «المسكر» . اننا نشربه ولكننا لا نجد فيه راحة وسلواناً

في النهار نتلكا هنا وهناك (نلوطع) ونصلي الجرذان ناراً حامية. وتكثر بالوقت نفسه الذخائر والمتفرقعات اليدوية. ونفحص الحراب اي تلك التي لها حد كحد المنشار. واذا ساق سوء الحظ احدنا الى من هم في الجهة المعاكسة ووجدوا معه احدى هذه الحراب فيقتلونه حالاً. وفي المحل المحاذي الى محلنا وجدنا بعض جنودنا قد جذعت انوفهم وفقئت عيونهم بحرابهم التي تشبه المنشار وزيادة عن كل ذلك

ملئت افواههم وانوفهم بنشارة الخشب حتى اختنقوا

مع بعض الجنود الحديثين حراب كهذه فناخذ هذه منهم ونعطيهم الحراب المعروفة العادية. ولكن الحراب قد خسرت مركزها في الحرب واليوم يستعيضون عنها بالقذائف والفؤوس . فالفاس المسنون اسهل للمناولة من حربة ذات حدود عديدة. وزيادة عن امكانية ضرب العدو به تحت ذقنه يكون الضرب به افعل لثقله. واذا اصيب فرد بين عنقه وكتفه فينزل الفاس بسهولة في جسم المضروب خارقاً كل شيء حتى يصل الى الصدر. غير ان الحربة قد ترتكز بالضرب في موضع واحد وعندئذ على الضارب ان يشد بكل قوته بيديه ورجليه حتى يخرجها. وطالما يضطر ان يلبط المضروب مرات عديدة على بطنه ليخرجها. وما ادراك انه قد يصيب الضارب في محاولة اخراج الحربة ضربة من نوعها ومما يزيد الطين بلة ان نصلة الحربة تنكسر في جوف المضروب

يحاربوننا في الليل بالغاز وبعده ننتظر هجومهم. فنرتمي على الارض وقناع كل واحد على وجهه مستعدين ان ننزعه حالما يمكنا رؤية الخيال الاول . يجيء الفجر ولا يحدث شيء سوى الحركة الدائمة. وراء خط العدو قطارات ولوريات ومن فوقهم غمام رقيق. «يا للعجب ما عساهم يعملون وعلى مَ يصبون كل قوتهم. ان مدفعيتنا ترمي قذائفها عليهم بدون انقطاع ولكن هذه الحركة عندهم لا تبطل»

يظهر التعب على وجه كل فرد منا ونتحاشى جداً ان يرى الواحد منا الاخر. فيقول كاتزنسكي حزيناً «ان حالتنا هذه كما كانت في «الصوم» فهناك قضينا سبعة ايام كاملة ليلاً ونهاراً تحت شآبيب من قنابل المدافع». قد هجر كاتزنسكي كل هرجه ونكاته وهذه علامة رديئة

لانه خبير في امور الجبهات وخطوط النار ويعرف الامور قبل حدوثها.

تجادن وحده تظهر عليه علامات السرور والانشراح وذلك بما يوزعونه من المسكر والماكولات ويظن اننا سنذهب لنرتاح بدون حدوث امر ذي بال. ويظهر ان تجادن مصيب في ظنه لانه يمر اليوم تلو الآخر ولا يحدث شيء. ليلة ما علي ان اصغي الى ما يجريه العدو فاجلس القرفصاء في الموضع المعد لذلك وفوقي المتفرقعات والشهب النارية كلها تصعد في الهواء ثم تسقط. نعم اني حذور ولكنني في شدة وضيق. فضربات قلبي يزيد عددها جداً. ونظري من حين الى اخر يقع على ساعتي ذات الوجه المنار ولكن يظهر ان عقاربها لا تتحرك. النعاس يتسلط علي كانه معلق في جفوني فابتدىء بتحريك اصابع رجلي في حذائي كي لا انام. كل هذا ولا يحدث شيء حتى تجيء نوبة غيري ولا نسمع بالحركة الدائمة في الجهة الاخرى المعاكسة. وبالتدريج يهدا روعنا فنلعب بالورق ونقامر لعله يكون لنا في هذا حظ

الفضاء فوقنا مملوء كل النهار بطيارات للاستكشاف والشائع بيننا ان العدو في هجومه هذا سيهمل الدبابات ويستخدم الطيارات التي تطير واطئاً ولكن هذا امر لا يهمنا كثيراً لاننا نسمع عما عنده من راميات اللهيب

نستيقظ نصف الليل فاذا الارض تخرج اثقالها والنار القوية تسقط علينا فنلتصق بالزوايا ونعد عيارات القنابل التي يمطرها العدو علينا فيتمسك كل فرد بحاجياته وينظر اليها من اونة الى اخرى ليتاكد بقاءها معه. الحفر التي حفرناها مخابىء تنقلب راساً على عقب والليل كله كانه وميض برق ودوي رعد. وكلما اضاءت الشهب النارية مقرنا يتطلع الواحد منا بالاخرين فاذا الكل بوجوه صفراء يعضون شفاههم

ويهزون رؤوسهم . وها كل واحد منا يعرف ان القنابل القوية والقذائف المخيفة تهدم متاريسنا وتقتلع مخابئنا وتخرب الطبقات العليا من السيمنت الذي نبنيه لوقايتنا. عندما تسقط قنبلة في خندق نلاحظ عملها والحفر التي تحدثها وما هي الا كعاصفة مخيفة هائجة او كضربة من كف حيوان مفترس هائج. وها في الصباح بعض الجنود الحديثين يتقيؤون وذلك لعدم خبرتهم

بكل بطء يبدد ضوء الفجر الرمادي انوار لهيب القنابل وبعد الفجر الصباح فيختلط صوت انفجار الالغام بدوي اطلاق المدافع وهذه حالة تزيد الخوف والارتعاش حتى يصير جنوناً لان البقعة التي تحل فيها هذه تصير كلها قبراً واحداً. تجيء النجدات والكشافون يعلوهم التراب ويرتجفون. احدهم يجلس في الزاوية صامتاً ويأكل طعامه والاخر من فرقة الاحتياط يتنهد ويبكي لان عواصف الانفجار قد رمته مرتين من فوق المتراس وفي المرتين لم يصب باذى سوى التهيج والخوف اللذين يعقبان حالات كهذه. الجنود الحديثون ينظرون اليه. علينا ان نكون على حذر لان اموراً كهذه تجيء على غفلة وها بعض الشفاه ترتجف ولحسن الحظ ان ضوء النهار يتزايد ولربما يقومون بالهجوم قبل الظهر. كل هذا واطلاق المدافع لا ينقص ابداً وها القنابل تسقط ايضاً في المؤخرة. والى مسافة ما نقدر ان نرى الارض يتفجر منها ينابيع من الوحل والحديد. وهذه القنابل قد حفرت نطاقاً عريضاً طويلاً. العدو لا يقوم بهجوم ولكنه يواصل اطلاق المدافع ورمينا بالقذائف وهذا ما يفقدنا الحس ويخدرنا تدريجاً حتى بالجهد يقدر احد منا على الكلام وانالنعجز عن توضيح ما نريده وجعل السامع ان يفهم قول المتكلم. الخندق الذي نحن فيه قد اجهز عليه

والقذائف تجعله في مواضع بعلو قدم ونصف فيه حفر وفوهات وجبال من التراب وها قنبلة تسقط امامنا وللحال يكتنفنا الظلام فنعرف انها قد غطتنا بالتراب فنعمل لنخرج من تحته وبعد ساعة نفتح مدخل الخندق وكان العمل يلهينا عن المخاوف التي تكتنفنا فيهدا روعنا. ان قائد بلوكنا يشق طريقه حتى يصل الينا فيخبرنا ان حفرتين قد اجهز عليهما ومجيئه مما يهدىء روع الجنود الحديثين. ويقول لنا انهم سيجربون بان ياتوا لنا بالطعام هذا المساء. ان هذا القول مما يشجعنا وتجادن اول المفتكرين به. وهذا مما يجعلنا نشعر بقرب العالم الخارجي عنا والجنود الحديثون يفتكرون ان الامر ليس رديا اذا كانوا ياتون لنا بالطعام. اما نحن فلانهتم ان نصلح خطاءهم لان الطعام ضروري كالذخائر وللسبب هذا نفسه عليهم ان ياتوا به ولكن الحقيقة عكس ما نظن فها بلوك اخر يجرب ان يخرج من المنطقة التي نحن فيها ولكنه يعود خائباً. واخيراً يذهب كاتزنسكي بنفسه ولكنه يرجع حالاً بخفي حنين. يستحيل على كل فرد ان يخترق المخاطر الناتجة عن اطلاق المدافع المتواصلة فنعود ونشد زنانيرنا ونمضغ كل لقمة كثيراً قل ثلاثة امثال ما اعتدنا عليه ولكن الطعام ينفد ويتسلط علينا الجوع وانا آخذ لقمة من الخبز وانزع عنها قشرتها واضعها في الكيس المعلق على ظهري ومن وقت الى اخر اقضم منها جزءاً صغيراً جداً

الليل لا يطاق ولا يحتمل فالنوم يطير من عيوننا ويتنازعنا النعاس والارق. اما تجادن فياسف جداً على ضياع كسر الخبز التي اتلفناها في حربنا مع الجرذان وكلنا يتمنى الحوزة عليها في هذا الوقت. اجل لقد نقصت الماء عندنا ولكن امرها لا يزال محمولاً

قبل الفجر نشعر بشغب فها جيش من الجرذان الهاربة تهاجمنا

فنشعل مشاعيلنا وتنفجر لغاتنا وصراخنا ونبتدىء بالقتل والضرب. وكاننا بهذا «نفش خلقنا» بما تحملناه الساعات الطوال التي مرت. وها المعركة يحمى وطيسها بالحراب وصراخ الحيوانات ووقوف بعضنا عن المناضلة والحرب كي لا يصيب الواحد منا الاخر. وهذه المعركة قد انهكت قوانا. فنضطجع منتظرين هجوماً اخر. ومن العجيب انه لم يفقد احد منا مع ان حيث نحن لم يكن محفوراً بعمق الحفر الأخرى

بغتة يدخل (اونباشي) قائد عشرة وتحت ابطه رغيف. ثلاثة منا اسعفهم الحظ في الليل فذهبوا واتوا بطعام ويقولون ان مدافع العدو المتواصلة الاطلاق تصل قنابلها الى مدفعيتنا اما كيف يمكن ان يكون للعدو قنابل هذا عددها فسر لا نعرفه

اما نحن فننتظر وننتظر وننتظر فيحدث عند الظهر ما كنت انتظر وقوعه. احد الجنود الحديثين جن وكنت لاحظت عليه ذلك من زمن لانه كان يفتح كفيه ويطبقهما ويصر باسنانه. نعرف معنى الاعين الناتئة الجاحظة الغير مستقرة. مدة ساعات قليلة كان هادئاً ولكنه عاد فهبط هبوط الشجرة المنخورة

يقف ويسير سراً ثم يتردد قليلاً ثم يتوجه الى الباب فاتعرض له قائلاً «الى اين انت ذاهب»

فيجيبني «ساعود بدقيقة» يقول هذا ويجرب ان يدفعني بيديه ليمر «تمهل قليلاً فالمدافع ستوقف عملها بعد قليل». ينتبه الى قولي ويظهر الهدو على عينيه لحظة ولكن عيناه تعودان تشعان كعيني كلب كلب يهدا قليلاً ثم يدفرني جانباً. فاقول له «تمهل دقيقة واحدة يا صاح». كل هذا وكاتزنسكي ينظر الينا ويقفز عندما يدفعني الجندي بيديه ونمسك به فيبتدىء بالهذيان صارخاً «دعوني اخرج من هنا اتركوني

فاني خارج لا محالة». فلا يصغي الى احد ويفلت منا ويخرج والرغوة على فيه ويكاد يختنق ويتلفظ بكلمات لا معنى لها. ان هذا النوع من الجنون الذي يصيب النساك. يشعر انه يختنق اذا بقي حيث هو فيطلب الخروج من مكانه مهما كلفه الأمر واذا تركناه يخرج فيسير في كل مكان ولا يتنبه ليختبىء من العدو. لم تكن هذه الحادثة الاولى من نوعها. هذيانه وزيغان عينيه كل هذا لا يجدي نفعاً فلا يمكننا ان نتركه وشانه بل علينا ان نقنعه ان يختبىء والا علينا ان نخبئه قسراً فنفعل هذا بسرعة وبدون شفقة عليه واخيراً يجلس بيننا هادئاً. اما الباقون فتصفر وجوههم. ونرجو ان هذه الحادثة تصدهم عن اقتفاء اثرها. ان هذه المدافع وقنابلها المتواصلة الانفجار لاكثر جداً مما يقدر ان يحتمله هولاء المساكين. ارسلوهم راساً من ثكنة التمارين الى ساحة الحرب الى مسرح القنابل والمدافع وهذه ما تشيب الاطفال وتصطك لهولها ركب الذين قضوا حياتهم في الجندية

بعد هذه الحادثة يصير الهواء المحبوس والكثيف ثقيلاً على اعصابنا. وبغتة تتفجر علينا القنابل ويكون صوتها وشهبها مخيفة جداً. فتشقق لهول سقوطها الحفرة التي نحن فيها مختبئون ولكن لحسن حظنا كانت القنبلة من النوع الخفيف فيقدر السمنتو على احتمال صدمتها ولكن وقوعها على السمنتو يجعل صوتاً كرنين الجرس. ولكن الحيطان تميل. وبنادقنا وخوذنا والتراب والوحل الذي تحتنا كلها تتطاير في الفضاء ويهجم علينا دخان الكبريت. لو كنا في حفرة من الحفر التي يحفرونها حسب هندستهم الجديدة لما بقي منا مخبر لان هذه غير عميقة ومع كل هذا تاثير هذا الانفجار سيء علينا فالجندي الحديث يعود الى هذيانه ويتبعه فيه اثنان غيره. واحدهم يقفز ويركض ليخرج اما نحن

فمهتمون بالاثنين الاخرين وانا اجد وراء الهارب وافتكر ان ارميه بالرصاص في رجله ولكن تدبيري هذا يفشل بعودة القنابل الى ازيزها ودويها. فارمي بنفسي الى الارض ولكنني اجد عندما اقف ان حائط الخندق قد تعلق فيه شظايا محترقة تدخن وقطع من اللحم وخرق من ثياب الجند فاعود الى الارض

هذا والجندي الحديث قد اطبق جنونه وهو ينطح الحائط براسه كما تفعل المعزى وعلينا الليلة ان ناخذه الى المؤخرة. ولكننا نربطه موقتاً بطريقة يمكنا حله فيما اذا حدث الهجوم

في هذه الساعة يشير علينا كاتزنسكي ان نلعب بالورق على اعتقاد منه ان هذا مما يلهينا ويهون علينا الامر فنجلس للعب ولكن هذا لا ياتي بجدوى لاننا نصغي الى كل قنبلة وانفجارها وهذا مما يشتت افكارنا فنغلط في الحساب وتتبع اللعب وعليه نبطل اللعب ونجلس كاننا في قدر تغلي فيه الماء والنار حامية تحتها وفوقها ومن كل جانب

يدهمنا الليل ايضاً . وقد اماتنا الاجهاد المتواصل وها التوتر والجذب يجعل حالتنا حالة من يحك ظهره بسكين ثلماتها عديدة. ارجلنا تابى ان تتحرك وايدينا ترتجف واجسامنا جلد منشور بطريقة موجعة على هيكل مقيد. اجل ان هذا ما لا نقوى عليه . فلم يبق لنا لحم او عضلات ولا نجرا ان ينظر الواحد منا الى الاخر خوفاً من امر لم يكن بالحسبان فنعض على شفاهنا ونردد بصبر وهدو «سينتهي الامر سينتهي الامر علنا نخرج منه سالمين»

بغتة تبطل الانفجارات القريبة غير ان القنابل تستمر في سفراتها ورحلاتها وهذه المرة ترمي الى ابعد من حيث نحن فتعلو فوقنا وتسقط وراءنا فنمسك القذائف اليدوية التي معنا ونضعها خارجاً امام

الخندق الذي نحن فيه ونقفز وراءها. اطلاق المدافع قد وقف ولكن نيراناً حامية تقع وراءنا. قد ابتدا الهجوم

ومن اغرب الامور واعجبها انه يبقى رجال مع كل الانفجارات والمفرقعات التي حدثت. وها الان الخوذ الفولاذية تظهر من كل صوب من الخندق وفي مسافة خمسين يرد منا مدفع لا يزال ينبح.

المتاريس المشبكة المصنوعة من الاسلاك الشائكة قد تقطعت ارباً ارباً ومع ذلك لا تزال حاجزاً يؤخر تقدم العدو. مدفعيتنا تصلي العدو ناراً حامية فالمدافع تدوي والبنادق تئز والهجوم بطبيعته يفتح طريقاً لذاته. هاي وكروب يبتدئان بالقذائف اليدوية فيرميانها الى ابعد ما يقدران عليه غير ان البعض من الباقين يرمون ابعد منهما. هاي يرمي القذيفة الى مسافة خمسة وسبعين يرداً اما كروب فالى مسافة ستين يرداً ومعرفة المسافة من الامور المهمة ولذلك قد قسناها. لا يقدر العدو على عمل شيء في هجومه قبل ان يصل الى نقطة تبعد عنا اربعين يرداً. نعرف الوجوه المجعدة والخوذ الملساء هولاء الجنود الفرنسيون وقد تكبدوا خسائر جمة باقترابهم الى بقايا الحواجز الشائكة وها صف كامل منهم قد سقط امام مدفعيتنا وبعدها تتوقف عن مدافعتنا مرات عديدة فيقترب العدو الينا

انظر فاذا احدهم يسقط في الاسلاك الشائكة وقد قلب وجهه كمن يسقط في سرير ثم يسقط جسده الى الارض وتبقى يداه معلقتان بالاسلاك فيظهر كمن يتضرع ويصلي وبعدها يسقط الجسم كله الى الارض وتبقى يداه حتى ارومتهما مدليتين من الاسلاك لانهما اصيبتا بالرصاص فقطعتا. وفي اللحظة التي بها نتقهقر يظهر امامنا ثلاثة وجوه وقد ارتفعت من على الارض وعلى احدها لحية سوداء مروسة وعينان يحدقان بي فارفع

يدي لارمي عليه القذيفة ولكني لا اقدر على ذلك فلو عملت لكان ذلك جنوناً مني اذ تنفجر كل قوات جهنم حولي وحول هاتين العينين الجامدتين وتصير المذبحة حولنا. ثم يرتفع هذا الراس وبعده اليدان فانظر حركة وللحال تندفع القذيفة من يدي في الهواء وتقع عليه. هذا ونبتدىء نجد في تقهقرنا الى الوراء ونرمي الاسلاك الشائكة على الخنادق والقذائف الى ورائنا وهذا ليكون تقهقرنا مقروناً بنيران حامية. الان نحن وحوش ضارية فنحن لا نحارب ولكننا ندافع عن انفسنا لنحميها من الملاشاة والفناء فها نحن لا نرمي قذائف على رجال لاننا ماذا نعرف عنهم في هذه الدقيقة والموت يطاردنا بايديه وخوذه. الان لاول مرة في ثلاثة ايام نقف امام الموت وجهاً لوجه. الان ولاول مرة ايضاً في ثلاثة ايام نقاومه فنشعر بغضب لحد الجنون. فنحن الان لا نشعر بعجز كما كنا نشعر في الايام الثلاثة التي مضت. الان نقدر ان نقتل ونخرب لنخلص نفوسنا ونثار لها

وهنا نحن نقف قليلاً وراء كل زاوية او حاجز من الاسلاك الشائكة ونترك هنالك قبل هربنا كوماً من القذائف ليدوس عليها العدو فتطير به

وها القذائف اليدوية تركت اثرها علينا ملوحة ايدينا وارجلنا ونحن نربض كالهرة ثم نركض تكتنفنا تلك العاطفة لا بل قل يغمرنا الموج الذي يدفعنا الى الهرب ويملانا توحشاً وشراسة لا بل قل يحولنا الى سفاحين قتلة لا بل شياطين لا يعرف نوعها الا الله. فهذه العاطفة وهذا الموج يضاعف قوانا لاننا خائفون مجانين متمسكون بالحياة طامعون بها لا نحارب لشيء بل لحياتنا ونجاتنا فان كان الاب بين العدو لما تاخر الابن من ان يرميه بقذيفة تقطعه ارباً ارباً.

قد تركنا الخنادق الامامية . وما هي بخنادق الان لان قذائف العدو وقنابله دمرتها وجعلتها بقايا خنادق لا بل حفرًا بينها اثار خطوات قليلة او قل فوهات براكين خامدة. اما خسائر العدو فتزداد لانهم لم يحسبوا حساب مقاومة كالمقاومة التي نقوم بها

الوقت الظهر تمامًا الان. والشمس محرقة للغاية والعرق ينصب على عيوننا فيحرقها اما نحن فنمسحه باكمامنا ولطالما نمسح الدم معه واخيرًا نصل الى خندق حالته احسن من غيره من جنسه. وللحال يحفرونه سدًا لهجوم مقاوم فننزل اليه. وها مدافعنا تستمر بقنابلها وانفجاراتها فتوقف العدو عن هجومه

وها صفوف العدو وراءنا تقف عن تقدمها لان مدفعيتنا سحقتها ونحن ننظر الى كل هذا ونتقدم الى الامام في تقهقرنا رغم النيران. بقربي وكيل قائد عشرة وقد اصيب في راسه فهو يركض مسافة قصيرة والدماء تتفجر كالينبوع من عنقه. على كل لا نحارب العدو وجهًا لوجه او يدًا ليد لان العدو ارجع على اعقابه ولكننا نصل ثانية الى خندقنا المخرب فنمر مقابله وفي رجوعنا هذا نصل الى مخبا الجند الاحتياطي ونود ان نختبىء فيه ونختفي عن العيان. ولكن عوضًا عن كل ذلك كان علينا ان ندور ونعود الى قلب النار الى ساحة الخوف ولو لم نكن قد صرنا في هذه اللحظة من الالة الذاتية التحرك لبقينا حيث نحن نيامًا منهوكين وبدون ارادة . ولكن الجنون المستولي علينا والوحشية المستحكمة فينا تدفعنا الى الامام غضابى ضعفاء نطلب القتل لانهم اعداءنا وبنادقهم وقنابلهم تسقط علينا فاذا كنا لا نفنيهم فيفنونا هم

ان الارض امامنا المغطاة بالتراب الدلغاني اللون المشققة هنا وهناك وتنعكس عنها اشعة الشمس المحرقة كل هذا انما هو وراءنا وها

نحن هذا الجمهور الكبير من الالات الذاتية نشعر بانكماش وانقباض وها تنفسنا كخرمشة الريش وشفاهنا يابسة وها الخمول والخبل يفسدان روٴوسنا ولهذا نسير الى الامام مترنحين متمايلين فتخرق الى نفوسنا اليائسة المجروحة المتعذبة صورة هذه الارض الدلغانية والمنعكسة عنها اشعة الشمس وعليها اجسام الجنود القتلى المتشنجة وبعضهم يئن ويمسك بارجلنا بينما نحن نقفز فوقهم فان هذا منظر لا يحتمل ولا يطاق بل يخرق الى اعماق النفس فيعذبها

اجل لم يبق في الواحد منا شعور لطيف وقد يستحيل علينا ضبط نفوسنا عندما يقع نظرنا على شخص اخر بينما نحن نفحص ونستقصي عمن حولنا. فها نحن بلا شعور لا بل موتى نتحرك ونركض ونقتل باعجوبة سحرية او حيلة شيطانية

يتخلف شاب افرنسي عن ارفاقه وقد احطنا به فيرفع يديه وفي احدهما مسدسه فهل قصده ان يرمينا بالرصاص او يسلم نفسه ولكن ضربة فاس تشق وجهه فيرى غيره هذا الامر ويركض هارباً فتغرز حربة في ظهره. فيقفز في الهواء رافعاً يديه فاتحاً فاه يصرخ ويستغيث ثم يتمايل ويترنح والحربة المغروزة في ظهره تهتز وترتجف. وثالث غيرهما يرى ذلك فيرمي بندقيته ويخر الى الارض ويداه تغطيان عينيه نتركه مع اسرى غيره ليحملوا المجاريح . ونتبعنا اثر العدو نصل بغتة الى صفوفه وقربنا الى العدو المنهزم امامنا يجعلنا ان نصل واياهم الى خطهم في وقت واحد تقريباً. خسائرنا في هذا قليلة وها مدفع واحد من مدافع العدو لا يزال ينبح ولكننا نلقنه قنبلة فيسكت

مع كل ذلك قد اتيح لنا في لحظتين ان نحدث خمسة جروح فها كاتزنسكي يضرب احد المدفعيين الغير مجروحين «بقندق بندقيته»

على وجهه فيخرج نخاعه من الجرح ونضرب الباقين بحرابنا قبل ان يكون لهم متسع من الوقت ليقذفوا قنابلهم وبعد هذا نشرب المياه التي اعدوها لتبريد مدافعهم

وها الذين يتقدموننا لتقطيع الاسلاك الشائكة منتشرون في كل مكان ويرمون على الحواجز الواحاً وصفائح لتكسيرها فنقفز نحن في الممرات الضيقة التي يفتحونها لنا الى الخنادق. وهاي يضرب معوله فيسقط على رجل افرنسي كبير الجثة ثم يرمي قذيفة من يده وللحال نختبىء نحن ثانيتين وراء مخبا فيهما يفرغ بقايا الخندق امامنا من كل شيء والقذيفة الثانية تقع منحرفة على زاوية فتفتح لنا طريقاً فنهجم ويهجومنا نرمي بالقذائف الى الخنادق فتهتز الارض وتتشقق ويتصاعد منها دخان وانين ولطالما نقع على قطع من اللحم زلقة وعلى اجسام لينة تحت اقدامنا اما انا فاسقط في جوف جثة عليها قبعة ضابط نظيفة

يتوقف الحرب ونفترق عن العدو وعلينا ان نتقهقر الى مخيماتنا تحمينا مدافعنا لانه لا يمكنا البقاء هنا. وحالما نعرف هذا نهجم على الخنادق القريبة ونسلب بكل سرعة ما تصل اليه ايدينا من المؤونة وبالاخص علب اللحم والزبدة. فنعود بوضعية حسنة للغاية فالعدو لا يهجم ثانية فنرتمي على الارض نلهث مدة ساعة كاملة. ان هذه الالعوبة قد انهكت قوانا فننسى امر المؤونة التي سلبناها رغم كوننا في حالة الجوع الشديد وبهذا نصير تدريجياً بشراً كما كنا سابقاً.

علب اللحم عند العدو مشهورة على طول الخط ومراراً كثيرة كانت هذه العلب سبب غزواتنا على العدو ومفاجآت مستعجلة. ما نعطاه للاكل قليل وغير لذيذ ولهذا فينا شعور دائم بالجوع

نحمل معنا خمس علب . ان زملاءنا في صفوف العدو ينتبه اليهم

من قبيل المؤونة والطعام انتباهاً جيداً بينما نحن الاشقياء نكتفي بما يقدم لنا من مربى الجزر واللفت وهم لهم كل ما يطلبونه من اللحم. هاي التقط رغيفاً من الخبز الافرنسي الابيض على زاوية منه دم صاحبه وهذا امر بسيط فيمكننا قطع هذه الزاوية ورميها

ما ابهج هذه الساعة ولنا فيها اشياء لذيذة للاكل. وهذا مما يؤكد لنا انه لا تزال فينا قوة يمكننا استخدامها في هذه المهمة. الكفاف في اكلنا مهم لنا كالخنادق لان الاثنين يخلصاننا من الموت ولهذا السبب نشجع الى الطعام و نحارب لاجله. اما تجادن فقد استولى على زجاجتين كبيرتين مملوئتين بالكونياك نتناوب الشرب منهما

.....

الوقت الان المساء فتبتدىء صلواته وما هي الا الضباب المتصاعد من الفوهات المفتوحة كان هذه الحفائر مملوءة من الارواح المقنعة والاسرار الغير مدركة. وها الضباب الابيض يدب على الارض. قبل ان تجرا على الارتفاع وبعدها يمتد خط طويل منها من الفوهة الواحدة الى الاخرى برد قارص. وانا نوبتجي فاحدق في الظلام وها انا بعد كل معركة منهوك القوى فيصعب ان ابقى لوحدي مفتكراً وما هذه افكار بل هي تذكارات تخيفني لضعفي وتذيبني.

تصعد انوار سهم اخر في الجو فاخال نفسي انني لوحدي في رواق في دير منفرد وان الوقت صيف ومن حولي شجيرات الورد مكسوة بثوبها الوردي الجميل اللون وبينها قبور الرهبان. ثم اخال ان على حيطان الدير حجارة محفوراً عليها درجات الصلب كلها. كل هذا والسكون مخيم على كل ما في هذه البقعة المغطاة بالزهور الجميلة لا برد فيها بل هي حارة عكس المنتظر لوقوع اشعة الشمس عليها ثم

اخال ان كتدرائية الدير مغطاة بالعشب الاخضر ومن عن يمينها قائم برجها. ثم اخال ان الظلام سائد في اروقة الدير. ولكني لا اشعر بخوف منه وهذا قلما يكون في الكنائس . اخال نفسي انني في وسط هذه البقعة الجميلة الفتانة افتكر اني ابن عشرين تاسرني عواطف الحب وتسبيني لواعج الغرام . ان هذه الصورة قريبة مني جداً فاني اكاد المسها ولكن سرعان ما تضمحل اذ يرتفع سهم اخر. امسك بندقيتي لافحصها لارى هل هي بحالة جيدة للاستعمال فاجد الجزء المخصوص للرصاص مرطباً فامسحه باصبعي

بين المروج وراء بلدي صف من شجر الحور نامية على جدول من الماء. وكنا نراها من مسافة بعيدة ومع ان هذه الاشجار على شاطىء واحد من الجدول كنا ندعو المكان شارع الحور. كنا نحب هذه البقعة حباً جماً رغم صغرنا في السن ولطالما كانت تجذبنا اليها ونحن لا ندري فكنا نلعب تحت الاشجار النهار بطوله متراخين متكاسلين نسمع حفيفها وكنا نجلس على شاطىء الجدول ونرمي بارجلنا في مياهه المسرعة تلاعبها وتلاطمها وكانت رائحة المياه العطرية الجارية وانغام حفيف الاشجار الشجية تذهلنا وتسلب لبنا. اننا نحب هذه الحالات حباً جماً ولذلك ذكرى تلك الايام توقف قلبي عن نبضه

ومن الغريب ان الذكريات كلها في حالتي الحاضرة لها مزيتان الاولى انها هادئة كل الهدو غير مضطربة حتى انه اذا كان فيها ما يعكر هذا الهدو فحالاً تصير هادئة. هذه حالة ظاهرة كل الظهور والثانية انها خيالات صامتة ومع هذا تكلمني ساكتة بالفاظ وحركات ونظرات خاصة بها وخوفي من سكوتها يدفعني لاعود وامسك بندقيتي لئلا تنسيني تصوراتي وتخيلاتي هذه نفسي وبهذا يتحول جسدي تدريجاً

الى القوى التي وراء تخيلاتي هذه

اراها هادئة ساكنة لانه لا يمكننا في الساحة الحربية الوصول الى الهدو والسكينة وها الشتائم واللعنات في الجبهة ترتفع وتمتد الى مسافة يتعذر علينا قطعها حتى اننا نسمع دوي القنابل وضجيج المعارك ونحن في اقصى الثكنات وابعد المحلات المعدة لراحة الجنود. فلا يمكن ان يكون محل لا تسمع فيه اصوات الحرب. غير ان الحالة في هذه الايام المتاخرة كانت لا تحتمل

ان هدو هذه الذكريات ذكريات الايام السالفة هو سبب عدم تحريكها فينا الميل الى الحزن او السويداء. كان لنا هذا الميل اما الان فودعناه الى الابد. وما هذه الميول الان الا ملك عالم غير عالمنا كنا فيه وودعناه. لما كنا في الثكنات العسكرية ثارت فينا هذه الميول ثورتها تطلب حق ملكيتها علينا وكانت لا تزال مرتبطة بنا فكنا لها وكانت لنا ومع اننا كنا ساعتئذ بعيدين عنها. وكانت هذه الميول تظهر في اغاني الجند التي كنا نتغنى بها عند ذهابنا في الفجر الى المروج وبين الاحراش للتمارين العسكرية. فهذه كلها كانت تذكارات قوية فينا ولكنها ابتعدت عنا وها نحن في الخنادق قد خسرناها وما هي لنا الان الا ذكريات عجيبة وخيالات مقنعة تظهر لنا من وراء الافق فتخيفنا فها نحن الان نحب ونميل ونخاف ولكننا بلا رجاء. ان هذه التذكارات لقوية جداً وميولنا قوية ايضاً ولكنه لا يمكننا الحصول على ما نتمناه واننا نعرف هذه الحقيقة

وعلى فرض عادت لنا ايامنا السالفة فلا نعرف الان كيف يجب ان نتصرف كما كنا نتصرف فيها فان ذلك التاثير السري تاثير اللطف الذي كنا نتمتع به فيها لا يمكن ان يبعث حياً الان. قد يمكن ان نعود

الى تلك الايام ونسير فيها ونتحرك فيها ونحبها ويهزنا ما نتذكره فيها ولكن كل هذا انما مثله مثل نظرنا الى صورة رفيقنا المائت. فها وجهه وها جسده والوجه والجسد انما يهيجان فينا الذكريات الطيبة التي قضيناها معه فنحزن ولكن كل هذا انما هو الصورة وليس الانسان نفسه . لا يمكن ان نعود نتآلف مع مشاهد الايام السالفة . لم يجذبنا اليها في الماضي جمالها الفتان وروائعها الجذابة انما الصقنا بها شعورنا المشترك ورفقتنا للحوادث والاشياء التي كانت تجري ايام وجودنا وهذه هي التي قطعت علينا خط الرجعة وجعلت عالم ابائنا واجدادنا عالماً لا يمكننا فهمه . ففي تلك الايام كانت اقل الحوادث كافية لتثير فينا الحماس ونسير فيها الى اللانهاية وذلك لاننا في تلك الايام امتزجت ارواحنا واجسادنا ونفوسنا بالماجريات اليومية التي كانت تحيط بنا ولربما كان ذلك كذلك لحداثتنا ولكن كيفما كان الامر لم نعرف لعلاقتنا بالمجاريات اليومية حداً لانه كان يسير في دمائنا وجوارحنا هزة الامل الذي كان يربطنا بكلما كان يجري حولنا. اما اليوم فقد نمر بهذه المشاهد كلها مرور المسافرين السائحين فقد طلبت قلوبنا الحقائق القاسية الجافة. ومثلنا مثل التاجر الذي يعرف الامور ولكنه كالقصاب «الحاجة اولا» . اجل اننا لا نزال نضطرب ولكننا الان عديمو الاكتراث مهملون. قد نوجد في حالة كالحالات التي مضت ولكننا لن نعرف كيف نعيش فيها. فها نحن الان مهملون لا نصير لنا ولكننا ذوو اختبار كالشيوخ فهـا نحن الان غير ناضجين سطحيون مملوؤون حزناً وياساً وبالاختصار اني اعتقد اننا قد دثرت معالمنا وصرنا في عالم الفناء

.....

مع ان الليل حار لكن يدي باردتان وجسدي يرتجف من البرد وما في الليل بارد سوى الضباب هذا الضباب العجيب الذي يمر فوق اجسام القتلى ويخطف منها البقية الباقية فيها من الانفاس وفي الصباح كلهم صفر وخضر تجمدت دماؤهم واسودت

لا تزال الاسهم الوضاءة تشق كبد السماء وترمي نورها القاسي الجاف على تلك الارض الصخرية التي تشبه القمر بامتلائها بالفوهات البركانية والانوار المتحدة. وها الدم الذي يجري في عروقي يجري فيه الى افكاري خوف واضطراب فتضعف هذه الافكار وترتجف لانها تحتاج الى حياة والى حرارتها. فلا يمكن ان تثابر هذه الافكار على كيانها بدون شيء يعزيها ويسليها وبدون ظواهر مبهجة ولو كانت هذه كاذبة خداعة فها افكاري هذه قد اضمحلت امام صورة الياس والقنوط العاريين الظاهرين كل الظهور

وها الان اسمع قرقعة الصحون وجعجعة الاكلين فتتهيج في الشهوة للطعام السخن فهذا امر يشجعني الان وياتيني بنفع جسيم ولكنني اصبر على الامر متالماً حتى تنتهي نوبتي وياتي من يريحني من واجباتها. وعنده اذهب الى حفرة فاجد فيها قصعة مملوءة من شعير مطبوخ بالدهن لذيذ الطعم فاكله على مهل وابقى صامتاً ساكتاً بينما الباقون في هرج ومرج لان المدافع قد صمتت والقنابل قد وقف وابلها

.....

تمر الايام سراعاً والساعات التي لا نصدق وجودها تنقضي الواحدة تلو الاخرى كامر لا بد منه وها يعقب الهجوم هجوم مضاد وبالتدريج يسقط القتلى الواحد بعد الاخر كوماً كوماً في الساحة وبين الخنادق والفوهات البركانية. وبامكاننا ان ناتي بالكثيرين من الجرحى

القريبين ولكن على كثيرين منهم ان ينتظروا نوباتهم وها نحن نسمعهم يئنون انين الموت. وقد طلبنا احدهم في الساحة مدة يومين بدون جدوى فالظاهر انه سقط على بطنه ويصعب عليه ان يقلب والا فلماذا لا نجده. وبالاختبار نعرف انه اذا كان فم الساقط للارض يصعب علينا معرفة الجهة التي يجيئنا منها الصوت. والظاهر ان جروحه ثخينة جداً ويظهر انه يتالم من جرح خبيث ليس بالبالغ لينهك قواه فينطرح على الارض نصف مغشي عليه وليس بالخفيف ليقدر ان يتحمل الامه ويامل الشفاء منه. وكاتزنسكي يظن انه اما اصيب في الحوض فوق وركه او في السلسلة الفقرية وان لا اصابة البتة في صدره والا لما كان يقدر على الصراخ. ولو كان مجروحاً في غير هذين الموضعين لكان يتحرك فنراه. وها الصوت يزداد تدريجاً وقد ارتفع حتى صرنا نسمعه من كل مكان وفي كل مكان. وفي الليلة الاولى يخرج بعضنا ثلاث مرات مفتشين عنه ولكن يعودون بخفي حنين وفي كل مرة يظنون انهم اهتدوا اليه ويذهبون الى الجهة التي يسمعون الصوت منها ثم يعودون فيسمعون الصوت قادماً من جهة معاكسة. ها نحن نفتش عبثاً حتى الفجر وكل النهار وننظر الى الساحة فاحصين مدققين مستعينين بالنظارات (التلسكوب) ولكننا لا نهتدي الى شيء. وفي اليوم التالي يضعف صوته ولعل ذلك لان حلقه وشفتيه قد تيبست. يعدنا قائدنا انه يمدد اجازة من يجد هذا الجريح ثلاثة ايام عندما تجيء نوبته للاجازة وان هذا لاجر عظيم فنبذل قصارى جهدنا غير ان اجتهادنا هذا ليس طمعاً بوعد القائد بل لان صوت المجروح مزعج مخيف. وها كاتزنسكي وكروب يخرجان بعد الظهر مفتشين ولكنهما يعودان بدونه. والبرت يسد اذنيه هرباً من سماع صوت الرجل ولكنه لا ينتفع شيئاً. اننا نفهم معنى صراخه بسهولة ففي اليوم

الاول كان يطلب نجدة ثم استولى عليه الهذيان فكان يتكلم مع اولاده وزوجته ومرارا سمعناه يقول «اليس» اما اليوم فهو يبكي فقط. وعند المساء ينحط الصوت فيصير نقيقاً. ويستمر على هذه الحالة كل الليل واننا نسمعه بوضوح تام لان الريح تهب في جهة صفوفنا . وفي الصباح التالي نسمع منه الحشرجة الاخيرة وكلنا نظن انه قضي عليه فسار الى راحة اللانهاية

الهواء حار والايام محرقة والقتلى على الارض غير مدفونين. ولا نقدر ان ناتي بالكل الى مخيماتنا لاننا لا نعرف كيف يمكن دفن هذا العدد الوافر فنتركهم حتى تدفنهم المدافع والقنابل وها بطون الكثيرين منهم قد تنفخت كالبالونات. فالاجسام تهس وتتدشى وتخرج برازا والغازات تحدث اصواتاً مختلفة متباينة

الجو ازرق ولا غيوم فيه. وفي المساء يشتد الحر ويثقل الهواء ويحتبس وعند هبوب الريح نحونا تحمل الينا رائحة الدماء تلك الرائحة المكروهة الثقيلة. فهذا التبخر المميت الخارج من الحفر التي حفرتها القنابل يظهر بانه مزيج من الكلروفورم والعفونة. وهذه تملاء نفوسنا غثياناً وكراهة فنتقيأ

الليالي هادئة وها نحن نخرج الى الساحة طالبين المهابط الحريرية والاربطة النحاسية التي كانت تسقط علينا مع القنابل الافرنسية . لا احد منا يعرف لماذا كلنا نحب الاربطة النحاسية فها بعضنا قد جمع منها حملاً ينوء تحت ثقله وبعد اجهاد فكرتنا لمعرفة سبب ميلنا الى جمعها يقول هاي «اجمعها لاعطيها الى معشوقتي بدلاً من ربطات كلساتها» ولا ينهي قوله هذا حتى يقهقه الحاضرون كلهم فرحين ويضربون على ركبهم قائلين «قسماً ان هاي سريع الخاطر حاضر النكتة»

وبالاخص تجادن لا يقدر ان يتمالك من الضحك فياخذ حلقة كبيرة منها ويضعها في رجله فيظهر صغر رجله بالنسبة اليها ثم ينظر الى هاي ويقول «اي يا هاي الظاهر ان سيقان معشوقتك اكبر من «سيقان الفيل». اما هاي فتبرق اسرته فخراً لان معشوقته نالت كل هذا الاستحسان فيقول «انها شقفة على خاطركم»

اننا نستخدم قماش المهابط الحريرية لامور نافعة جداً فثلاثة منها تكفي لصنع قميص اما كروب واننا فنستخدمها كمناديل والباقون يرسلونها الى بيوتهم. ولو امكن النساء اللواتي يتمتعن بها ان يرين المخاطر التي تكتنفنا للحصول عليها لشابت شعورهن من الخوف وجمد الدم في عروقهن . كاتزنسكي يجد تجادن يجرب بكل رزانة وتان وبكل قواه ان ينزع احدى الاربطة النحاسية عن قنبلة. فلو كان غيره يفعل ذلك لانفجرت القنبلة ولكن حسن حظ تجادن يرافقه في كل لحظة

فراشتان تلعبان في احد الاصباح امام خندقنا. وهما من الفراش الكبريتي اي له نقط حمراء على اجنحته الصفراء. ماذا تطلب هاتان الفراشتان هنا ؟ فلا عشب او زهر في هذه البقعة وهذه تبعد عنا مسافة اميال عديدة. غير انهما تقعان على اسنان جمجمة. فها العصافير قد اعتادت الحرب فلا تحفل به. وفي كل صباح نسمع القبرات تغني وتطير في ارض لا يملكها بشر. وفي السنة الفائتة رايناها تبني عشوشها ثم راينا صغارها قد كبرت

يهجم علينا في الخندق جيش من الجرذان وهذه ايضاً قد جاءت من ارض لا يملكها بشر وكلنا يعرف سبب مجيئها. الجرذان قد سمنت وعندما نرى احدها نرميه بما لدينا فنقتله. وفي الليل نعود نسمع حركة النقل والتنقل وراء صفوف العدو غير انه في النهار تسقط علينا

قنابله بحالة طبيعية يمكننا معها ان نصلح ما تخربه من الخنادق و بهذا نجد ان لدينا امورًا كثيرة للتسلية وان نقص منها شيء فيسد الطيارون الفراغ الذي احدثه هذا النقص وعليه ننظر كل يوم الى مواقع لا تعد ولا تحصى

ان الطيارات الحربية لا تخيفنا ولكننا نكره طيارات الاستكشاف كرهنا للطاعون لانها تدل العدو الى مقرنا فبعد ذهابها عنا بدقائق قليلة تنفجر علينا المفرقعات و تصب علينا جامات غضب المدافع. فنخسر في يوم واحد احد عشر جنديًا بينهم خمسة من حاملي الجرحى اثنان منهم طحنا طحنًا و تجادن يقول انه بالامكان جمعهما بملعقة من عن حيطان الخندق ودفنهما في قصعة الجندي . واخر قد انتزع منه نصفه الاسفل وها هو في الخندق ميت يسند صدره الى حائط الخندق وجهه اصفر كالليمون وفي فيه سيكارة لا تزال مشتعلة وهذه تموت ايضًا وهي في شفتيه. فنضع هذا الميت في حفرة حفرتها القنابل. وهو الطبقة الثالثة من نوعه في هذه الحفرة

بغتة تعود القنابل تصب علينا ونعود نحن الى تلك الحالة حالة الشدة والتعلق بالهواء مع جهل ما سيحدث. هجوم وهجوم مضاد. اصلاء النيران والتقهقر كل هذه كلمات ولكن الى ماذا تشير كل هذه. قد خسرنا عددًا عديدًا من الرجال ومعظمهم من الجنود الحديثين قد ارسلوا لنا امدادًا عسكريًا والفرقة هذه كلها جديدة مؤلفة من شبان سيقوا الينا راسًا من بيوتهم دون ان يمرنوهم فها هم بيننا بدون سابق اختبار عن الحالة او الحالات التي يقودونهم اليها في ساحة الحرب. اجل ان لهم شيئًا واحدًا من المعرفة النظرية. فها هم يعرفون ما هي القذائف اليدوية ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن كيفية الغطاء وان اهم ما فيه

ان لا فتحة فيه للعينين وان الزريبة المحفورة في الارض التي تختبىء فيها يجب ان لا يقل عمقها عن يرد و نصف قبل ان يقدر احد على رويتها. وبالرغم عن كوننا بحاجة الى امداد عسكري نجد ان الجنود الحديثين الذين سيقوا الينا يسببون لنا اتعاباً واهتمامات تفوق جداً الامداد الذي نتوخاه منهم . فهم ضعفاء لا حول لهم ولا مراس في ساحة الحرب بل تراهم يسقطون فيها كالذباب. ان علم الخنادق الحديث يتطلب اختباراً ومعرفة وعلى المرء ان يكون شاعراً بتدوير الارض وان تكون له اذنان يسمع بهما اصوات القنابل فيعرف انواعها وعليه ان يكون حاضر الذهن ليعرف قبل سقوط القنابل مكان سقوطها وكيفية انفجارها وكيفية اختبائه منها. وبدون شك الجنود الحديثون لا يعرفون شيئاً من كل هذه الامور وغالباً ما يقتلون لانهم لا يفرقون بين القنابل المحشوة والمفرقعات الضخمة . ولطالما تحصدهم قنابل المدافع لانهم يؤخذون بالقرقعات والمفرقعات التي تسقط في المؤخرة بعيدة عنهم ولا ينتبهون الى صوت تلك التي تسير بينهم فتقطعهم كما يقطع المنجل ازهار المروج ذلك لان صوت الاولى قوي وصوت هذه خفيف يكاد لا يسمع. وها هم يتجمعون عند اطلاق المدافع كالغنم حتى ان الطيارات تصيب الجرحى منهم برصاصها والاحرى بهم ان يتفرقوا

يجيء هولاء الى الساحة بوجوه صفراء جزرية اللون وايد ممسكة بعضها ببعض . شجاعتهم بالحق شجاعة الخوف والياس فلطالما يكون هجوم هولاء العفاريت الصغار التاعسين هجوم القانط وها هم من شدة خوفهم لا يجراون على الكلام والصراخ بل يهمسون الواحد للاخر متمنين ان يكونوا بقرب امهاتهم واذا نظر اليهم احد اخفوا الهمس وظهرت صدورهم المنتلمة وبطونهم وارجلهم وايديهم المشققة

المجروحة . وتظهر على وجوههم التي لم يعلوها موسى بعد المظاهر المحزنة التي تظهر على وجوه الاولاد المائتين. ان منظر هولاء يهجمون ويركضون ويسقطون لمن المناظر التي تملأ العيون دموعاً والصدور غصات وانات ويخال لمن يراهم ان يهجم عليهم ويصفعهم لتدخلهم بما لا يعنيهم كما يصفع الاب ابنه ثم يمسكه بيده ويخرجه من حيث هو لان لا دخل له هنالك . عليهم سترات رمادية وبناطلين واحذية عسكرية ولكن من ينظر اليهم يرى ان اجسادهم تضيع في هذه البدلات الكبيرة فما هم الا «علاقات» لها . اكتافهم اضيق من السترات واجسادهم ادق من البناطلين والبدلات العسكرية لا تخاط للاولاد والاطفال.

يجندل منهم عشرة او خمسة عشر كلما تجندل جندي خبير قديم. والمفاجاة بالسموم الغازية تحمل الكثيرين منهم الى عالم الابدية لانهم حتى الساعة لا يعرفون كيف يتصرفون وقت انتشار الغازات. وقد وجدنا حفرة مملوءة بعدد كبير منهم ووجوه الكل زرقاء وشفاههم سوداء. وغيرهم في حفرة قنبلية قد نزعوا عنهم براقعهم قبل الاجل المناسب لانهم لا يعرفون ان الغازات تطيل اقامتها في الحفر والخنادق اكثر منها في المنفرجات والمسطحات وما عملهم هذا الا لانهم راوا من هم في المنفرجات قد نزعوا براقعهم والنتيجة التي لا بد منها في هذه الحال دخول السم الزعاف الى رئاتهم واحتراقها. وهم بحالة لا رجاء لهم بها نزيف دم واختناق وموت

.....

انا وهملستوس معاً في قسم من الخندق ننزل فيه مقطوعي النفس ونبقى هناك ننتظر الاوامر للهجوم التالي . وعندما نخرج من الخندق

مسرعين اعود افتكر بهملستوس رغم تهيجي وحماسي وانظر اليه فلا اراه فاعود الى الخندق واراه وعلى جسمه خدش صغير مضطجعاً عابساً حرداً يدعي انه اصيب بجراح بالغة وها هو في حيرة وارتباك كل هذا لانه في ساحة الحرب من عهد حديث. غير انني اجن عندما ارى الصغار يكافحون في الحرب وهو مختبىء هنا فابصق عليه واقول «اخس اخرج من هنا» فلا يتحرك بل ترتجف شفتاه ويهتز شارباه فاعيد عليه الكرة صارخاً به «اخرج» فيسحب قوائمه ثم يرتمي مستنداً على الحائط ويكشر عن انيابه كالكلب المتالم. فامسكه بذراعه واجره ليخرج فينبح ويعوي. ان هذا ما لا يمكنني احتماله فامسك بعنقه واهزه كما اهز كيساً مملوءاً فيتحرك راسه من جهة الى جهة فاعود واصرخ به «يا نذل يا وغد يا لئيم يا كلب اخرج. قل الا تريد الخروج». انظر اليه واذا عيناه جامدتان كالزجاج فاعود الى ما عندي من القوة والمفردات واضرب براسه عرض الحائط ثم البطه على اضلاعه وادفعه الى الباب وارميه الى خارج قائلاً له عند كل حركة من هذه «يا هر يا نذل. يا سقط». وبينما نحن في هذا العراك تمر بنا موجة اخرى من موجاتنا الهاجمة على العدو بين افرادها ملازم فهذا يصيح بنا «الى الامام الى الامام اهجموا». فكلمات الآمر في الجندية لافعل جداً من كل الالفاظ التي صبتها على هملستوس وكل الدفعات والضربات التي تمرنت بها عليه. فهملستوس يستيقظ للحال عند سماعه الامر وينظر الى اليمين والشمال ويسير الى الامام اما انا فاتبعه وانظر اليه سائراً الى الامام. وها هو مرة اخرى هملستوس العارف والحاذق بالمشي العسكري ويسرع لدرجة سبق بها الملازم نفسه.

الغام ومدافع وقذائف يدوية ودبابات وغازات سامة وشآبيب القنابل

كل هذه كلمات يتلفظ بها العالم ولكنها بالحقيقة سخط وغضب وخوف ورعب لا بل جهنم ونيران

وجوهنا مقشورة . افكارنا مشتتة . نموت تعباً كل هذا وعلينا عند صدور الامر للهجوم ان نضرب كثيرين بايدينا ليقوموا ويشتركوا معنا في الحرب. عيوننا احرقتها الشمس . ايدينا مشققة . ركبنا يسيل منها الدم. اكواعنا نزع عنها اللحم. نحسب ان هذه حالتنا منذ اسابيع وشهور لا بل سنين والحقيقة نحن في هذه الحالة منذ ايام قليلة. وجوه الموتى التي لا لون لها هي روزنامتنا ومنها نعرف مرور الوقت. وفي كل هذه المدة نلتهم الاكل ونركض ونرمي القنابل ونصوب بنادقنا ونقتل ونرتمي على الارض ضعفاء تعابى لا معين لنا سوى المعرفة ان هنالك من هم اضعف منا واشد تعباً لا يقوون على شيء. اولئك الجنود الحديثين الذين ينظرون الينا نظرهم الى الالهة لاننا قدرنا ان ننجو مرات عديدة من هذا الغضب والموت الزؤام

وفي ساعات الراحة نعلمهم قائلين «انظروا الى ذلك الراس المتمايل . هو قنبلة مدفع قصير. فهذه يمكن ان تمر فوقكم دون ان تؤذيكم فعليكم ان تنخفضوا امامها وتنحنوا الى الارض. ولكن اذا رايتموها ستاخذكم بطريقها فاهربوا منها وما اسهل الهرب من قنابل المدافع القصيرة»

ثم نشحذ اذانهم ليسمعوا همس القنابل الصغيرة الخبيثة تلك التي ازيزها يكاد لا يسمع وعليهم ان يسمعوا هذا الصوت الخفيف بين اصوات المفرقعات ودوي المتفجرات ويفرقوا صوتها بانه كدندنة الحشرات. ثم نخبرهم مسهبين ان هذه الدندنة والقنابل الصغيرة لاشد خطراً من الكبيرة اذ يمكن سماع دويها قبل سقوطها بزمن طويل

ثم نريهم كيف يختبئون من رصاص الطيارات وكيف عليهم ان يرتموا على الارض مقلدين الموتى اذا اغلق عليهم العدو في الهجوم. وكيف يعدلون وقت القذائف اليدوية لتنفجر قبل وصولها الى الارض بلحظة. ثم نعلمهم كيف يرتمون في الحفر بسرعة البرق عندما تنقذف عليهم القنابل التي تنفجر بلحظة

ثم نريهم كيف يقتلون كل من في الخندق بقذائف قليلة ثم نوضح لهم الفرق بين طول انفجار قنابل العدو وطول انفجار قنابلنا. ثم نحذرهم من صوت قنابل الغازات السامة وبالاختصار نريهم كل الحيل التي تنجيهم من الموت. وبينما نحن نلقي عليهم هذه الدروس نراهم باصغاء تام يستوعبون كل كلمة ولكنهم عندما يعودون الى ساحة الحرب يقومون بكل شيء عكس ما علمناهم

هاي وستوس يجر نفسه ويخرج من ساحة المعركة لجرح بالغ في ظهره يجعل رئتيه تنتفضان عند كل تنفس اما انا فلا اقدر ان امسك بيده واضغط عليها فيقول لي متنهداً «قضي الامر» ثم يعض يده من شدة الالم

فها نحن الان نرى رجالاً احياء مع ان جماجم رؤوسهم مكسرة. ونرى جنوداً تركض مع ان ارجلها مقطعة وها هم يتمايلون متسندين على اروماتهم حتى يصلوا الى اقرب حفرة حفرتها لهم قنابل العدو وها وكيل اونباشي يجر نفسه على يديه مسافة ميل ونصف ساحباً وراءه ركبتيه المطحونتين. وغيره يسير الى غرفة التضميد ماسكاً بيديه امعاءه. نرى رجالاً بدون افواه او وجوه. وها جندي قد عض على الوريد في يده ساعتين خوفاً من ان ينزف منها الدم فيموت. تغرب الشمس ويسدل الليل حجابه ولا تزال القنابل «تنعوص» والحياة تقارب

النهاية. ولكننا لا نزال مستولين على هذه البقعة الدائمة الارتجاج والاهتزاز . اجل تخلينا عن بضع مئات من اليردات منها جائزة لبسالة العدو ولكن على كل يرد منها جندي مضرج بدمائه مائت

تسير بنا العجلات ونحن واقفون براحة بلداء نحني ركبنا عندما يصدر الامر ان نحذر من الاسلاك فوقنا. جئنا الى ساحة الحرب في الصيف عندما كانت الاشجار في حلتها الخضراء اما الان فلا ورق عليها لانه قد جاء الخريف والليالي باردة مظلمة. تصل اللوريات وتقف فنخرج منها بقايا مشوشة وفضلات اسماء عديدة وعلى الجانبين اناس ينادون الفرق والفيالق باعدادها. وعند كل مناداة تفرز جماعة قليلة وما هي هذه الجماعة سوى بقية من الجنود صفر الوجوه تعلوهم القذارة بقية التعاسة والبؤس

الان احدهم ينادي بلوكنا بعدده. اجل هو قائد البلوك وقد جاء ويده معلقة في عنقه. فنسير اليه وانا ارى كاتزنسكي والبرت فاسير اليهما ونستند الواحد الى الاخر. ثم نسمع المناداة لبلوكنا بعدده تتكرر. دع المنادي ان ينادي طول حياته فكيف يسمعونه وهم اما في المستشفيات جرحى او في حفر القنابل موتى . ثم تعود المناداة «ليسر البلوك الثاني الى هذه الجهة». ثم ينخفض الصوت ونسمع القول «هل هذا البلوك الثاني كله». فيصمت المنادي ثم يقول ببحة «هل انتم الكل» . وبعده يصدر امره ان نبتدىء بالعد.

عندما جئنا الى هذا المكان في الصيف كنا مئة وخمسين جندياً. اما الان فالطقس بارد مصقع لاننا في فصل الخريف. نبتدىء نعد باصوات تخنقها العبرات تخرج منا نحن التعابى فنقول «واحد ـ اثنان ـ ثلاثة ـ اربعة» ونستمر بالعد حتى نقف عند اثنين وثلاثين. وبعد سكوت

طويل يخرج صوت القائد «اهذا الكل» وينتظر ثم يقول بلطف وتؤدة «سيروا بالصف» وبعدها يبتعد عنا وبالجهد يقدر ان يتم هذا الواجب ويامرنا بكل صعوبة «سيروا على مهل» وها الان صف قصير جداً يسير في الصباح. ما هو سوى اثنين وثلاثين جندياً

الفصل السابع

لقد ارجعونا الى احدى الثكنات في الساحة الحربية وهي تبعد عنها اكثر من المعتاد وارجاعنا هذا لاعادة تنظيمنا اذ بلوكنا يحتاج الى امداد عسكري لا يقل عن مئة جندي

وفي غضون هذا الوقت لا واجب علينا البتة نتراخى ونتكاسل. بعد يومين يجيء الينا هملستوس وها الخنادق وما قاساه فيها قد نزعت عنه كبرياءه وانتفاخه وها هو الان يهتم ان يسوي الامور معنا . انا اميل جداً لتسوية الامور معه لاني رايته بام العين يحمل هاي وستوس عندما اصيب بظهره. وزد على ذلك فهو كريم مضياف عندما نكون في الكنتين ولا دراهم معنا . اما تجادن فلا يزال محتفظاً بحقده عليه ومرتاباً بحسن نواياه. غير انه يصف معنا عندما يسمع هملستوس يقول بانه تعين موضع ضابط الطباخين لغيابه باجازة. ولاثبات قوله هذا ياتينا بكيلو سكر ويجلب الى تجادن خصوصاً ربع كيلو من الزبدة. وعلاوة على ذلك يهتم بان تلقى علينا في الايام القليلة التالية واجبات تقشير البطاطا واللفت في المطبخ وهناك يعطينا نصيباً مما يطبخونه للضباط

فنتمتع الان ولو الى وقت قصير بالامرين المهمين لسرور كل جندي طعام لذيذ وراحة هنيئة . من يفكر بهذا لا يجده بالشيء المهم وقد كنا نانف منذ سنتين ان نقوم بهذه الاعمال واما الان فنسر بالامر جداً وما ذلك الا لتملك العادة علينا. فكل شيء في الجندية عادة حتى الحرب في الجبهة عادة. والعادة هي سبب نسياننا امورنا بسرعة. بالامس كنا تحت النيران نحارب واليوم نسير في القرى كسالى نعيث فساداً وغداً نعود الى الخنادق. وعند الحقيقة فلا ننسى شيئاً ولكن لما كان علينا ان نقضي في الجبهة وفي ساحة الحرب اياماً صعاباً علينا ان نتناساها عند مرورها وهي اذا مضت تغرق في الماضي كما يغرق الحجر في البحر ولانها ايام صعبة ومفعمة من الحزن والالم يصعب علينا ان نذكرها بسهولة ولو كنا نذكرها او نتذكرها لافتنا ذكراها من امد بعيد . وبالاختبار وجدت ان الانسان يقدر ان يحتمل الخوف والرعب ما زال في امكانه الاختباء منهما ولكنه لو جلس واخذ يفتكر بهما لقتلاه

في ساحة الحرب نحن وحوش ضارية وهذا ما ينجينا من مخاطرها وفي اوقات الراحة قوم كسالى ثرثارون خاملون ولا نقدر ان ناتي بعمل اخر وما نجريه انما هو من الحاجات الماسة الضرورية لاننا نود ان نبقى في قيد الحياة مهما كلفنا الامر ولهذا لا يمكننا ان نحمل انفسنا احمالاً من الشعور والاحساس مما لا طائل تحته الامر الذي قد يكون فضيلة في وقت السلم ولكن لا محل له في ساحة الحرب وبين الجنود المحاربين

كمريخ مات. هاي وستوس على فراش الموت. هانس كرايمر سيحير الملائكة في اليوم الاخير لجمع جسده الذي تناثر في الحرب. مارتنس بدون رجلين. مايرمات . ماكس قتل. بايرفطس. همرلن

تلف وها الان مئة وعشرون جندي جرحى في المستشفيات. فهذا امر ممقوت مسخوط عليه ولكن كل هذا لا يعنينا فنحن في قيد الحياة. لو كان باستطاعتنا انقاذهم لظهر انئذ مقدار اهتمامنا بالامر. كان بالامكان ان نصاب مثلهم رغم كل احتياطنا. وبامكاننا ان نكون مغامرين مخاطرين ساعة نريد لاننا لا نعرف للخوف معنى ولكن المسالة الان مسالة موت وهذا نخاف منه. البون شاسع بين الخوف الاول والرعب من الموت الاول ليس سوى انفعال جسدي

ارفاقنا موتى وهذا امر ليس باستطاعتنا رده ومن يدري ما تخبئه لنا الايام فاننا الان نحشو اجوافنا اكلاً ونشرب ونسر وننام وندخن سيكاراتنا ونعيش براحة قدر ما يسمح لنا الزمن ونفعل كل هذا كي لا نضيع الاوقات سدى فالحياة قصيرة

الرعب الذي يتولانا عندما نكون في الجبهة يولي عنا عندما ندير ظهورنا لها. وزد على ذلك اننا نكثر النكت عنها ولكننا نفعل ذلك عابسين وبفظاظة فمثلاً اذا مات احدنا نقول انه قد لحق ام عمرو ومثل هذا نتكلم عن الامور الاخرى وهذه حالات تساعدنا كي لا نجن وما زلنا نقابل هذه الصعوبات بهذه الطرق تبقى فينا قوتنا ويدوم لنا ثباتنا

اجل نحن لا ننسى الامور وما ينشرونه في جرائد اخبار الحرب عن ان معنويات الجيش حسنة وكلهم فرحون وكيف انهم يدبرون حفلات رقص قبل تقدمهم الى خط النار. كل هذه الامور تمويه واختلاق. فنحن لا نأتي بهذه الاعمال لاننا فرحون ولكننا نجريها لنفرح ونسر ولولا هذا الفرح الوقتي لاتلفنا. ومع كل هذه المفرحات التي نجريها لا يمكن ان نصبر بعد على ما نحن فيه وقتاً طويلاً لان

اجراءنا هذه المفرحات يجلب لنا مرارة تتزايد نوعاً وكمية مرة بعد الاخرى

وكل هذه الامور التي تولي عنا الان ونحن في وقت الحرب ستستيقظ فينا بعد الحرب وعندها يبتدىء عملنا بتفريق الموت عن الحياة وفصلهما الواحد عن الاخر . هذه حقيقة راهنة لا تقبل بحثاً او تطلب برهاناً . ستعود الينا الايام والاسابيع والسنون التي قضيناها في هذه الساحات. وارفاقنا الموتى سيقفون معنا جنباً الى جنب نسير عسكرياً معاً. وستهدا العاصفة التي تشوش رووسنا فتظهر الامور واضحة وعندئذ يكون لنا غاية خاصة في سيرنا العسكري فنسير وبرفقتنا ارفاقنا الموتى ومن ورائنا السنوات الطوال التي قضيناها في الجبهة محاربين نسير الى الامام ولكن نسير اخصام من وضد من ؟

.....

من مضي زمن كان في هذه الاصقاع مرسح للتمثيل للجنود فقط ولا تزال الاعلانات عن الروايات التي يمثلونها معلقة فها انا وكروب نقف امام احد هذه الاعلانات محدقين بها لاننا لا نصدق انه لا يزال في العالم امور كهذه. صبية لابسة ثوباً صيفياً خفيفاً وعلى وسطها زنار جلد احمر واقفة واحدى يديها على درابزون وبالاخرى برنيطتها المصنوعة من القش وهي لابسة جرابات بيضاء وحذائين ابيضين كعباهما عاليان ومن ورائها بركة ماء زرقاء اللون يشرب منها حصانان ابيضان وبالقرب من البركة خليج جميل للغاية. الابنة جميلة للغاية. لها منخاران نحيفان وشفتان حمراوان ورجلان دقيقتان طويلتاء مظهرها نظيف للغاية. كان كل من حولها يهتمون بها وان كان من مادة غريبة تحت اظافرها فهنالك قليل من الرمل من على شاطىء البركة وبقربها

يقف رجل لابس سترة زرقاء وبنطلوناً ابيض وعلى راسه قبعة بحري ولكننا لا نهتم به ابداً انما نصرف كل اهتمامنا بالنظر الى رفيقته الفتانة

فهذه الابنة المصورة على احد هذه الاعلانات عجيبة لنا وغريبة لاننا نسينا ان في العالم مخلوقات كهذه فلم نصدق اعيننا وها نحن لم نرَ شيئاً مثلها منذ سنوات اقول مثلها بالجمال والنظافة ومظاهر السعادة والسرور. فنقول ان هذه امور خاصة باوقات السلم ويجب ان تكون انئذ كما تظهر الصورة فتثور عواطفنا وتتهيج افكارنا

فاقول الى كروب «انظر الى هاتين الساقين النحيفتين والحذائين مع انها لا يمكنها السير بهما مسافة طويلة» اقول هذا واشعر بانني بليد احمق بان اقف امام صورة ولا افتكر الا «بالسير والمشي» فيسالني كروب «كم عمرها» فاجيبه بدون تروٍ «يظهر انها ابنة اثنتين وعشرين» «اذاً هي اكبر منا سناً. ولكنني اوكد لك ان عمرها لا يزيد عن السابعة عشرة

والقول هذا يجدد شبابنا فاقول «ما قولك يا البرت اذا...»

فيحني البرت راسه ويقول اجل «عندي في البيت بنطلون ابيض كهذا»

فاقول له «بنطلون ابيض! ولكن ابنة كهذه لا...»

ثم ينظر الواحد منا الى الاخر شزراً. فلا شيء لنا هنا نفتخر به سوى ثوبين عسكريين قذرين ممزقين وفي هذه الحالة مزاحمة الشاب الذي بقربها مستحيلة فنبتدىء ان نمزق صورة الشاب حذرين ان نخدش اطرافها او نلحق بها ادنى ضرر وعملنا هذا فيه شيء نستحق معه الافتكار بها فيقول كروب «لنذهب الآن ونقتل القمل الذي علينا» اما

انا فلا اهتم بهذا الامر لان قتل القمل لا ينظف الثياب وهي ستعود مرسحاً للقمل في اقل من ساعتين بعد قتل الجيش الاول. ولكنني اقبل بالامر عندما اعود وافتكر بالصورة ونظافة الابنة. فازيد على ما قاله كروب «ليحضر ايضاً كل منا قميصاً نظيفاً» ويزيد البرت «ولنجلب جرابات نظيفة ايضاً» فاقول «اجل وجرابات فلنذهب باحثين عن كل هذه لنكتشفها»

عندئذ يجيء لير وتجادن وينظران الى الصورة ويبتدىء حديثهما البذيء السفيه. لير كان الاول من صفنا الذي اجرى الفحشاء وعندما عاد الينا اسهب بوصف ما اختبره بفحشه. ولهذا يكثر السفاهة والفاظ الفحش امام الصورة وتجادن يطيب له فخوراً. ان هذه الحالة لا تخجلنا ومن لا يكون بذيء الكلام سفيهاً لا يمكن ان يكون جندياً محارباً. ولكن كلامهما هذا لا يتفق في تلك اللحظة مع شعورنا واستعدادنا فنسير الى المكان المعد لقتل القمل وفينا من الشعور ما يكون في اشرف الرجال في موقف كهذا

.....

البيوت التي نخيم فيها الان بقرب قنال (ترعة) وفي جانب الترعة المقابل برك عليها اشجار الحور وفي ذلك الجانب ايضاً نساء

البيوت في الجهة التي نحن فيها قد اخلاها سكانها ولكن في الجهة الاخرى يرى الواحد من فترة الى اخرى سكاناً وفي المساء نذهب الى البرك للسباحة فيقترب الى الشاطىء ثلاث نساء وها هن يسرن على مهل ناظرات الينا مع اننا عراة حتى بدون ثوب السباحة. يناديهن لير فيقفن ويضحكن ويحدقن بنا. ونبتدىء ان نسمعهن بلغة افرنسية مكسرة كليمات تؤخرهن عن سيرهن وهذه الكليمات مما يخطر على بالنا نركب

منها جملاً هي بالحقيقة «مخبوطة» ٠النساء الثلاث لسن بارعات بالجمال فاتنات ومن اين يكون لهذا المحل مثل هولاء بينهن صغيرة نحيفة سمراء تشع اسنانها عندما تضحك سريعة الحركة يضرب ثوبها على ساقيها٠ اجل ان المياه باردة جداً ولكننا فرحون جداً فلهذا نبذل قصارى جهدنا لنبسط الرفيقات الجديدات ليبقين برفقتنا هذه وها نحن نجرب بان نكثر النكات وها هن ايضاً يرجعن لنا النكتة بامور لا نفهمها ولكننا نقهقه ضاحكين وبالوقت ذاته نرد لهن كلامهن بالاشارات ان تجادن اكثرنا نباهة فيركض الى مخيمنا وياتي برغيف خبز ويرفعه لتراه النساء٠ ولعمله هذا تاثير عظيم عليهن لانهن يحنين رووسهن ويشرن الينا ان نذهب اليهن غير ان العبور الى الشاطىء المعاكس ممنوع وعلى كل الممرات والجسور حراس ويستحيل العبور بدون رخصة وعليه نشير اليهن ان ياتين هن الينا ولكنهن يهززن رووسهن سلباً مشيرات الى الجسر ايضاً وممنوع عليهن العبور ايضاً فيدرن ظهورهن ويسرن على مهل متبعين كل الوقت طريق البحر فنتبعهن سابحين وبعد ان نقطع بضع مئات من اليردات يوجهن خطواتهن الى بيت يبعد قليلاً عن الشاطىء قائم بين الاشجار والشجيرات وينظرن الينا مشيرات بايديهن الى هذا البيت فيسالهن لير اذا كان هذا البيت بيتهن فيضحكن مؤكدات لنا ان هذا بيتهن فنقول لهن اننا نود المجيء اليهن ساعة لا يمكن للرقيب ان يرانا وهذا يكون في الليل واننا قد نجيء في احدى الليالي المقبلة ولكننا نعود ونؤكد لهن اننا سنرجع اليهن هذه الليلة٠ فيرفعن ايديهن ويلقين رووسهن عليها ويغمضن عيونهن ٠ لقد فهمن ما طلبنا٠فالسمراء النحيفة ترقص والشقراء تغرد «الخبز الخبز وما احلى الخبز» فنؤكد لهن اننا سناتي لهن بالخبز وبغيره من

الماكولات اللذيذة ونجرب ان نفهمهن ذلك بحركات ايدينا وكاد ليرا يغرق لتجربته ان يفهمهن المقصود «المقانق» وها نحن باستعداد ان نعدهن بكل الموجودات عند ضابط الاعاشة لو كان لهذا الامر من حاجة فيسرن الى بيتهن ملتفتات من آن الى اخر الينا فنصعد الى الشاطىء المقابل ونراقبهن لنرى هل يدخلن الى البيت الذي اشرن اليه لانه من السهل ان يكذبن ثم نعود الى الشاطىء الثاني سابحين

محظور على كل فرد ان يمر على الجسر بدون رخصة فعلينا ان نسبح في الليل لنفي بوعدنا مع الرفيقات الجديدات فها نحن الآن متهيجون ولا نقدر على الصبر لدنو الوقت الملائم ما لم نشرب قليلاً من المسكر فنذهب الى الكانتين لان فيه البيرا ومسكراً اخر فنشرب هذا المسكر الاخر ثم يخبر منا الواحد الاخر قصصاً كلها كذب عن اختباره . والغريب ان كل واحد منا يصدق الاخر مسروراً بصحة قصته ومنتظراً بفارغ الصبر ان تاتي نوبته ليخبر قصة عن اختباره اطول من تلك التي يفوه بها الرفيق . وها نحن الآن نكثر من التدخين بلا عد ولا حساب وايدينا تهتز كانها تشير الى حالة القلق التي نحن فيها الى ان يقول كروب «وما اجمل ان ناخذ لهن سيكارات من هاته التي ندخنها» فيضع للحال كل منا قليلاً من هذه السيكارات تحت خوذته هدية للواتي سيستقبلننا هذا المساء . ها الجلد قد غطاه ظلام المساء وها نحن نستعد للرحيل ولكن ما العمل وعددنا اربعة ولا يصح سوى ذهاب ثلاثة . فعلينا ان نتخلص من تجادن فنشغله بشرب المسكر والروم حتى ابتدا يهتز ويرتجف ولما يسود الظلام نعود الى اكواخنا في المخيم وفي وسطنا تجادن وعيون كل فرد منا تشع سروراً وفيها علامات اهتمامنا لاقتحام المخاطر . وقد اتفقنا ان تكون السمراء نصيبي

وعند وصولنا الى اكواخنا يرتمي تجادن على فراشه وياخذ بالشخير ومرة يستيقظ ويكشر عن انيابه بطريقة تجعلنا نظنه يخدعنا وان ما انفقناه عليه ثمن المسكر لم يات بجدوى ولكنه يعود وينام نوماً عميقاً فننهض للحال وياخذ كل منا رغيفاً ويلفه بجريدة والسيكارات وما اعطيه هذا المساء من المقانق فكل هذه هدية لا باس بها. وبما انه لا يمكنا الوصول الى الشاطىء المقابل الا سباحة وبما ان الظلام يسود على كل بقعة نذهب عريانين وخوفاً من ان ندوس على الاسلاك الشائكة وقطع الزجاج ناخذ معنا احذيتنا ونضع فيها الهدايا الثمينة التي تحملها ويتابط كل منا حمله ونسير حتى نصل الى النهر فنقطعه سابحين على ظهورنا حاملين بايدينا احذيتنا رافعينها فوق رووسنا عن الماء. وعند وصولنا الى الشاطىء المقابل نتسلقه بكل تحفظ ثم نلبس احذيتنا متابطين ما خباناه فيها ومن بعده نسير عراة مبللين ووجهتنا بيت رفيقاتنا في النهار وبعد سير دقائق قليلة نعرج في طريق خاصة وللحال نجد البيت المقصود فاذا هو بين الاشجار غير ان لير تصدم رجله بعرق احدى هذه الاشجار فيسقط الى الارض ويجرح كوعه ولكنه يقول لنا بكل سرور «ان الامر سهل وبسيط»

الشبابيك مغلقة فندور حول البيت ونجرب ان نرى الى داخله خلال ثقوب الشبابيك ولكن بعد ذلك ينفد صبرنا وحالاً يظهر على كروب التردد فيقول «ما رايكم فيما اذا كان عند هولاء ماجور ؟» فيجيبه لير متهكماً «ما علينا الا ان نخلي له الجو. واذا اراد ان يعرف من نحن فليقرا عدد فرقتنا هنا» مشيراً الى ظهره

يفتح باب الدار الخارجي فندخل واحذيتنا تحدث صوتاً قوياً ثم يفتح باب البيت ويضيء فيه ضوء ضئيل وتصيح احداهن مذعورة خائفة

فنشير اليها واصابعنا على افواهنا ان تصمت «هس هس يا صديقة يا عزيزة» نقول لها هذا ونريها ما نتابطه كاننا نعترض على صياحها وخوفها. وبينما نحن في هذه الحال يفتح الباب على مصراعيه وتظهر رفيقتنا الاولى وتندلع علينا السنة النور فعندما ينظرننا ويعرفننا يقهقهن ضاحكات للمظهر الذي نحن فيه وها هن يمسكن بالباب ويتارجحن بدفتيه . ما اسهل الحركة عليهن وما اطوع قاماتهن للحركة. غير انهن يكلمننا قائلات «انتظرونا قليلاً» ويركضن ثم يختبئن ثم يرمين الينا خرقاً بالية نستتر بها ثم يتاح لنا بالدخول الى غرفة يضيئها قنديل وبالوقت نفسه يحفظ حرارتها ويعطرها برائحة ذكية. وعندما نجلس يعرض كل منا ما جاء به ونعطي الكل الى النساء فتبرق اعينهن لانهن جائعات وما هي الا لحظة الا ويصير الكل حيارى مرتبكين فيشير لير الى النساء ان ياكلن ما اعطيناه لهن فتعود اليهن الحياة وياتين بصحون وسكاكين ويباشرن بالتهام الطعام الذي هو امامهن متاملات بكل قطعة من المقانق معجبات بها قبل ان ياكلنها ونحن ننظر اليهن فخورين بما اهديناهن. اما هن فقد ينهلن علينا بالفاظ وجمل لا نفهم منها الا القليل ورغم ذلك نستوعب كل كلمة لان في الصوت ولحن الكلام علامات الصداقة والاينانس. اجل كل منا شاب وتدل مظاهرنا على ذلك اما السمراء الصغيرة فتلعب بشعري وتردد ما تقوله النساء الفرنسيات كلهن «اه من الحرب. يا لتعاستكم ايها الشبان المساكين».

فامسك بذراعها بكل قواي وارسم على كفها قبلة حارة اما هي فتطبق اصابعها على وجهي وفوق راسي عيناها الفاتنتان وبشرتها السمراء الناعمة وشفتاها الحمراويتان وفمها ينطق بالفاظ لا افهمها كما واني لا افهم ما في عينيها كل الفهم فهما تتكلمان باكثر مما كنا ننتظره قبل

مجيئنا الى هذا المكان. في البيت غرف محاذية للغرفة التي انا والسمراء فيها انظر فاذا لير قد قضى لبانته من الشقراء ولا غرو فهو خبير بهذه الامور متمرن عليها. اما انا فاضعت رشدي لضعفي وبعدي عن كل منشط ومقوي ولاستسلامي الاعمى الى عواطفي وشهواتي. وها شهواتي الآن مزيج غريب من شوق وصبابة وتعاسة وبؤس. فاشعر بدوار براسي ولا شيء لي اقدر ان استند عليه او استعين به. وعند دخولنا خلعنا احذيتنا العسكرية على الباب واستعضنا عنها باحذية خفيفة وبهذا لا يبقى معنا من معدات الجنود او الرجال نلجا اليه في ضعفنا هذا ولم يبق علينا شيء يذكرني بقوتي كرجل او الاعتماد على نفسي كجندي. فها انا الآن عريان بلا زنار او رداء او خوذة او بندقية. فلهذا استسلم الى ما انا فيه ومع الامر الذي اجهله تماماً غير مكترث بالعواقب ومع كل ذلك اشعر بخوف وقشعريرة

اما رفيقتي السمراء فتقطب حاجبيها عند افتكارها وتبسطهما عندما تتكلم وكثيراً لا يتم صوتها بالفاظ اسمعها بل يختنق ويسبح في الهواء فوقي كنجم غير كامل ومثله مثل النجم ذي الذنب او القنطرة. وما عساني اعرف من كل هذا فالالفاظ الغريبة عني التي اكاد لا افهمها انما تهدىء روعي فاصير بسكوت وهدو يجعل الغرفة مظلمة ثم يتبدد الظلام بالضوء الضئيل في الغرفة كل هذا ولا يبقى امامي واضحاً سوى وجه السمراء الذي هو فوقي

ما اكثر تغير هذا الوجه فمنذ ساعة كان غريباً عني اما الآن فالمسه يحنو لا ينبعث منه بل مصدره الليل والعالم والدماء فكل هذه تظهر متحدة تنبعث عنه لامعة. وها كل ما في الغرفة قد مسه هذا الحنان وغيّره فلهذا تظهر هذه الاجسام بعيدة مفروزة. اما انا فيستوليني الرعب عندما

يرسل الضوء اشعته على جسدي العريان ويدي السمراء الباردة تمر عليه. ما اعظم الفرق بين حالتنا هذه وحالتنا في المواخير المسموح للجنود الذهاب اليها فهناك نصطف الواحد وراء الآخر ينتظر كل منا نوبته. اود لو اني لم افتكر قط بهذه المحلات ولكن الشهوة تسوقني اليها غير مختار واني اخاف جداً بانه قد يستحيل علي التخلص من هذه العادة ولكنني اشعر بشفتي السمراء والحلوة فالصق نفسي بهما وعيناي محدقتان بها. اريد كل هذا لتبتعد عني ولو لحظة الحرب ومخاوفها وخشونتها ويعود يستيقظ في الشباب ومسراته. فافتكر بصورة الابنة المعلقة على الحائط فاعتقد ولو الى لحظة ان كل حياتي متعلقة بالحصول عليها ولعله يحدث باعجوبة اذا التصقت بالذراعين اللتين تضماني

.....

وبعد انقضاء زمن نعود ونجتمع في الدار وليز بغاية السرور فنلبس احذيتنا ونستاذنهن ونودعهن بكل حرارة وننصرف. اما هواء الليل المنعش فيبرد اجسامنا الملتهبة واشجار الحور تظهر في الليل عظيمة باسقة. اما القمر فيسبح في الفضاء وماء القنال معاً. ونحن لا نركض بل نمشي الواحد حذاء الآخر بخطوات واسعة. وبينما نحن نمشي يقول ليز «ان ما صادفناه يسوى ما انفقنا عليه من الخبز وغيره»

اما انا فلا اتكلم لاني غير سعيد وغير واثق بنفسي. ثم نسمع وقع اقدام وراء شجيرة صاحبها يحتال كي لا نراه غير ان الخطوات تقترب منا فننظر جندياً عريانا لابساً حذاءه متابطاً رزمة كما كنا نحن تماماً يركض الى جهة معينة. هذا هو تجادن يقتفي خطواتنا كل الاقتفاء وها هو الان يغيب عن العيان. فنضحك وفي الصباح يشتمنا. اما نحن

فنختلس الخطوات ويعود كل منا الى فراشه القش ولا يرانا احد قط

.....

ها ضابط الفرقة يدعوني الى غرفة بوليس الجيش ويعطيني رخصة وتذكرة سفر ويتمنى لي سفراً سعيداً . فانظر الى الرخصة فاذا هي سبعة عشر يوماً ثلاثة للسفر واربعة عشر للراحة والتنزه. ان ثلاثة ايام سفر لا تكفيني فاطلب ان يسمح لي بخمسة ايام. اما برتنك فيشير الى الرخصة فارى عليها باني سوف لا اعود ثوا الى الجبهة بعد انقضاء ماذونيتي هذه بل اذهب الى معسكر في المروج للتمرين العسكري. فيهنئني ارفاقي وينصح لي كاتزنسكي ان اجد لنفسي عملاً في الجندية ولو حقيراً ويقول لي «اذا كنت حاذقاً فانك تمسك به ولا ترخه ابداً»

اود ان انصرف من هذا المكان قبل انقضاء ثمانية ايام لانه كيف كان الامر فالفرقة لا تبقى هنا اكثر من هذه المدة. اجل علي في حالة كهذه ان ادفع في الكنتين ثمن ما يشربه ارفاقي من المسكرات وها كل منا قد دب دبيب الخمرة فيه فاحزن انا لاني سابتعد عن ارفاقي مدة ستة اسابيع وما ادراك ما سيحدث بهم في هذه الاسابيع الستة. هل اعود واراهم كلهم. هاي قد مضى الى حيث.. ولا نعرف من يذهب بعده

وبينما نحن نشرب الخمرة انظر الى كل من ارفاقي بالدور. البرت بقربي ساكت يدخن سيكارته وها نحن كنا معاً كل مدة الجندية. ومقابلنا كاتزنسكي مقرفصاً منحني الكتفين عريض الابهامين ذو الصوت الهادىء وبالقرب منه مولر ناتىء الاسنان مكشراً عن انيابه ضاحكاً ثم تجادن العاري العينين. ثم لير وقد طال شعر لحيته فمظاهره تدل على انه ابن اربعين. وفوقنا غمامة من الدخان وما الجندي بدون سيكارته والتبغ ملجاه الكنتين والبيرا له اكثر من مشروب ومسكر انما

هي رخصة له ان يتحرك كيف يشاء ويمد رجليه ويديه كيف يشاء ونحن انما نجري هذه بالترتيب وحسب نظام معين فنمد ارجلنا امامنا ونبصق حيث نريد بكل حرية. هذه هي الطريقة الوحيدة لشرب البيرا . ومن الغريب ان كل هذا الشعور يجسم امام الجندي المزمع ان يسافر في اليوم التالي

وفي المساء نعود لزيارة النساء الثلاث في شاطىء القنال المقابل. واني اكاد اخشى ان اخبر السمراء الصغيرة باني ساسافر في الغد وعلى كل بعودتي الى الفرقة نكون قد ارتحلنا وبعدنا عن هذه النقطة ولكنني اخبرها بسفري فتهز راسها ولا تعير الامر ادنى انتباه وهذه الحالة تفقدني رشدي لانني لا افهم معنى هذا التصرف ولكن لا يمضي القليل الا واعود الى نفسي ويفتح علي. اجل ان لير مصيب في رايه. لو كان ذهابي الى الجبهة لعادت تدعوني «الشاب المسكين» ولكن ذهابي برخصة امر لا تريد ان تسمع به لانه لا يلذ لها. عساها تضمحل هي وكل دلعاتها وثرثرتها بداهية. فعندها يحلم الرجل باعجوبة تحل به ولكنه يستيقظ ولا يرى نفسه الا ماسكاً كسر الخبز

وفي صباح اليوم التالي اذهب وانظف نفسي وثيابي من القمل واسير الى محطة سكة الحديد ويذهب معي البرت وكاتزنسكي وعند وصولنا نعرف ان القطار يسافر بعد ساعتين فيرجع الرفيقان الى واجباتهما بعد ان يودع الواحد منا الاخر وداعاً صميمياً «ليرافقكما حسن البخت يا البرت وكاتزنسكي» . يذهبان في طريقهما ويلوحان لي بايديهما مرتين او ثلاثاً ثم يختفيان عن ابصاري وها انا اعرف حركاتهما وسكناتهما واقدر ان اميزهما من مسافة بعيدة. وعند اختفائهما عن نظري اجلس على حوائجي منتظراً موعد سفري ولكن بالحال يتولاني

الضجر والملل

.....

يسير بنا القطار مسافات شاسعة بها اقف امام مطابخ عديدة وانام في محطات عديدة واقرفص على مقاعد عديدة حتى اخيراً اصل الى بقعة من الأرض تظهر لي غريبة مزعجة مع اني اعرفها تمام المعرفة وهذه البقعة واقعة في الجهة الغربية من طريق القطار فيها القرى منتشرة تظهر سقوف بيوتها من القش كانها برانيط والبيوت مطروشة ونصف كل منها مصنوع من الخشب. اما حقول الحنطة فتظهر في الضوء الذي يرمي اشعته عليها كانها اللؤلؤ الثمين . هذه البقعة تظهر لي ببيوتها وبساتينها واشجارها وكل ما فيها

ثم تعيد اسماء المحطات الى مخيلتي ذكرى زمن صبوتي فلها عندي الان معانٍ خاصة. ولذا يرتجف قلبي في احشائي. اما القطار فيسير الى الامام اما انا فاقف قرب الشباك ممسكاً بحديده

يسير القطار ويمر بالمروج والحقول والمزارع فهناك عند الافق زوج من الدواب مقطوران يسيران على الطريق المحاذية للافق. وامامهما جماعة من الفلاحين ينتظرون نتاج اتعابهم. ثم البنات يقفن لاعبات ملوحات بايديهن والاولاد يلعبون فرحين. هنالك طرق تربط الحقول والقرى بالمدن طرق سلام لا يعكر صفاءها سير مدافع او تقدم جنود

الوقت الان المساء وها القطار يسير مصوتاً ومصفراً واذا كان لا يفعل هذا اقوم انا واصرخ لان السهل امامي يعيد علي ذكرى ايام سلفت كانه يتكلم عن نفسه . وعلى مسافة بعيدة يظهر لنا اشباح سلسلة جبال عالية وللحال اتعرفها فاذا هي سلسلة جبال دولبنبرج تظهر كاسنان

المشط شاهقة من وراء الغابات فلا بد ان وراءها المدينة التي نطلبها.
وها الان قد غربت الشمس واختفى كل شيء باختفاء اشعتها الذهبية والقطار لا يزال يسير متعرجاً ذات اليمين وذات الشمال طاويا البيداء طياً تاركاً وراءه اشجار الحور بصف الواحدة بعد الاخرى تهتز وتتحرك في الظلام وتظهر لنا اخيلة لا قيمة لها

اما الحقول فتدور مع القطار ولسرعة القطار نرى المسافات بين الشجرة الواحدة والاخرى قصيرة لدرجة اننا نرى الاشجار كلها كانها جسم واحد لا بل قل شجرة واحدة ولكن تعود وتظهر وراء القطار صفاً طويلاً ملاصقاً الافق يخبئه عنا البيوت الاولى التي نمر بها

نصل الى شارع متقاطع بشارع اخر وانا اقف بقرب شباك القطار ولا اعرف لماذا لا اقدر ان ابتعد عنه غير انّ ارفاقي المسافرين يهتمون الان باعداد حوائجهم للنزول في المحطة وانا اكرر لنفسي اسم الشارع برمرستراس برمرستراس . تحتنا في الشارع لوريات ودراجات واناس كثيرون لان هذا الشارع كثير الازدحام وهو شارع تحت الارض واراني متاثراً به كانه امي

بعد هذا يقف القطار وامامنا المحطة وما فيها من صياح وازدحام ومحافظين على النظام فاحمل للحال كيسي على ظهري واشد حزامه على اكتافي ثم احمل بندقيتي واخرج الى المحطة وعندما اصل الى صحن المحطة انظر هنا وهناك فلا ارى وجهاً اعرفه او شخصاً رايته من قبل وها الكل مسرعون فاسرع انا والتقي بممرضة من ممرضات الصليب الاحمر فتقدم هذه لي شراباً اما انا فاعرض عنها واستمر في سيري فتبتسم ابتسامة الاستهزاء ثم تصيح بي وهي مستحكم فيها روح كبريائها وعظمتها «انظروا اني اقدم الى جندي قهوة ليشرب» ثم تدعوني «تعال

يا رفيق» وانا اعرض عنها واسير في طريقي لاني عزمت ان لا اذوق شرابها

في خروجي من المحطة ارى الشارع يجري بقربه جدول لا بل قل نهر يتدفق من خزان المطحنة بقرب الجسر وهناك ارى البرج القديم وفي راسه الساعة الكبيرة وامام البرج شجرة الليمون الكبيرة الكثيرة الالوان ومن ورائها ظلام المساء

من مدة مديدة لا اذكر طولها طالما جلسنا في هذه البقعة ومررنا على هذا الجسر نتنشق رائحة المياه الراكدة الباردة ولطالما نظرنا الى هذه المياه الساكنة يتدلى اليها من حيطان الجسر الاعشاب الخضراء حتى كنا في الايام الحارة نسر جداً بمياه هذه الجداول المتفجرة في الجهة المقابلة اذ كنا نجلس هناك ونكثر الاحاديث والقصص عن المعلمين والمدرسين

امر على الجسر وانظر الى اليمين والشمال فارى ان المياه لا تزال مملوءة بالاعشاب والنباتات كما كانت وان ماء الجداول لا يزال يرتفع في الهواء مكوناً بارتفاعه قناطر تنكسر عليها اشعة الشمس، ولا تزال الغسالات في بناء البرج يقفن عاريات الاذرع يغسلن الاقمشة ولا تزال نيران مكاويهن تضطرم في البرج نفسه. وها الكلاب تركض في الشوارع الضيقة وها الناس امام بيوتهم ينظرون الي انا الجندي القذر المثقل بحمله

امر في المدينة فاذكر (البوظة) التي اكلناها عند البائع هذا والسيكارات الاولى التي دخناها في تلك الزاوية وها انا الان اعرف كل حانوت في الشارع البقالين والصيادلة وبائعي التبغ حتى اخيراً اصل فاقف امام باب مدهون بلون بني فانظر الى قفله الذي كاد يبلى

فيجمد الدم في عروقي ولكني افتح الباب فتستقبلني ببرودة غريبة لا عهد لي بها فتظلم عيناي ولكني اصعد على الدرج وحذائي يحدث قرقعة وضجة فيفتح الباب وارى شخصاً ينظر الي من وراء الدرابزون. أن هذا الباب باب المطبخ وها هم يخبزون كعك البطاطا لأن الرائحة قد ملات البيت فلا غرو فاليوم يوم السبت. اما الشخص الذي فتح لي الباب فما هو الا اختي وانا اخجل من نفسي فاخفض نظري الى الارض وقتاً قصيراً ثم اعود وارفع راسي وانزع عني خوذتي فارى اختي الكبرى التي تصرخ فرحة «بول ـــ بول ـــ»

فاحني راسي ويضرب الكيس الذي على ظهري بقضبان الدرابزون اما اختي فتفتح باب البيت على مصراعيه بسرعة الفرح المشتاق وتصيح باعلى صوتها «يا اماه جاء بول. هذا بول قد وصل». وانا لا اسمع الا قولها «يا اماه بول هنا» فاتسند الحائط وامسك خوذتي وبندقيتي ولا افلتهما ولكني لا اقدر ان اتقدم خطوة واحدة وها الدرج كانه اختفى من امامي فاعود واستند على بندقيتي واضعاً قندقها على رجلي ممسكاً بشدة راسها باسناني ولكني لا اقدر ان افوه بكلمة لان صراخ اختي قد تركني ضعيفاً لا قوة لي عاجزاً عن ان ابدي حركة واحدة فاحاول ان اضحك او اتكلم فتخونني قواي في كل محاولاتي ولهذا اقف على الدرج تعيساً ضعيفاً كالمفلوج ورغم ارادتي تتساقط دموعي فابكي. فتنزل الي اختي وتقول «لماذا جمودك هذا ما السبب» فيعود الي رشدي واصعد متمايلاً حتى اصل الى البيت فانزع عني احمالي واضع بندقيتي في زاوية البيت وعليها خوذتي وبقربهما عتادي الحربي كله ثم اقول لاختي بفظاظة وشراسة «هاتي لي منديلاً» فتعطيني واحدة من الخزانة وامسح بها وجهي وانظر الى فوقي فارى معلقاً على الحائط صندوق

الفراشات التي جمعتها يوم تلمذتي في المدرسة

اسمع الآن صوت امي خارجاً من غرفة المنامة فاسال اختي «هل امي مريضة»

«اجل انها مريضة» فادخل اليها وارى ضوء غرفتها ضئيلاً وامد لها يدي واقول لها بكل برودة وسكينة «ها انا هنا يا اماه» فتسالني «هل اصبت بجرح يا ابناه» تقول هذا وتحدق بي بنظرها كانها تود الاستكشاف في كل جسدي. فاقول لها «لا يا اماه ولكنني قد جئت ماذوناً»

اخاف ان يزداد النور في الغرفة كي لا ارى امي خضراء نحيلة ضعيفة ولكنها تستانف الكلام وتقول «ها انا مضطجعة باكية بيد انه كان بالاحرى ان اكون مسرورة»

«لماذا يا اماه هل انت مريضة»

«اجل غير اني اود ان اجلس اليوم قليلاً خارج الفراش» ثم تنادي اختي فتجيء راكضة وهي تقضي معظم اوقاتها راكضة من غرفة الى اخرى الى المطبخ لتتعهد الطعام لئلا يحترق. فتقول لها امي «هاتي الزجاجة التي فيها مربى العليق. الا تحب هذا يا ابناه»

«بدون شك يا اماه وبالاخص لم اذق له طعماً منذ زمن بعيد»

فتقول اختي ضاحكة «كاننا عرفنا بمجيئك ولهذا اعددنا لك ما تحبه من الطعام كعك البطاطا وزد على ذلك مربى العليق»

«ولا تنسي يا اختاه ان اليوم سبت»

فتطلب الي امي ان اجلس بقربها فاجلس وتنظر الي نظرات طويلة اما انا فارى يديها بيضاوين لضعفهما مريضتين وسريعتي العطب وما عساهما ان يكونا عند مقابلتهما بيدي. نجلس ولا ننبس ببنت شفة وما اشهى هذه الحالة لي فالحمد لله امي لا تسالني عن شيء وما عساها

تقول او ما عساني ان اقول لها فغاية غاياتها ان اعود اليها سالماً فها انا بقربها كما تريد وها اختي في المطبخ تعد الطعام وتغني. فتعود امي وتدعوني «يا ابني العزيز»

لا وقت للعائلات الفقيرة التي تقضي النهار كله بالعمل والجد والمكافحة ان تقضي وقتاً في المساء لبث عواطف افرادها واظهار ما يكنه فواد الواحد للاخر. ونحن من هذه الطبقة. وزد على هذا ان هذه الطبقة لا يفتكر الواحد منها ان يعترض على حالة الفها وعادة عرفها. فلهذا ان تقول لي امي «يا ابني العزيز» ذو معنى اسمى جداً من هذا القول نفسه في دوائر اخرى وانا اعرف جيداً ان زجاجة مربى العليق هي الوحيدة من نوعها في البيت وان امي تحافظ عليها منذ شهور عديدة وان الحالة هذه تصح على الكعك الذي تطعمنيه فان طعمه يدل على طول عهده واني اتاكد انها اشترت كل هذا بثمن بخس وحفظت الكل الى ان اعود. ها انا جالس بقرب سريرها وارى اشجار الكستنا في الحديقة المقابلة يحركها الهواء وينعكس عن اوراقها نور الشمس فيدخل من الشباك الى غرفة امي بالوان بنية ذهبية اما انا فاتنفس الصعداء واقول لنفسي «اليوم انا في بيتي. اليوم انا في بيتي» . ولكن رغم كل هذا اشعر بغربة ووحشة ولا اقدر ان آلف كل هذه الاشياء. مع ان هذه امي وتلك اختي وفوق راسي صندوق الفراش الذي جمعته بيدي وفي الزاوية البيانو التي اعرفها كل المعرفة. اجل ان كل الاشياء التي تحيط بي هي كما تركتها ولكني انا متغير فها بيني وبينها مسافات شاسعة يفصلني عنها حجاب سميك

انهض واجلب الى قرب امي الرزم التي جلبتها معي فهي قالب جبن فلمنكي اعطانيه كاتزنسكي ورغيفا خبز من خبز الجنود واوقيتان من

الزبدة وصفيحتان صغيرتان من المقانق واوقيتان ونصف من الشحم والدهن المذابين وكيس صغير من الارز . اضع هذه امام امي واختي واقول لهما «اظن ان بامكانكما الانتفاع بهذه» فتحنيان راسيهما علامة الايجاب ثم استانف الكلام واقول «ارى ان المواد الغذائية قليلة هنا»

«اجل. وهل تنالون انتم الكفاف منها»

فابتسم وادل الى المواد التي امامهما ثم اقول «اجل لا يمكننا كل مرة الحصول على كمية كهذه ولكننا نحصل دائماً على كميات تكفينا»

فتاخذ اختي هرينا ما هو امامنا من الماكولات وتمسك امي بيدي وتسالني مرتجفة «هل الحالة هناك سيئة يا بول»

ان امي سالتني هذا السوال فما عساني ان اجيبها وهي لا يمكنها أن تفهم حقيقة حالاتنا هناك ولا يمكنها ان تتصور ما هي تلك الحالات فيا اماه تسالينني فيما اذا كانت الحالة هناك رديئة فاهز راسي واقول «لا يا اماه وها دائماً نعيش هناك جماعات وهذا مما يجعل الحالة غير رديئة»

«اجل ان هنريك برديماير كان هنا منذ زمن قصير جداً واخبرنا ان الحالة هناك لمرعبة لما يتخللها من الغازات السامة وما شاكلها»

يقولون «الغازات السامة وما شاكلها» وامي منهم وهي بالحقيقة لا تعرف مقدار ما في هذا القول من خطر ورعب ولكنها تقوله لانها قلقة من نحوي مهتمة بامري. فهل اخبرها اني مرة وجدت ثلاثة خنادق من خنادق العدو مملوءة من جنوده وكلهم لا يتحركون كانهم مصابون بداء السكتة ووراء المتاريس حيثما كان هولاء يقف رجال مستندين الى الحائط ذوي وجوه زرقاء وما هم عند التحقيق سوى موتى

«لا يا اماه ما هذه الا احاديث ولا صحة لما زعمه برديماير وكفاك

برهاناً اني امامك بصحة تامة وقوة كاملة»

ان قلق امي وارتجافها اعاد الي رباطة جاشي فها انا الان اقدر ان امشي في البيت واقدر ان اسال عما اشاهده ولا احتاج ان اتسند الحائط لان الارض تدور بي ولا تضمحل امامي وكل هذا لان اعصابي تشددت

تود امي ان تنهض من فراشها فاتركها لوحدها واذهب الى اختي في المطبخ واسالها «ما مرض امي يا هرينا» فتهز كتفها وتقول «هي طريحة الفراش منذ شهرين فلم نرد ان نخبرك بالامر وقد فحصها اطباء كثيرون واحدهم يظن ان داء السرطان قد عاد اليها»

.....

اقوم واذهب الى قائد الموقع لاثبت وجودي وبينما اسير في الشوارع يعترضني الواحد بعد الاخر بالكلام اما انا فلا اعبا بواحد منهم اذ لا يمكنني تاخير الامر كما واني لا انوي ان اخاطب احداً. ولكني وانا راجع من الثكنة اسمع صوتاً عالياً موجهاً الي . اجل اني غارق في افكاري ولكن علي ان التفت فالتفت واذا بي امام ضابط فينتهرني متكبراً «الا تستطيع ان تحييني التحية العسكرية» فاجيبه مرتبكاً متحيراً «عفواً يا حضرة الضابط لم انتبه الى مرورك بي». فيزداد غضباً «اولا تعرف اللياقة في كلامك» . ان قوله هذا يحرك في الميل الى صفعه ولكني اذا صفعته احرم من اجازتي فللحال اقف الوقفة العسكرية واقول له «لم ار سعادتكم يا سيدي الضابط». فيستانف كلامه محمر الوجه متميزاً غضباً ويقول «اذن عليك ان تفتح عينيك دائماً. ما اسمك والى اية فرقة تنتسب» فاجيبه بكل امانة ولكن هذا لا يروي غليله فيعود ويسالني «اين فرقتك الان»

مللت كثرة اسئلته ولكن ما العمل فاجيبه «بين لانكمارك وبكسشوت»

ثم اوضح له اني وصلت باجازتي منذ ساعتين على امل ان يتركني وشاني ولكنه يزداد غيظاً ويقول لي «اتظن بانك تستطيع ان تسلك هنا سلوكك في الجبهة. لا لا. لا يمكننا ان نحتمل هذا التصرف والسلوك ونحمد الله ان لدينا شيء من النظام والتادب» . ثم يامرني ان اسير ذهاباً واياباً عشرين خطوة . ان امره هذا يخرجني من ديني ولكني لا استطيع ان افوه بكلمة اذ بامكانه ان يلقي القبض علي ويزجني بالسجن فامتثل بامره وقبل ان اصل اليه بست خطوات احييه التحية العسكرية وابقى بهذه الحالة حتى اعبر عنه بست خطوات اخرى فيدعوني لارجع اليه ثم ينظر الي باشاً باسماً ويفهمني انه يسر ان يضع لاول مرة الرحمة قبل العدل فاتكلف شكره فيامرني ان انصرف وما اسرع خطواتي لابتعادي عنه

ان هذه الحادثة تسلبني كل لذة اعدها للمساء فارجع الى البيت وانزع عني ثياب الجندية واطرحها في زاوية ثم اخرج من الخزانة بدلة عادية والبسها . ولكن ما اتعسني بهذا اللباس فها بدلتي قصيرة ضيقة لانني قد نموت مدة خدمتي في الجندية وها القبة وربطة الرقبة تزعجانني ولا يمكنني ترتيبها فتجيء اختي وتربط لي ربطة الرقبة. ما اخف هذه الثياب اشعر باني لا البس شيئاً سوى ثيابي التحتية . اذهب الى المرآة وانظر الى نفسي فيها فاذ بي في المرآة مثل حدث لوحته الشمس ونما نمواً عظيماً ينظر الي متعجباً مستغرباً امري

تسر امي جداً برويتها اياي باللباس العادي لان هذا مما يقلل لها من غرابة شكلي اما ابي فيود ان ابقى بلباسي العسكري وان اذهب معه لزيارة اصدقائه وانا ارفض هذا رفضاً باتاً

.....

ما احسن الجلوس في مكان هادىء مثلاً في حديقة في مقهى تحت اشجار الكستنا حيث يلعبون «بالكيل» هناك تتساقط اوراق الشجر على المائدة امامك وعلى الارض. ما احلى الجلوس هناك وامامي كوب من البيرا وقد تعلمت في الجندية شربها. ان الكوب مملوء لنصفه ولكن لا باس فامالي ان اشربها اكثر من مرة وزد على ذلك يمكنني في محل كهذا ان اطلبها مثنى وثلاث ورباع. لا يسمع في هذه الحديقة نفخ الابواق او ضرب المدافع بل هنا الاولاد يلعبون والكلب ملقٍ راسه على ركبتي. فوقي الفضاء صافٍ ازرق وها برج كنيسة القديسة مرغريت الاخضر يشق الفضاء ويعلو على اشجار الكستنا بينها

ما اجمل هذه الحالة اني احبها ولكني لا استطيع تحمل الوحدة ولكن ما العمل وامي الوحيدة من كل من اصادقهم التي لا تكثر الاسئلة والكلام .

غير ان والدي عكس ذلك تماماً وهو يود ان ابقى كل الوقت اقص عليه انباء ميدان الحرب. وها هو فضولي لدرجة تجعلني ان اتخيله بطيء الفهم مزعجاً ولذا لا يعود لي من علاقة معه فلا احب اليه من ان يسمع عن المعارك واخبارها وما شاكل ذلك ولهذا اتاكد انه لا يفقه ان الواحد منا يكره التكلم عن هذه الامور كل الكره. لافضل علي جداً ان اقوم بها من اتكلم عنها لان الكلام عنها امر مخطر واخاف اننا اذا اكثرنا الكلام عنها تتجسم امامنا فلا نعود قادرين على نسيانها. وما عساه يحل بنا اذا بقيت هذه الاحوال واضحة امامنا كل الوضوح. ولهذا اكتفي بان احدثه عما يروح النفس ولكنه يود ان يعرف فيما اذا قابلت العدو وحاربته وجهاً لوجه فاجيبه بالنفي وانطلق

ان خروجي من البيت لا يريحني من الاسئلة لاني وانا اسير في

الشوارع اجفل لصوت الترام حاسباً اياه صوت المدافع وبينما انا في اجفالي احس بضرب خفيف على كتفي فالتفت الى الوراء فاذا بي امام معلمي باللغة الالمانية وللحال يبادرني بالسوال الذي يساله كل فرد «كيف الاحوال هناك. انها لمرعبة جداً اليس كذلك؟» اجل انها لمخيفة ولكن علينا ان نصبر الى المنتهى

ومع كل ذلك يعطونكم طعاماً مغذياً كافياً . هذا ما اسمعه دائماً. الحمد لله يا بول انك بخير وعافية وهذا امر طبيعي لانهم يرسلون افضل ما عندنا الى الجنود ونحن هنا في حالة رديئة للغاية». يقول هذا ثم ياخذني بيدي الى مائدة حولها جمع من الارفاق فيحييني رئيس المعلمين ويصافحني ويقول «اه تجيء من ساحة الحرب. كيف معنويات الجيش وروحه حسنة وممتازة اه اليس كذلك»

فاقول له ان لا احد من الجند ياسف لرجوعه الى بيته فيستلقي من الضحك ويقول «اني راسخ الاعتقاد بما ذكرت. ولكن عليك قبل رجوعك ان تختبىء من وجه اولئك الضفادع . هل تدخن سيكارة. خذ هذه وجربها» ثم يصرخ بالخادم قائلاً «اجلب كاساً من البيرا للمحارب الشاب»

لسوء حظي قبلت منه السيكارة ولهذا اضطر تادباً ان ابقى معهم ويستحيل علي معاكستهم لانهم كلهم يظهرون لطفاً وحسن طوية. ولكن اقوالهم واسئلتهم تزعجني وتؤلمني ولهذا ادخن السيكارة تلو الاخرى حتى صرت كمدخنة ولكني اظهر امتناني لهم اشرب كاس البيرا بجرعة واحدة . ولكنهم للحال يطلبون لي الثانية لان كل من في البلاد يشعر بانه مدين للجندي . وها هم الان يبحثون في اي من اراضي العدو يجب ضمها الى املاكنا وها رئيس المعلمين الممسك

بسلسلة من الحديد يود ان نستملك البلجيك كلها ومن فرنسا المنطقة التي فيها معادن الفحم. وزيادة عن كل ذلك قطعة من روسيا. وها هو يسرد البرهان تلو الاخر ليثبت نظريته هذه. ويظهر بانه لا يرضى لنظريته بديلاً فيقتنع الباقون ويوافقونه على رايه. ثم يستانف الكلام ويشرح المواضع الفرنسية التي يجب ان نخرقها ثم يلتفت الي ويقول «تقدموا قليلاً فخطتكم الحربية بالخنادق لا تغلب. ثم اسحقوا الجنود الانكليزية وبعده يتم لكم السلام»

فاجيبه ان تقدمنا وخرق صفوف الاعداء بنظرنا غير ممكن لانه قد يكون للعدو نجدات عديدة وزد على ذلك ان المحاربة قد تجيء عكس ما يراه الناس ولكنه يدحض رايي هذا ويتهمني بعدم معرفة الامور ثم يقول «ان قولك مصيب في الجزئيات اما انا فاتكلم عن الكليات وتعجز انت عن ابداء راي فيها ولا يمكن الحكم الا على دائرتك لانك تراها وحدها وتعجز عن الاحاطة بالكل. اجل انكم معاشر الجنود تتمون واجباتكم بكل شجاعة وامانة وتخاطرون بارواحكم الامر الذي تستحقون عليه كلكم اوسمة ونياشين ولكن قبل كل شيء يجب اختراق صفوف العدو في الجبهة البلجيكية وبعدها تجهزون على راس الصف». يقول هذا ثم يخرج منديله من جيبه ويمسح مناخيره وذقنه ويستانف الكلام ويقول «يجب الاجهاز على صفوف الاعداء كلها من راسها الى عقبها وبعده الدخول الى باريس»

اتمنى من كل قلبي ان اعرف كيف يقدر ان يرسم هذه الخطط. ثم يسكب لي كاساً ثالثة من البيرا ويطلب من خادم المقهى ان يجيء لي بغيرها. فانهزم وانصرف لكنه يرمي في جيبي سيكارات قليلة ويودعني بضربة صداقة على ظهري قائلاً «اتمنى لك افضل التمنيات. عسانا عن

قريب نسمع عنك امرًا مهماً»

.....

كنت اظن ان حالتي في الماذونية تكون غير هذه لان اوقات الماذونية منذ سنة كانت عكس ما هي الان ولكن عند درس الحقيقة اجد ان الازمنة والاوقات لم تتغير وما التغير في هذه الردهة من الزمن الا فيّ انا وها البون الشاسع بيني في ذلك الزمن وحقيقة حالي اليوم لانني منذ سنة لم اعرف شيئاً عن الحرب . كنا في مراكز هادئة. اما الان فارى باني قد سحقت دون ان اعرف ذلك ولهذا اجد ان لا ناقة لي هنا ولا جمل وما هذه البلاد الا بلاد غربة لي. فبعض سكانها يكثرون الاسئلة والبعض الاخر لا يتفوهون بكلمة. ولكن يقدر كل فرد ان يرى ان عدم تفوههم بالاسئلة عن الحرب هو الكبرياء بعينها ولطالما يقولون وعليهم سمات الحكمة «انه لا يصح الكلام عن هذه الامور» وتراهم منتفخين وهم يقولون هذا

احب الوحدة كي لا يزعجني احد لان كل من يقع عليه النظر يعيد على مسمعي النغمة ذاتها الاحوال هناك سيئة جدًا او الاحوال هناك حسنة جدًا وبعضهم يرسمون خططاً يعاكسها البعض الاخر ومع كل اهتمامهم الكلامي بهذه الامور تراهم منغمسين باعمالهم ومنصرفين بكل قواهم الى ما يحفظ كيانهم ويمس بحياتهم اليومية. قد كنت مثلهم في غابر الايام ولكن اراني اليوم ولا علاقة لي البتة بهذا المجتمع

لا اقدر ان احمل كثرة كلامهم . تراهم كثيري الاضطرابات او التمنيات او المقاصد الامور التي يمكنني ان افهمها. افضل جدًا ان اجلس في مقهى مع احدهم واخبره ان حقيقة كل الامور ان نجلس في هذا المقهى سكوتين هادئين. انهم يفهمون هذا الامر ويوافقونني

على صحة هذا الزعم وقد يشعرون بحاجتهم اليه ولكن كل ذلك كلام بكلام . اجل انهم يشعرون بصوابية هذا الراي ولكن هذا الشعور لا يتعدى نصف كل واحد منهم واما النصف الاخر فماخوذ بامور اخرى لان كل واحد مقسوم على نفسه ولا يمكن لشعوره ان يشمل كليته حتى انا لا اجرأ ان اقول حقيقة ما اقصده في هذا القول

وها انا عندما ارى الناس في بيوتهم ومكاتبهم واعمالهم اشعر بدافع يدفعني الى البقاء بينهم الجاذب الذي لا يغلب. اود ان اكون بينهم وانسى الحرب ولكنني انفر من نوعية حياتهم هذه حياة ضيقة اذ لاشيء فيها يملأ كل فترة من فترات حياة الفرد. فعلى الفرد ان يثور على حياة كهذه ويمزقها اربا ارباً. واني لاعجب كيف يقبلون بحياة كهذه بينما في ساحة الحرب تتطاير الشظايا وتتسابق القنابل وتتزاحم الصواريخ وتحمل الجرحى على «شراشف» من المشمع والجنود تطوي اليوم تلو الاخر في الخنادق. فالناس هنايختلفون عنهم في ساحة الحرب وعليه لا اقدر ان افهم مقاصد الناس هنا ومراميهم. اني احسدهم على حياتهم هذه واحتقرهم لاجلها وما علي الان الا ان افتكر بكاتزنسكي والبرت ومولر وتجادن وما عساهم يفعلون الان. اخالهم واوكد اني مصيب في ما اخال. انهم الان اما في الكنتين يتسامرون او في النهر يسبحون وعن قريب سيتقدمون الى خط النار الى ساحة الحرب

.....

وراء المائدة في غرفتي مقعد مجهز بجلد بني اجلس عليه ومعلق على الحيطان بدبابيس عدد لا يحصى من الصور التي كنت اقطعها من الجرائد والمجلات . وبين هذه الصور رسوم وكارتات بوستة كنت افرح بها . وفي زاوية الغرفة موقد حديدي صغير وامام الحائط

المقابل رفوف عليها كتبي . فهذه هي غرفتي قبل ان اكون جندياً والكتب التي فيها قد اشتريتها بالدريهمات التي كنت اربحها بتعليم المتاخرين من التلامذة وها ثمن كل كتاب منها مجلد بكرتون وقماش ازرق مارك وعشرين بفنك. والكتب هذه اكثرها ادبية او مجموعة عن اداب اللغة وقد اشريتها كتباً قديمة. وقد اشريت كل طاقم منها كاملاً لاني كنت اتوخى التدقيق وكنت لا اثق بالمؤلفين او الناشرين ليختاروا لي او يرسلوا لي افضل ما كتبوه او نشروه وعليه قد اشريت الانواع التي يجب ان تحفظ . قد قرات القسم الاكبر من هذه الكتب بحمية واجتهاد لانها بالحقيقة كانت تلذ لي . اجل اني كنت افضل عليها كتب المحدثين واسعار هذه باهظة جداً. واني قد اقتنيت البعض القليل من هذه الكتب بطريق اخجل منها الان وهي اني كنت استعير الكتاب ولا ارجعه تمسكاً مني به

على رف من الرفوف كل الكتب المدرسية التي تعلمت بها. والناظر اليها يرى لاول وهلة عدم اعتنائي بها فها اثار اباهمي عليها ولاغراض خصوصية قد مزقت بعض الصفحات فيها. وتحت هذا الرف عدد من الجرائد والمجلات مكردسة بعضها فوق بعض بينها بعض الرسوم والصور . اود من كل قلبي ان ارجع بفكري الى ذلك الوقت وقت التلمذة وها هو لا يزال في الغرفة واني اشعر بوجوده واكاد المسه بيدي والحيطان قد حفظته لي في الغرفة كما هو . فها يداي الان تستندان على ذراعي الكرسي وانا اجرب ان اعود الى ما اعتدت عليه امد رجلي على المقعد ليكون جلوسي مريحاً لي. والشباك الصغير في الغرفة مفتوح وهذا ما يسهل لي رؤية الشارع والكنيسة وما يخرق الفضاء من ابراج فيها. كل هذه مناظر الفتها وعرفتها . وعلى المائدة

امامي زهرتان والدواة والقلم وصدف استخدمه ثقلاً لتهدئة الاوراق لم يتغير شيء من ترتيب الغرفة وتنظيمها. والغرفة هذه ستكون كما هي الان اذا اتيح لي بعد الحرب ان ارجع سالماً فاني ساجلس كما جلست وانتظر الاوقات تمر كما انتظرت. اشعر حالاً بتهيج الامر الذي لا اريده لاني اتوق الى تلك الساعات ساعات اللهو والحبور والهدوء ولاني اود من صميم قلبي ان اعود الى الشعور بتلك القوة الخفية التي تدفعني الى كتبي والانكباب عليها وها اني بشوق الى تلك الرغبة التي كانت تتزايد في حتى بنظري الى دفات كتبي الملونة اني بشوق شديد الى هذه الرغبة لتذيب ما في من الجمود وتوقظ الامال الكبيرة في المستقبل. والمسرة التي كنت اشعر بها عندما اكون في عالم الفكر والافتكار وتعيد الي حمية الشباب وجد الفتوة. فلكل هذا اجلس منتظراً هذه الضالة المنشودة

ثم يخطر على بالي ان اذهب لارى ام كمريخ. ويمكني ان ازور متلستيد لانه في الثكنات العسكرية. فانظر الى الخارج من شباك غرفتي فارى وراء الشارع الذي تنيره الشمس سلسلة تلال بعيدة ولكنها ظاهرة تماماً وبما ان الطقس طقس الخريف الجميل اخال نفسي اني والبرت وكاتزنسكي حول النار ناكل بطاطا مشوية بقشرتها. وبما اني لا احب ان افتكر بهذه الحالة اطرد هذا الفكر من مخيلتي. وها الآن غرفتي تتكلم. وعليها ان تمسك بي ولا ترخيني وان تجعلني ان اشعر باني لست غريباً فيها. اني اتمنى من كل قلبي ان اصغي الى حديث غرفتي واعرف انيعندما اعود الى ساحة الحرب يتوارى شبح الحرب بكليته من امامي وراء ذلك التيار العظيم تيار البيت والرجوع اليه وان اعرف انئذ ان الحرب تتوارى ولن تعود فيبطل عملها بقضم كل واحد منا

قضماً مستمراً فنعرف ان لا سلطة لها علينا سوى سلطة خارجية

الكتب امامي مرتبة صفوفاً صفوفاً ولا ازال اعرف اسماءها ومحتوياتها واذكر اني رتبتها بيدي. وها اني انظر اليها متضرعاً ارجوها ان تكلمني وتحادثني او ان تمد الي يداً فتلتقطني او تجذبني اليها هي التي كانت حياة حداثتي تلك التي لا تهتم بامر هي جميلة فتانة اتضرع اليها ان تقبلني فانتظر جواباً وانتظر ولا مجيب فتمر في مخيلتي صور الماضي وهذه ايضاً تعجز عن ان تمسكني او تجذبني اليها لانها انما هي اخيلة وتذكارات. فانتظر وانتظر واذا بي امام لا شيء ولهذا يتزايد اضطرابي وللحال يعتريني شعور بانني غريب في بيتي وهذا امر مخيف جداً فيغلق في وجهي كل باب اقدر ان اعود به الى الماضي كل هذا وانا بكل امانة وحماس وجهاد متواصل اسعى للرجوع الى ماضي الى تفاهم علمي مع قادة فكر كانوا اصدقائي الى ائتلافي مع كتبي ومكتبتي. ولكن كل ذلك لا يجديني فتيلاً فاجلس حيث انا ويمر امام مخيلتي الماضي بتمامه وبالوقت نفسه اخاف ان اكون بعملي فضولياً لجوجاً لا اعرف نتيجة محاولاتي هذه. انا جندي وعلي ان اتمسك بالجندية ولا ارخيها.

لقد اعياني تعب الانتظار فاقف وانظر الى الخارج من الشباك ثم التقط كتاباً واقلب صفحاته كاني اقرا فيه ولكني حالاً اضعه جانباً والتقط غيره وانظر الى هذا نظري الى الكتاب السابق مع اني كنت قد وضعت علامات خاصة لتتف فيه يوم قراته واعود واطرحه جانباً والتقط الاخر وهكذا دواليك حتى تراكمت الكتب ركاماً مركوماً . ونصيب الجرائد والمجلات كنصيب الكتب فاقف صامتاً قاضياً احكم لنفسي على نفسي ولكنني اجد نفسي كئيباً منكسر القلب لان كل ما وقعت عيناي عليه

كلام بكلام لا يصل الي منه شيء فاكتفي بما جرى ولا ازيد عليه فاخرج من الغرفة بهدوء وسكينة

.....

ان ما جرى لا يقطع لي املاً ومع اني لا اعود الى غرفتي لاقلب كتبي اعلل نفسي واشجعها ان هذه الايام القليلة لا تكفي لابني عليها حكماً وها امامي مستقبل واسع اعود به الى ماضي من الجد والانكباب على المطالعة. ولهذا اترك كل شيء واذهب الى الثكنة العسكرية لارى متلستد وهناك اجلس واياه في غرفته نتجاذب اطراف الحديث. ان في محيطه جواً لا استحسنه ولكنني الفته. ولمتلستد اخبار يخبئها لي فيها ما يلذني جداً واهمها ان كانتورك الان في الجندية في فرقة الرديف. وقد اعطاني متلستد سيكارتين قائلاً «افتكر وتصور لنفسك الحالة الاتية. رجعت من المستشفى الى الثكنة وكان كانتورك اول من وقع عليه نظري فمد يده من بعيد وصاح لي «هلو يا متلستد كيف حالك» . غير اني نظرت اليه وقلت له «يا ايها الرديف كانتورك العمل شيء والصداقة شيء اخر وهذا امر يجب ان تعرفه تمام المعرفة فقف وقفة الجندي عندما يخاطب ضابطاً ارفع منه درجة في الجندية». يا ليتك رايت وجهه وقد ظهرت على سحنته كل علامات الامتعاض ولكنه جرب ان يوفق الامور فكلت له كيلاً اخر اشد من الاول . ثم عاد وجمع كل قواه وتقدم الي هامساً في اذني قائلاً «اتريد ان استخدم مالي من التاثير حتى يسمح لك ان تمتحن امتحاناً مستعجلاً للضرورة»؟ وهو بهذا كان يجرب ان يذكرني بتلك الامور اما انا فقد جننت لقوله هذا وذكرته بامر وصحت به قائلاً «يا ايها الرديف كانتورك منذ سنتين كنت تحشو عقولنا بالتطوع وتلح علينا ان نتجند وكانت النتيجة ان

جوزف بهم قتل قبل ان يدنو وقته القانوني للجندية بثلاثة اشهر فلو كنت تركته وشانه لتمتع ذلك المسكين في الحياة مدة لا تقل عن هذه وانت الذي قضيت عليه بما صادف. فاذهب من امامي وسازيدك من هذا. فيما بعد ان استلم قيادة فرقته كان من دواعي سروري اولاً ان سرت به الى المخازن لالبسه ثوباً يلائمه واعطيه عدته. وساريكه عما قليل» . يقول هذا ونخرج الى ساحة استعراض الجنود فللحال تصطف فرقة كانتورك ويتقدم متلستد اليهم ليفحص هيئة الجنود وملابسهم فارى كانتورك ولا اقدر ان اتمالك عن الضحك فها هو لابس سترة زرقاء غيرت الشمس لونها مرقوعة على ظهرها واكمامها ويظهر ان هذه السترة كانت لجبار طويل جداً ويلبس ايضاً بنطلوناً اسود قصيراً يكاد لا يصل الى بطة رجله اما الحذائان اللذان يلبسهما فكبيران جداً معقوفان من الامام ويربطان بشرائط على الجانبين ومقابل هذين الحذائين الضخمين على راسه قبعة صغيرة للغاية كانها من بقايا علبة من علب الصيدليات الصغيرة. وبالاجمال ان حالة ثياب كانتورك يرثى لها حالة تستوجب الشفقة

متلستد يقف امامه ويقول له «ايها الرديف كانتورك اهذه الازرار نظيفة. الظاهر انه يستحيل عليك ان تتعلم هذه المثالة. انك غير كفء بالحق انك غير كفء»

ان هذه الاقوال تجعلني اطير فرحاً فكانتورك هذا كان ينعت متلستد بهذه النعوت عينها ثم يعود متلستد الى توبيخه ويقول «انظر بوتشر فهو المثال الحسن الذي يجب عليك ان تنسج على منواله».

اسمع واكاد لا اصدق ما اسمع و لاما ارى فبوتشر كان بواب المدرسة ولطالما كان كانتورك يقول الى متلستد «ان بوتشر النموذج الذي

يجب عليك ان تنسج على منواله»٠ اما كانتورك فينظر الي متمنياً ان يبتلعني وانا اكشر له عن انيابي واتظاهر باني لا اعرفه٠ ان منظره بالبدلة العسكرية وبقبعته المائلة الى الامام لمن المناظر المضحكة للغاية٠ هذا هو الذي كان بالامس يجلس على كرسيه جلوس الملك على عرشه وكنا نقف امامه خائفين مضطربين وهو يشير الينا بقلمه الرصاصي عندما كنا نخطىء في تصريف الافعال الافرنسية الشاذة الامر الذي تقدمنا به نوعاً في دخولنا فرنسا٠ هذه امور حدثت منذ سنتين والان يقف الرديف كانتورك منكسر الروح منحني الركبتين ذراعاه معقوفتان كانهما شص٠ ازرار بدلته غير نظيفة وبالاجمال هيئته مضحكة للغاية٠ والظاهر انه يستحيل عليه ان يصير جندياً٠ فلا اقدر ان اقابل هذه الصورة بصورة معلم المدرسة المتغطرس المتعجرف٠ وها الان لا ادري ما يكون نصيبه معي انا الجندي القديم فيما اذا عاد هذا المؤذي النذل وتجرأ وطلب الي ان اصرف فعلاً

ان متلستد يطلب الى الفرقة ان تتمرن على المناوشات وارضاء لخاطر كانتورك عينه قائداً لفرقته وفي امر كهذا على قائد الفرقة ان يمشي في طليعة فرقته متقدماً امامها عشرين خطوة ونتيجة هذا الاغداق على كانتورك ان يركض عند صدور الامر لرجوع الفرقة من مؤخرها على بعد عشرين خطوة الى ما هو امام مقدمها بعشرين خطوة وذلك لان بالرجوع يصير مقدم الفرقة مؤخرها والعكس بالعكس٠ وهذا امر يجريه هملستوس مراراً عديدة وكانتورك لا ينتظر من متلستد معاملة افضل من هذه لانه مرة وقف حجر عثرة في سبيل ترقيته ٠ اني احسب متلستد احمق اذا عامل كانتورك غير هذه المعاملة قبل ذهابه الى ساحة القتال في الجبهة ٠ ان الحظ قد ساقه الى هذه الفرصة التي يسهل الموت معها٠ في كل هذه المدة كان كانتورك يركض

ذهاباً واياباً كانه حمار الناعورة ولكن متلستد يوقف هذه المناورات ويامر بالزحف التمرين الذي يهم الجندية جداً. ولهذا نرى كانتورك حاملاً بندقيته كما يجب في حالة كهذه ويطوي الارض على يديه وركبتيه ويلهث من شدة التعب ومتلستد يشجعه بالفاظ اعتاد كانتورك ان يلقيها عليه كقوله «اننا يا كانتورك سعداء بان نكون في هذا الجيل العظيم فعلينا ان نشدد عزائمنا حتى يتم لنا النصر على كل الصعوبات التي نواجهها». العرق يتصبب على جبين كانتورك كالينابيع ويقذف كانتورك من فيه قطع خشب قذرة فينحني متلستد فوقه ويوبخه مردداً له ما كان ذاك يقوله في المدرسة «حذار ان لا ترى عظمة الشجاعة واقتحام المخاطر وانت في اسهل الامور واهونها اقول لك هذا ايها الرديف كانتورك»

من الامور الغريبة ان كانتورك لا ينفجر غضبه او يتطاير الشرر من عينيه وبالاخص ان متلستد في اوقات التمارين العسكرية يعيد على مسامعه ويعامله مثل ما كان ذلك يقول لمتلستد ويعامله به. مثلاً ان متلستد يمسك كانتورك من ظهره ويرفعه قليلاً حتى يصل ذقنه الى مقابل الحديد في الجمنستيك ثم ياخذ ان يلقي عليه المواعظ الامر الذي كان كانتورك يجريه به تماماً. وما يلي هذه التمارين والمتاعب واجبات هينة عليهم القيام بها. فيصدر الامر الى كانتورك وبوتشر ان يجرا عربة ويذهبا ليجلبا الخبز الى الجنود. وفي اقل من دقيقتين يمشي الاثنان الواحد محاذياً للاخر وامامهما العربة يجرانها. كانتورك يتقد غيظاً فيحني راسه وبوتشر يسير فرحاً ان نصيبه واجب سهل خفيف

الفرن في الجهة المقابلة من المدينة وعلى الاثنين ان يسيرا ذهاباً واياباً في المدينة من الطرف الواحد الى الطرف الاخر وبينما هما

سائران يخبرني متلستد قائلاً «انهما قد قاما بهذا الواجب مرتين وها الناس في الشوارع يراقبونهما في عملهما هذا»

«حسن جداً او لم يشتك عليك لهذه المعاملة»

«اجل قد جرب ذلك مرة ولكن قائدنا انطرح على ظهره من الضحك عندما سمع منه هذه القصة وكيفية الشكوى. ان قائدنا لا يحتمل معلمي المدارس وزيادة على ذلك اني خاطب ابنته»

«قد ينقلب عليك في الفحص المدرسي»

«كل ذلك لا يهمني وانا كل مرة اثبت لروسائي باني لا القي علية الا كل واجب سهل خفيف»

«الا يمكنك ان تهذبه قليلاً»

«حاشا وكلا . انه لرجل بليد خامل ولا يمكني ان اضيع وقتاً على مثل كانتورك»

.....

ما هي الماذونية في الجندية. اوليست هي فترة قصيرة يكون كل شيء بعدها اسوأ حالاً منه قبلها. وها الان يدب في شعور الافتراق وها امي تراقب حركاتي وسكناتي بقلق وهدوء. وها هي تعد الايام وتزداد حزناً في صباح كل يوم لشعورها ان زمن اغترابي يزداد اقتراباً. ان امي قد خبأت كل ما احمله من المعدات الحربية ولا تريد ابداً ان تذكرها. الساعات تمر سراعاً اذا التهى الفرد عنها. فها اني ارافق اختي ونذهب معاً الى مخزن اللحام لنشتري كيلو من العظم والعظم الان من الملذات الغاليات . وها الناس يصطفون لنيله صفاً طويلاً. ويبتدئون بالاصطفاف من الفجر وكثيرون منهم يغمى عليهم. ان نصيبنا هذه المرة الفشل فبعد انتظار ثلاث ساعات متوالية ينفرط عقد المصطفين

لأن العظام لا تكفي كل طالبيها. فلهذا يكون اهتمامي بالحصول على ما يصيبني من المؤونة العسكرية امراً سارّاً ومفيداً للغاية لاني آتي بكل نصيبي الى امي بالنتيجة ناكل كلنا طعاماً لا باس به

تزداد الايام ظلاماً في عيني امي ويزداد حزنها ساسافر بعد اربعة ايام فعلي ان اذهب وارى ام كمريخ

.....

يصعب علي جداً ان اكتب ما يجري لي مع ام كمريخ فانها امراة كثيرة العويل والبكاء فهي تهزني وتصيح بي «لماذا انت لا تزال حياً بينما هو قد مات. قل لي بالله عليك ما عملكم هناك وانتم...» تقول هذا وترتمي على كرسي ثم تزيد بعويلها ونحيبها فتخنقني العبرات. ثم تسالني «هل رايته يموت اخبرني كيف مات» فاقول لها انه اصيب برصاصة في قلبه ومات حالاً فتنظر الي نظرة الشك وتقول لي «انك تكذب فيما تقول وانا اعرف بالامر اكثر منك لاني اشعر في داخلي بالالام المبرحة التي قاساها عند موته وقد كنت اسمع صراخه في الليل واشعر باضطرابه واوجاعه فاصدقني الخبر. اريد ان اعرف الحقيقة كما هي وعليك ان تسردها لي بتمامها» فاجيبها «حاشا وكلا كنت بقربه وقد فارق الحياة حالما اصيب بالرصاصة»

فتنظر الي راجية قائلة «بربك اخبرني الحقيقة فهذا مما يخفف علي ويعزيني عليك ان تخبرني كل الصدق الا ترى بانك تعذبني بعدم قولك الصدق اكثر جداً مما لو كلمتني بالحقيقة كما هي. اني لا اطيق حالة الشك ولا اقدر ان احتملها. فاخبرني كيف كان موته مع ما في ذلك من الفظائع والمرعبات لان هذا اهون علي جداً من ان اتصور لنفسي الامور»

اما انا فلا اخبرها الحقيقة ولو ادى بها الامر ان تطحني طحناً ٠ اني اشفق عليها واشعر معها اما هي فلا تزال تدعوني البليد الاحمق ولكن هذا لا يهمني لكثرة اضطرابها ٠ ان كمريخ قد مات ويبقى في لحده الى الابد اذا عرفت بالامر او لم تعرف٠ ان من رأوا الجند يتسابقون في الموت ويزاحم الواحد منهم الاخر يعجبون لكثرة القلق والاضطراب لموت فرد ولكني اقول لها وقد عيل صبري «انه قد مات حالاً لم يشعر بشيء وكانت علامات الهدوء والسكينة سائدة على وجهه» ان هذا القول يسكنها برهة ولكنها تعود وتقول لي على مهل «اتحلف ان كل ذلك صحيح»

«اجل اني احلف»

«اتحلف بكل امر مقدس لك»

بكل مقدس٠ واي شيء مقدس عندنا نحن الجنود ٠ ان هذه امور تتغير بتغير محيطنا وتغيرها يكون بكل سرعة ولهذا اقول لها «اجل قد مات حالاً»

«هل تقبل بهذا القسم بانك لا تعود سالماً اذا كنت لم تتكلم الصدق»

«ليتني لا اعود سالماً اذا كان هو لم يقتل في الحال»٠ اني مستعد ان اقسم بكل ما تريد والظاهر انها الان تصدق كل ما نطقت به٠ ولكنها تستمر بالبكاء والتنهد٠ وعلي ان اخبرها بكيفية وقوع الحادثة فاخترع لها قصة اكاد اصدقها انا

وعندما اودعها تقبلني مراراً وتعطيني صورة كمريخ لابساً ثيابه العسكرية منحنياً على مائدة مدورة اكل الدهر عليها وشرب٠ قوائمها من اغصان السندر ومن وراءه حرش قد رسمت صورته على سجف من القماش وامامه على المائدة كاس من البيرا

٠٠٠٠٠

هذه الليلة الاخيرة لي في البيت وها كل من فيه صامت هادي فاذهب الى فراشي مبكراً وامسك المخدة ثم اضمها الي وارمي راسي عليها ومن يعرف اذا كان يتاح لي فيما بعد ان انام على فراش وثير كهذا وفي ساعة متاخرة من الليل تاتي الي امي فتظن اني نائم اما انا فاتظاهر بالنوم العميق لان بقاءنا مستيقظين نتكلم لمن اصعب الامور على امي وعلي. اما امي فبالرغم عن الامها الجسدية تجلس بجانبي مدة طويلة فاغلب على امري واتظاهر باني استيقظ وعندما يقع نظري عليها اقول لها «اذهبي يا اماه الى فراشك لئلا تصابين بالزكام من شدة البرد» فتجيبني قائلة «لا باس يا ابناه فيمكنني ان انام كثيراً بعد ذهابك» فانهض عندئذ من فراشي واقول لها «لست براجع الى الجبهة الان بل ساذهب الى ثكنة للتدريب العسكري وقد اقضي فيها اربعة اسابيع ولعلني اقدر ان اجيء لزيارتكم في احد ايام الاحاد» فتصمت امي قليلاً ثم تسالني بلطف «هل انت خائف مما هو امامك يا ابناه»

«كلا يا اماه»

«اود يا ابناه ان احذرك من النساء الفرنسيات الشريرات»

اه ان امي لا تزال تعتقد باني صغير. ولماذا لا تفتكر وانا اقدر ان اضع راسي في حضنها وابكي كالطفل. اجل ولماذا علي ان اكون دائماً قوي الارادة والجسد. انني احب ان ابكي حتى تهون امي علي وتشجعني فما انا الا اكبر قليلاً من الطفل وها ثيابي القصيرة التي كنت البسها صغيراً لا تزال معلقة في الخزانة وهي هناك من زمن قصير. يا ليت هذا الزمن لم ينقض . ولكني اجيب امي بكل هدوء ورزانة «لا نساء البتة حيث نحن يا اماه»

«احذر لنفسك لما تكون في الجبهة ايها الحبيب» . اه ما اتعسنا

لماذا لا اضم امي بين يدي لنموت معاً. «سافعل كل ذلك يا اماه».

«واني ساصلي من اجلك دائماً يا ابناه»

«يا ليتنا يا اماه نخرج من هذا المحيط ونعبر وسط السنوات العديدة التي مرت بنا وفيها كل هذا الشقاء والتعاسة ونرجع الى الوقت الذي لم يكن فيه سواك وسواي»

«وهل بامكانك ان تحصل على عمل في الجندية اقل خطراً من مواجهة الموت في الجبهة»

«اجل يا اماه يمكنني ان اكون في المطبخ وما اسهل الحصول على هذا الامر»

«ان هذا حسن فاعمل ما بدا لك. ولكن ما رايك اذا اخذ الاخرون يتشدقون »

«ان تشدقهم بهذا الامر لا يهمني البتة»

ان وجه امي الابيض يشع في هذا الليل المدلهم وهي تتنهد

«لقد حان الوقت يا اماه ان تذهبي الى فراشك لتنامي»

اما هي فلا تجري جواباً فانهض والفها بغطائي واسندها بذراعي لانها متالمة ثم اقودها الى فراشها وابقى معها هنيهة. ثم اقول لها «يجب ان تبراي حتى اذا ما عدت اليكم في المرة التالية اراك نشيطة قوية متعافية»

«اجل يا ولدي العزيز»

«ثم يا اماه ارجوك الا ترسلي الي شيئاً مما لكم. فانا في بحبوحة ولي هناك اشياء كثيرة للاكل وانتم تنتفعون بما ترسلينه لي اكثر مني جداً»

ان امي التي تحبني اكثر من كل شيء في العالم ترتمي على فراشها

يائسة وجلة وعندما اهم بالخروج من غرفتها تقول لي «لقد حضّرت لك زوجي سراويل من الصوف. فهذه تفيدك جداً للتدفئة فلا تنس ان تضعها بين امتعتك»

اه يا اماه اعرف جيداً ما كلفتك هذه من التعب والمشقة والمشي والعمل والتسول. اه يا اماه كيف يمكن ان افارقك وهذه حالتك وشعورك . لا احد في العالم له الحق ان يدعي ملكيتي . فها انت مضطجعة على فراشك وانا بقربك نود ان نتحادث طويلاً ولكننا لا نلفظ كلمة

«اسعد الله ليلتك يا اماه»

«واسعد الله كل لياليك يا ولدي العزيز»

الغرفة مظلمة وكل ما في البيت هادىء ساكن اما انا فلا اسمع سوى دقات الساعة وتنفس امي. وفي الخارج ينفخ الهواء بشدة وعليه يكثر حفيف اشجار الكستنا . وبينما اسير الى فراشي اقع على امتعتي . قد اعدتها اختي ووضعتها في غرفتي لانني انوي السفر باكراً. اما انا فارتمي على فراشي عاضاً على مخدتي ممسكاً حديد السرير بيدي. اه يا ليتني لم اجيء بماذونية ابداً. كنت في الجبهة فلم اهتم لامر ما لا بل كنت بلا امال ورجاء اما الان فقد تغير الحال ولا يمكنني ان اصير كما كنت. كنت جندياً اما الان فلست شيئاً وما انا سوى سبب حزن وتوجع لنفسي ولامي حتى الى كل شيء لا رجاء فيه ولا نهاية له. يا ليتني لم اجيء البتة بماذونية

الفصل الثامن

اني اعرف المعسكر في المروج تمام المعرفة وفي هذا المكان درب هملستوس تجادن في كل تمارينه العسكرية ولكنني الان لا اعرف احداً من الذين في هذا المكان كل شيء قد تغير اجل ان فيه اشخاصاً قليلين قد قابلتهم سابقاً مرات قليلة. استمر في الاعمال العادية اليومية. وفي الامساء اذهب الى بيت الجنود المعد لتسليتهم. فهناك جرائد ومجلات ولكني لا اقراها ابداً. وهناك ايضاً صبيتان تخدمان في البيت وبيانو اسر جداً ان اعزف عليها

يحيط بالمعسكر حاجز عالٍ من الاسلاك الشائكة وعلينا اذا عدنا اليه متاخرين ان نثبت للخفير أن غيابنا وتاخرنا باذن اما الذين على وفاق مع الخفير فلا يهمهم هذا الامر بل يدخلون المعسكر بدون ادنى معارضة

نقوم يومياً بالتمارين العسكرية على ارض غمقة بين اشجار العرعر وغيرها. اذا كان الجندي لا ينتظر في الجندية اموراً كثيرة فالتمرينات العسكرية من الامور التي يمكن احتمالها فها بالتمرين نهجم راكضين ثم نرمي بانفسنا الى الحضيض. ان تعبنا الشديد يزيد تنفسنا فلهذا تتحرك حولنا الاعشاب والازهار وعندما نرمي بانفسنا الى الارض يمكننا ان نفحص عن قرب الرمال التي تغطي هذه الارض فاذا بها منتسقة الحجم نظيفة كانها صنعت في معمل خاص. وهذا مما يغرينا ان نحفر فيها بايدينا. واجمل كل هذا الاحراش وفيها الاشجار الجميلة التي

يتغير لونها كل دقيقة تقريباً فبينما جذوعها تظهر بيضاء كالثلج وتتدلى من اغصانها الاوراق الخضراء الناعمة كالحرير نراها تتحول بغتة الى ازرقاق كازرقاق قوس السحاب وما هذا التغيير الا نتيجة هبوب النسيم العليل المنحدر اليها من اعالي الجبال فعندما يمس هذا الاوراق الخضراء تتحول هذه كلها حالاً الى زرقاء وما هي الا لحظة الا وتصير هذه قاتمة كانها سوداء او كالشمس وقد غطتها الغيوم ثم تسير هذه الغيوم في طريقها كانها شبح او خيال وقد اختفى في الفضاء ما وراء الافق فتعود الاشجار الى حالتها الاولى كانها اعلام الفرح وقد نشرت على اعمدة بيضاء وعلى هذه الاعلام بقع حمراء هي اوراق الشجر وقد صبغها الخريف بلونه الاحمر المذهب

وكثيراً ما يشرد عقلي في النظر الى هذه الاخيلة الشفافة الجذابة فلا اسمع الاوامر التي تصدر الى فرقتي. فالفرد يبتدىء ان يتعلق بالطبيعة ويحبها عندما يكون في احضانها منفرداً لوحده وحيث انا الان لا اصدقاء لي كما واني لا اطلب مزيداً وكل ما لنا من الصداقة هو اننا يعرف الواحد منا الاخر معرفة بسيطة لدرجة نقتصر معها على نكات قليلة او لعب البوكر او النوم عند المساء

مقابل المعسكر الذي نخيم فيه مخيم الاسرى الروسيين وهو مفصول عنا بحاجز من الاسلاك الشائكة غير ان هذه لا تمنع هولاء الاسرى من المجيء الينا وتلوح عليهم كلهم علامات التعب العصبي والخوف ومع ان كثيرين منهم ذوو اجسام كبيرة ولحى طويلة لكنهم ضعفاء كانهم كلاب انهكهم التعب والجوع. وها هم ينسابون حول مخيمنا يلتقطون فضلات اللحم من العلب التي نرميها . ولكن ليتصور القارىء مقدار نصيب هولاء التعساء لاننا نحن قل ما نجد طعاماً يكفينا وان كان لنا

شيء من الطعام فما هو الا لفت والواحدة منها مقطوعة الى ست قطع مسلوقة بالماء فقط او رووس الجزر الغير مغسولة او قطع البطاطا الصغيرة جداً. ثم اذا كان ولا بد من الانعام علينا فيكون طعامنا شوربا الرز فيها قطع اللحم الصغيرة التي لا يمكن الوصول اليها الا سباحة. فمن هذا ناكل كل شيء يقدم لنا وناكل كل الحصص التي تقدم لنا واذا وجد بيننا من حالته تعينه ان لا ياكل حصته كلها فيكون بقربه عشرات منا مستعدون ان يريحوه من حمله هذا. ولهذا لا يبقى في اللعلب الا الحثالة التي لا يمكن وصول الكفكير اليها وهذه فقط التي ترمى الى النفايات وفي بعض الاحيان نرمي مع هذه النفايات قشرة اللفت وفتات الخبز وما شاكل من القشور والبقايا . هذه النفايات القذرة والاطعمة السخيفة هي التي يندفع اليها الاسرى متزاحمين فيلتقطونها من صناديق الاقذار كانها جوهرة لا تثمن ثم يخبئونها تحت البستهم ويهربون بها. من الامور الغريبة ان يكون هولاء بقربنا وهم اعداؤنا. وجوههم تظهر انهم شعب امناء. وما هي الا وجوه الفلاحين المجتهدين عليها جبهات عريضة وانوف كبيرة وافواه واسعة وايد ضخمة وشعور كثيفة . كان الاولى بهولاء ان يكونوا الان في حقولهم يحصدون ويجمعون محصولاتهم الى مخازنهم او ان يكونوا في البساتين يجمعون اثمارها فها هم ودعاء لطفاء كالفلاحين في بلادنا

ان منظر هولاء يستعطون طعامهم لمحزن للغاية وحركاتهم التي تدل على ضعفهم وانهاك قواهم لمن الامور التي تكسر القلب فها هم لا ينالون من الطعام الا النزر اليسير الذي يقيهم فقط من الموت جوعاً. وها نحن لم ننل كفافنا من الطعام منذ زمن بعيد وهم الان مرضى بالدوزنطاريا يختلسون الدقائق لينشروا في الهواء قمصانهم الملوثة

بالدماء منحني الظهور مدلي الرووس ركبهم ترتجف يمدون ايديهم الضعيفة يستعطـون بالكلمـات الالمانية القليلـة التي يعرفونها. ان اصواتهم بالاستعطاء شجية كانها الموسيقى وعذبة مريحة تذكرنا بزوايا بيوتنا الدافئة ايام الشتاء

اجل ان بيننا من يدفعونهم بارجلهم عندما يتقدم هولاء الاسرى اليهم فيسقطون الى الارض ولكن هولاء قليلون جداً والاكثرية بيننا يمرون بهم دون ان يعيروهم ادنى انتباه وفي حالة تماديهم بالخساسة والذل يجن الواحد منا فيرفسهم ويا ليتهم لا يتصرفون هذا التصرف. ما اعظم التعاسة والشقاء اللذين يظهران في عيني الواحد منهم وعين الواحد منهم لا تزيد راس الاباهم حجماً

يجيء هولاء الينا في المساء للمتاجرة فيبدلون كل شيء معهم بالخبز وفي بعض الاحيان تكون صفقاتهم رابحة لان احذيتهم جيدة جداً واحذيتنا رديئة جداً فالجلد المصنوعة منه احذيتهم ناعم كالحرير والفلاحون بيننا الذين تاتيهم الهدايا من بيوتهم يسرون جداً بان يدفعوا ثمن هذه الاحذية القوية الناعمة الجميلـة مما ارسله لهم ذووهم. المعروف ان ثمن زوج احذية رغيفان عسكريان او ثلاثة او او رغيف واحد وتعيين واحد من المقانق

غير ان هولاء الروسيين قد انفقوا كل مالهم وما عليهم الان الا خرق بالية لا يمكن المتاجرة بها ولكنهم يحفرون بايديهم على شظايا القنابل او قطع من النحاس ويدفعون هذه ثمن ما يبتاعونه من الطعام. ان اثمان هذه السلع بخسة جداً رغم كونهم قضوا اياماً وساعات في صنعها فثمن الواحدة منها لا يزيد عن القطعتين الصغيرتين من الخبز. ان الفلاح الالماني صعب ومحتال في امر المساومة فها هو يمسك بيده قطع الخبز

والمقانق امام اعين هولاء الجياع وهذا مما يزيد في جوعهم فتنتفخ اعينهم وعندها يبذلون كل ما في طاقتهم في سبيل الحصول على ما ارتبطت به اعينهم . وعند حصولهم عليها يلفونها بكل تحفظ واعتناء ثم يتناولون سكاكينهم ويقطعون بكل تأن قطعاً صغيرة من الخبز ويقضمون مع كل لقمة منها جزءاً صغيراً من المقانق . انهم يجدون في هذا ما يلذ لهم ويشبعهم . ومن الامور المحزنة والمؤلمة ان ننظر اليهم يلتهمون طعامهم كل يوم بعد الظهر ويخال للناظر اليهم انهم يستحقون الضرب واللطم لانهم ممسكون لا يعطون شيئاً مما امامهم. اه ما اقل معرفة الواحد منا بالاخر

علي بعض الاحيان ان اخفر هولاء الروسيين وها هم في الظلام يسيرون كانهم طيور ضخمة مريضة او اشباح البجع الضعيفة المنهوكة القوى يلتصقون بالحاجز ويسندون رؤوسهم على العواميد ويمسكون الاسلاك بايديهم ولطالما يقف الواحد منهم قرب الاخر يتنشقون الهواء الذي يهب اليهم من المروج والاحراش المجاورة . ان هولاء قليلو الكلام جداً ولا يتلفظون الا بكلمات قليلة. ويظهر لي انهم يعاملون الواحد الاخر منهم بروح الاخاء والعطف الانساني اكثر جداً منا ولعل ذلك لانهم يشعرون بانهم اسوا حالاً منا. وفي كل الاحوال يمكنهم القول ان حربهم قد انتهى امرها ولكن بقاءهم مكتوفي الايدي تفتك بهم الدوزنطاريا لهو الموت الزوام بعينه

اكثر نشاطاً وحركة وكثيراً ما كانت حركتهم تؤدي بهم الى الالتجاء

ان الجنود الذين كانوا يحرسونهم يقولون انهم كانوا في بادىء الامر الى المدى او الملاكمة. اما الان فقد فقدوا كل عاطفة وهم قد فقدوا كل لذة بالحياة فاقلعوا عن عادات كانت تلذ لهم وهم ضعفاء منهوكو

القوى لا يقدرون على شيء. فلا عمل لهم الا الوقوف قرب الحاجز وعندما يذهب احدهم من قرب الحاجز يحتل رفيقه محله وهم في وقوفهم هذا ايضاً ساكتون هادئون واذا تكلم احد منهم فانما ليطلب بقية سيكارة نرميها الى الارض

اخفرهم ليلاً وارى اشباحهم تتحرك وارى لحاهم يحركها الهواء رغم ظلام الليل الدامس. كل هذا وانا لا اعرف عنهم شيئاً وكل ما اعرفه عنهم انهم اسرى وهذه المعرفة تزعجني وتقلقني فلا لوم عليهم ولا تثريب وها حياتهم في حالتهم الحاضرة في ظلام دامس محجوبة عن كل امل ورجاء. ولو قدرت ان اعرف اسماءهم او كيف يعيشون او ماذا ينتظرون وما هي امالهم او ما هي اتعابهم واثقالهم لكان لشعوري معهم غاية خاصة ولعاطفتي مرمى معين. ولكن كما هي حالتهم الان فلا ارى وراءهم الا البشرية المتالمة والشؤم المتناهي في الحياة والبربرية والقسوة الكاملتين في الانسان فصدور امر من رئاسة ما يجعل هولاء الودعاء اللطفاء اعداء لنا وقد يعيدهم اصدقاء امر اخر يصدر من رئاسة ايضاً

يجلس اثنان الى مائدة ويوقعان على معاهدات رسمية او اتفاقيات دولية كل هذا يجري ونحن لا نعرف عنه شيئاً لا بل قل لا راي لنا به البتة. ومع هذا كله نصير بكليتنا عبيد تلك الاتفاقية نندفع كل الاندفاع في اتمام ما تحمله من الخطايا والذنوب وان ما تقاسي منه البشرية الامرين يصير غايتنا في الحياة. ومن يقدر ان يفتكر بهذه الفظائع عندما ينظر الى هولاء الحملان الذين وجوههم كوجوه الاطفال ولحاهم كلحى الرسل. ان عداوة الضابط لجندي بسيط في فرقته لاشد جداً من عداء هولاء لنا. واوكد ان المعلم لاكثر بغضاً ومخاصمة لتلاميذه مما

هولاء الاسرى لنا. ومع كل هذا فاننا لا نانف ان نرميهم بالرصاص وهم لا يتاخرون عن امطارنا بشآبيب الرصاص فيما لو فك اسرهم

يقشعر بدني ولا اجرا ان اعود بالفكر الى ما خامرني من هذه الافكار ففي طريقنا هذه هوة عميقة لم يحن الوقت بعد لسدها ولكنني ساحتفظ بافكاري هذه بحصن حصين حتى تنتهي الحرب. فها دقات قلبي السريعة تعلمني ان ما كنت افتكر به في الخنادق هو المرمى الوحيد العظيم الذي يجب ان نتوخاه بعد هذه المجزرة العالمية وهو المبرر الوحيد لبقائنا احياء بعد هذه الحالة التي ابادت كل عاطفة بشرية فينا. ان هذا هو مجهودنا وعملنا لتكون الحياة بعد هذه الحالة تستحق هذه السنوات المخيفة التي تشيب الاطفال

اتناول سيكاراتي واقطع كل واحدة منها الى قسمين واوزع الكل على الروسيين فينحنون امامي ويدخنون سيكاراتهم وعليه يظهرون وفي وجه كل واحد منهم نقطة حمراء ومنظرهم هذا ما يجلب لقلبي شيئاً من الراحة والعزاء وهم والسيكارات مشعلة في افواههم والظلام يكتنفهم يظهرون كانهم اكواخ قرية بعيدة مفتوحة النوافذ يسود السلام على ساكنيها

* * * * *

تمر الايام بنا وكل يوم يموت احد الاسرى الروسيين وها اليوم وتغطي الغيوم الكثيفة شمسه يسير الاسرى ليواروا رفيقاً لهم الثرى ونوبتي ان اكون حارسهم في سيرهم لاتمام هذا الواجب. يجتمع الاسرى ويرنمون ترنيمة موسيقاها مقطعة للاصوات الاربعة فالسامع لا يحسب ان هذا صوت بشر بل انما هذا صوت ارغن كبير بعيد. يتمون واجب الدفن بسرعة ويعودون في المساء الى الوقوف قرب الحاجز ويهب

عليهم النسيم العليل القادم اليهم من الاحراش والمروج. اما الامساء فبردها قارص. بعد كل هذه المدة تعرفت ببعض هولاء الاسرى الذين يتكلمون الالمانية بينهم موسيقي قال انه كان يعزف على الكمنجة في برلين ولما اخبرته اني اعزف على البيانو يركض وياتي بكمنجته ويعزف عليها ساعات متوالية والباقون يجلسون ويسندون ظهورهم الى الحاجز اما هو فيبقى واقفاً يعزف على كمنجته وكثيراً ما تطير به الموسيقى الى عالم الغيب شان كل الموسيقيين عندما يغمضون عيونهم ثم يعود الى هز كمنجته هزاً يلائم اللحن الذي كان يعزفه ثم ينظر الي مبتسماً. ان اكثر الالحان التي يعزفها هي الحان شعبية وارفاقه يدمدمون بينما هو يعزف. وهم بهذا يمثلون بلاداً في تلال واودية مظلمة يتغنى سكانها وهم تحت الارض. اما صوت الكمنجة فيرتفع فوق كل الاصوات كانه صوت صبية واضح جلي وهي تغني لوحدها. ثم يسكت الكل وتستمر الكمنجة في عملها وصوتها في الامساء نحيف لدرجة نخالها جليدية فيا حبذا لو كان هذا الاجتماع في غرفة لكان اولى وافعل وهذا الجو الموسيقي في بقعة كالبقعة التي نحن فيها يولد الحزن في قلوب السامعين

.....

ان ماذونيتي الطويلة تحرمني من زيارة اهلي ايام الاحاد فلهذا جاء ابي واختي الكبرى لزيارتي في الاحد الاخير لي في الثكنة وقبل انتقالي الى الجبهة ولهذا نبقى في البيت المعد لراحة الجنود كل النهار فاين يمكننا ان نقضي النهار ولا محل لنا غير هذا الملجا وعند الظهر نتمشى الى المروج. ما اصعب هذه الساعات انها والحقيقة لسبب عذاب وآلام شديدة لنا لاننا في حيرة بما نتكلم عنه فنعود الى الكلام عن مرض

امي. وقد تاكد لنا انها مصابة بالسرطان وها هي في المستشفى وسيجرون لها عملية جراحية في القريب العاجل. الاطباء يأملون بشفائها اما نحن فلم نسمع ان مصاباً بالسرطان قد شفي

«اين هي الان»

فيجيبني ابي قائلاً «انها في مستشفى القديسة لويزا»

«وفي اي درجة من درجات المستشفى هي»

«في الدرجة الثالثة. علينا ان ننتظر لنعرف قيمة اجرة العملية وزد على ذلك انها هي طلبت ان تكون في الدرجة الثالثة لانه ارخص ويكون لها رفيقات تكالمهن»

«اذن هي هناك ومن حولها هذا الرهط الكبير. عساها تتمتع بنوم ملائم فهذا مهم جداً لها»

يحني ابي راسه. وها وجهه الان مجعد. امي عاشت كل حياتها مريضة ومع انها لم تذهب الى المستشفى الا عند اجبارها على ذلك ولكن ابي انفق على معالجتها اموالاً طائلة واكاد اقول ان كل ما انتجه ابي انفقه في هذا السبيل

ثم يقول ابي «يا ليتني اعرف كم تكون نفقة العملية»

«الم تسال عن ذلك»

«كلا لم اسال مباشرة خوفاً من ان يجفل الطبيب من سوال كهذا فيمتنع عن اجراء العملية»

اجل ان هذه حالتنا نحن الفقراء . حالة مرة فنحن لا نجرا ان نسال الطبيب عن اجرته قبل مباشرته في العمل خوفاً من ان يجفل الطبيب ولكننا نقلق من جهة هذا الامر قلقاً لا مزيد عليه. اما اولئك فيساومون ويتفقون مع الطبيب على كل شيء قبل مباشرة العمل ومع ذلك

لا يجفل الطبيب ثم يقول ابي «ان الاربطة بعد العملية غالية جداً»

فاجيبه انا «الا يدفع لك جزءاً منها من المال المجموع للعجزة»

«امك مريضة منذ زمن بعيد»

«هل معك دراهم»

فيهز ابي راسه نافياً ويقول «لا ولكني اقدر ان اعمل بعد الوقت المعين ساعات معلومة»

اعرف انه سيجلس امام طاولته عاملاً في طوي الاوراق وتلصيقها وقصها حتى منتصف الليل ويلتهم عند الساعة الثامنة مساء مواد قذرة ينالونها مقابل تذاكر الطعام التي يوزعونها عليهم. ثم يبلع قليلاً من المسحوق الذي يخفف الام راسه. ولكي اهون عليه احدثه عن النكات التي تجري في الجندية مع الجنود والضباط والقواد. وبعده ارافقهما الى محطة القطار وعند وداعهما يعطياني ابريقاً مملوءاً من الحلوى صنع البيت وكيساً فيه كعك صنعته لي امي من البطاطا. ثم يسير بهما القطار واعود الى المعسكر. وفي المساء اطلي قليلاً من الكعك بالحلوى والتهمه فلا اجدها لذيذة ثم انوي ان اوزع الكل على الروسيين ولكني حالاً اتذكر ان امي وهي مثقلة باوجاعها قد وقفت امام النار ساعات تعتني بها وكل ذلك لخاطري فاعود واضعها مع امتعتي في الكيس غير اني اتناول منها كعكتين لاعطيهما الى الروسيين

الفصل التاسع

سفرنا يدوم اياماً عديدة . وتظهر لنا في سفرنا طلائع الطيارات ايضاً ونمر بفرق النقل تنقل المدافع. اه من المدافع المدافع. وفي الطريق تلتقطنا القطارات الخفيفة اما انا فاطلب فرقتي ويظهر ان لا احد يعرف مقرها ولهذا اقضي ليلي كيف اتفق واتناول طعاماً باي طريقة ممكنة ومع الطعام بعض التعليمات الغير الواضحة وهكذا استمر في سفري وعلى ظهري بندقيتي وامتعتي

وفي الوقت الذي اصل به الى حيث اخبرت ان فرقتي فيه تكون الفرقة قد انتقلت منه ويكون قد لعب في موضعها التدمير واتحقق ايضاً ان الفرقة قد صارت من الفرق السريعة التنقل التي يرمون بها حيث يحمى وطيس الحرب ويشتد سعيرها ومن الطبيعي ان هذا النبأ لا يسرني قط وبالاخص ومن اجدهم يخبرونني عن الخسائر الجسيمة التي تتكبدها. فاسالهم عن كاتزنسكي والبرت ولكنني لا اجد من يعرف عنهم شيئاً. اواصل البحث والتجوال وفي ليلتين متواليتين انام في البراري كالهندي الاحمر ولكني اتمكن اخيراً من الحصول على ارشادات صحيحة فاسير بموجبها حتى اصل بعد ظهر هذا النهار الى مكتب بوليس الجندية اما رئيس المكتب فيقيني حيث انا لان الفرقة ستعود من ساحة الحرب بعد يومين فلا لزوم لالحاقي بها. ويسالني رئيس المكتب «كيف وجدت الماذونية هذه جميلة جداً اليس كذلك»

«بعضها مبهج وجميل»

«اجل كانت كلها جميلة ومبهجة لو لم تجبر على الرجوع الى ساحة الحرب. ان هذا ما يعكر صفاء القسم الاخير منها»

وهكذا اقضي ايامي متكاسلاً متنقلاً من مكان الى اخر حتى تعود فرقتي باكرًا في الصباح وها هم كلهم صفر الوجوه تعابى تعلوهم الاقذار والجروح وكلهم عابسون يائسون. ولكنني للحال اركض اليهم وابتدىء بالمزاحمة والدفع طالباً اصحابي. فها تجادن وهناك مولر ينظف انفه وهنالك كاتزنسكي وكروب فللحال نرتب اكياس القش لننام عليها الواحد قرب الاخر. انني وانا انظر اليهم اجدني قلقاً للغاية من نحوهم مع ان لا سبب قط ان اكون قلقاً. وقبل ان نتم كل شيء اجلب لهم ما بقي معي من الكعك والحلوى ليتمتعوا بها ايضاً. الكعكتان اللتان على الوجه قد تعفنتا ولكنهما لا تزالان صالحتين للاكل فآخذهما نصيبي واعطي ما هو احسن منهما الى كاتزنسكي وكروب. وبينما كاتزنسكي يمضغهما يقول لي «ان هذه كلها من امك» فاحني راسي ايجاباً

«يمكن معرفة هذا من طعمها اللذيذ»

ان قوله هذا يحرك في البكاء ومن الصعب علي ان اهدىء روعي او اضبط نفسي عن البكاء. ولكن لا باس ان عشرة كاتزنسكي والبرت سترجع الامور الى مجراها. فيحق لهذا المكان ولهذا المكان فقط ان يدعي ملكيتي

وقبل ان تنام يهمس كروب في اذني «ما اسعدك. الشائع اننا ذاهبون الى روسيا»

لا حرب البتة في روسيا بينما هنا في الجبهة لا ينقطع دوي المدافع

وقصفها ولطالما تهتز حيطان اكواخنا من شدة هذا الدوي والقصف

.....

ان صقل عددنا وتنظيف معداتنا قائمان على قدم وساق وفي كل لحظة نجدهم يدققون بفحص كل عتادنا وها هم يعطون اشياء جديدة بدل كل قديم من عتادنا وينالني من هذا جاكت جديدة للغاية اما نصيب كاتزنسكي فجديد من «البابوج حتى الطربوش»

ثم تسري بيننا شائعة ان عن قريب سيسود السلام ولكن القول بذهابنا الى روسيا اقرب الى المعقول واوقع من الاول. ولكن ما هذه الاستعدادات كلها اذا كان نصيبنا الذهاب الى روسيا اذاً لا حاجة لنا بها

اخيراً تتسرب الينا الاخبار بان الامبراطور سيحضر لاستعراض الجيش وان كل هذا التفتيش والتدقيق استعداد لهذه الزيارة. تستمر هذه العملية ثمانية ايام متوالية نخال فيها اننا لا نزال في الثكنات العسكرية نتمرن وها كلنا الان ضيقو الصدر سريعو الغضب تتعبنا هذه التنظيفات والصقل واكثر منها يضايقنا السير العسكري بالصفوف ان اموراً كهذه تضايق الجندي وتزعجه اكثر جداً من اهوال الجبهة الحربية

وبعد كل هذه الاستعدادات تدق الساعة فنقف منتظمين ويظهر القيصر وفي كل منا ميل ان يتبين شكله وهياته. يمر بنا بسرعة كلية

ان الصور المرسومة في مخيلتي عنه قد تلاشت لانني بنيت هذه الصور على ما رايته في صوره المنتشرة. كنت اظنه اكبر جسماً واقوى عضلاً واعلى صوتاً. اما هو فيوزع علينا نياشين «الصليب الحديدي» مخاطباً هذا وذاك وبعده نسير امامه صفاً صفاً

ولكن بعد هذا نتحادث بالامر فيقول تجادن متعجباً

«هذا هو الاعظم وهذا هو الذي يقف امامه الكل دون استثناء منتصبين لا يجراون على حركة ما. حتى ان هندنبرغ نفسه لا يجرا على عكس هذا امامه»

فيقول كاتزنسكي «بدون شك ان هذا واجب»

اما تجادن فلم ينه كلامه بعد وبعد افتكار يستانف الكلام «اعجب هل يقف الملك امام القيصر منتصباً وقفتنا نحن الجنود»

ان هذا امر لا يعرفه احد منا غير اننا نظن بما انهما متساويان بالعظمة والقدرة يتساهلان بهذا الامر . كاتزنسكي يقول «ما هذه البيضة التي وضعتها. الامر المهم عليك ان تقف منتصباً جامداً امام القيصر»

غير ان تجادن ماخوذ بالقيصر فتمر التخيلات العادية في مخيلته فيعود الى الكلام ويقول «انتبهوا قليلاً اكاد لا اصدق ان القيصر يذهب الى بيت الخلاء كواحد منا»

«هل تراهن على حذائك فيما اذا كان ما تقوله غير صحيح»

فيقول كاتزنسكي «ان اربعة وخمسة سبعة اه على قصورك. ان في دماغك فتلة يا تجادن فاركض الى بيت الخلاء وافرغ فيه ما في راسك من وساوسه حتى لا تعود تتكلم كابن سنتين» فيخرج تجادن

ثم يستانف كاتزنسكي قوله «ما اود ان اعرفه فيما اذا كانت وقعت الحرب لو قال القيصر لا»

فقلت «الحرب واقعة لا محالة لان القيصر كان في بادىء الامر اشد المعاكسين لوقوعها»

«حسن ما قلته ولكن ما رايك فيما لو قال لا عشرون شخصاً او ثلاثون غيره من اقطار المعمور»

«اجل ان عدم وقوع الحرب عندذاك محتمل ولكن الكل قالوا نعم»

فيقول كروب «الامر غريب عجيب في نظر المفكر المدقق نقول اننا نحمي بلادنا من غارات العدو والفرنسيون يصرحون التصريح هذا بعينه فمن منا مصيب فاقول وانا لا اصدق ما اقول «لعل الفريقين على صواب» فيظهر البرت ويقول وكانه يريد ان يجذبني الى زاوية خاصة «حسن ما تقولونه ولكن ما قولكم وها اساتذتنا وكهنتنا وجرائدنا ينادون باننا على صواب ولنا امل اننا على صواب وها اساتذة الفرنسيين وجرائدهم وكهنتهم يقولون انهم على صواب واننا على ضلال مبين»

فاجبته «ان هذا امر لا اعرفه وما اعرفه شيء واحد هو اننا في حالة حرب وان الامم المشتبكة بها يزيد عددها شهراً فشهراً»

يرجع تجادن وهو لا يزال قلقاً فيتساءل «كيف تنشا الحروب» فاجاب البرت «يكون ذلك بان تسيء بلاد الى اخرى اساءة كبيرة» قال هذا بعجرفة كانه متفوق علينا في المعرفة فيجيب تجادن متهكماً «بلاد تسيء الى اخرى. انا اكاد لا افهم هذا. ان جبلاً في المانيا لا يستطيع ان يسيء الى جبل في فرنسا ونهراً او غابة او حقلاً من القمح لا يستطيع ذلك». فيغمغم كروب بقوله: «هل انت حقيقة بهذا المقدار من البلاهة او انك تحاول امتحاني. انا لم اقصد ذلك بقولي بلاد تسيء الى اخرى وان ما قصدته هو ان يسيء شعب الى اخر». فيجيب تجادن «اذاً ليس لوجودي انا هنا من معنى. فانا لا اشعر ان احداً اساء الي». فيجيبه البرت بحرارة: «حسناً. دعني اخبرك. ان هذا لا يصدق على الافاقين امثالك». فيرد عليه متسائلاً: «اذاً بوسعي ان اعود حالاً الى بلدتي. عندها نضحك جميعاً فيصيح مولر

«اف يا رجل! انه يعني الشعب على العموم والحكومة». فيقضم

تجادن اصبعه باحتقار ويقول «الحكومة . بما فيها الدرك والشرطة والجباة : هولاء هم الحكومة. اذا كان هولاء ما تعنيهم فلا شكر لك عني لانك لم تزدني ايضاحاً»

فيقول كاتزنسكي «هذا صحيح انك قلت وقد اصبت مرة في حياتك ان بين معنى الحكومة والوطن فرقاً كبيراً»

فيجيب كروب مؤكداً «ان الحكومة والوطن يمشيان جنباً الى جنب فبدون الحكومة لا يمكن ان يكون الوطن»

«هذا صحيح ولكن اعتبر اننا كلنا تقريباً قوم سذج. كذلك الامر مع الافرنسيين حيث اكثرية الجيش من العمال والصناع والكتاب الفقراء. فاذا كان ذلك كذلك فما نفع الحداد الافرنسي من مقابلتنا ؟ لا. انهم الحكام فقط. انني لم اشهد افرنسياً واحداً قبل مجيئي الى هنا وهذا تماماً هو شان الافرنسيين بهذا الاعتبار. فلم يكن لهم من الخيار في ذلك اكثر مما لنا»

فيسال تجادن «اذاً لماذا وجدت الحروب» فيهز كاتزنسكي كتفيه ويقول «يجب ان يكون هناك من ينتفع بالحرب»

فيحرق كاتزنسكي باسنانه ويقول «طيب. انا لست منهم». فيرد عليه البرت «لا انت ولا واحداً اخر»

فيسال تجادن «من هم اذاً. فالحرب ايضاً ليست مفيدة للقيصر فيما اعتقد. فلديه كل ما يحتاج اليه»

فيعارضه كاتزنسكي بقوله «انا لست متاكداً من هذا. فالقيصر لم يشعل قبل الان نار حرب من الحروب. وكل امبراطور عظيم يحتاج لاشعال نار حرب واحدة على الاقل. والا فلا سبيل الى اشتهاره. ارجع في ذلك الى كتبك المدرسية»

ويزيد ديترنج على ذلك بقوله «كذلك القواد تشهرهم الحروب».
فيزيد كاتزنسكي على ذلك قوله «انها تشهرهم اكثر من الملوك»
فيغمغم ديترنج بقوله «ان وراء هولاء اناساً ينتفعون بالحرب وهذا امر مؤكد»

فيقول البرت «اظن انها نوع من الحمى. فلا احد من البشرية يريد الحرب ومع ذلك فالكل يشتركون فيها. فنحن لم نرد الحرب كذلك الاخرون يدعون ذلك. ومع ذلك فنصف العالم منغمس فيها»

وقلت بعدها «لكن الطرف الاخر يكذبون اكثر منا. تاملوا تلك المنشورات التي تعلق على المسجونين والتي يقال فيها اننا ناكل الاولاد البلجيكيين. ان اولئك الذين يقولون هذا اولى ان يذهبوا ويشنقوا نفوسهم. انهم هم المجرمون الحقيقيون»

فيقف مولر ويقول «كيف كان الحال كون الحرب هنا افضل جداً من ان تكون في جرمانيا. انظروا الحفر التي حفرتها القذائف».
ثم يقول تجادن «ولكن افضل من كل ذلك ان لا تكون حرب ابداً»

ان هذا القول يجعل تجادن فخوراً متكبراً لانه هذه المرة يفوقنا كلنا نحن المتطوعين حكمة. وما هو في رايه هذا الا معبر عما يختلج في صدر كل منا ولا يقدر احد منا ان يعارضه في الامر اذ لا حجة له. وهذا كل ما يفهمه الجندي من كل العوامل الفعالة في الحالات التي مر ذكرها. وعند التحليل نجد ان الشعور الوطني في كل جندي هو كناية عن اعتقاده انه في ساحة الحرب وهذا كل ما في الامر ولكنه بالوقت نفسه ينظر الى كل الامور بعينه النقادة وانتقاده يكون فقط من الوجهة العملية التي يراها هو

البرت يكون مضطجعاً على العشب ويقول غاضباً «وافضل من كل هذا

الا نتكلم عن هذه الامور الممقوتة» فيوافقه كاتزنسكي ويقول «اجل ان كل كلامنا لا يؤثر قط في الحالة»

ان الأمتعة الجديدة التي اعطيناها كانت لظروف الاستعراض فعلينا الان ان نرجعها وهذا مما يزيد في شقائنا وتعاستنا

.....

الاشاعة اننا ذاهبون الى روسيا تتحول الان الى حقيقة اخرى هي ذهابنا مرة اخرى الى خط النار وفي طريقنا نمر في حرش مندثر خرب جذوع اشجاره مبعثرة وارضه قد فلحتها قذائف المدافع. وفي اماكن عديدة فوهات ضخمة فاقول الى كاتزنسكي «هذه مدافع ضخمة قد اسكتتها امور اخرى» . فيقول كاتزنسكي «ان هذه مدافع الخنادق» ويومىء لي الى الاشجار امامنا فانظر واذا بموتى عديدين معلقين في اغصانها . جندي عارٍ جالس القرفصاء عند تشعب اغصان شجرة . اجل لا يزال لابساً خوذته وفيما عدا ذلك فهو عارٍ من كل نوع من اللباس وعند التحقيق نجد انه ليس بكامل لان ساقيه مفقودتان وما الجالس في الشجرة سوى نصفه الاعلى. فاسال من حولي «وما عسى ان يكون ذلك». فيقول تجادن «ان قنبلة خلعت ثيابه عنه واجلسته حيث هو» اما كاتزنسكي فيقول «هذا منظر مضحك وقد رايناه مراراً عديدة. ان المدافع القصيرة اذا اصابتك قذائفها تخرجك عارياً من ثيابك وتطير بك. وما هذا الا نتيجة الصدمة القوية»

فانظر ذات اليمين وذات الشمال فاجد معلقاً على هذه الشجرة بقايا بدلة عسكرية وملتصقاً بالاخرى كومة مضرجة بالدماء كانت منذ ساعات هيكلاً بشرياً ونفساً حية وفي موضع اخر مطروح جسماً بشرياً ما عليه من الثياب سوى قطعة صغيرة من ثيابه التحتية وحول عنقه بقية من قبة

ردائه وهو فيما عدا ذلك عارٍ وثيابه معلقة بشجرة بالقرب منه وذراعاه مفقودتان كانهما قد سحبتا من موضعيهما واني اجد احداهما في شجيرة تبعد عن الجسم عشرين متراً. والمائت هذا مطروح ووجهه الى الارض والارض القريبة من الجراح في ذراعه سوداء لاختلاطها بدمه. وها تحت اقدامه نجد اثار حفرة دلالة على ان الرجل قد لبط وتحرك كثيراً في احتضاره فاقول لكاتزنسكي «ان هذا الامر ليس نكتة نضحك لها» فيجيبني قائلاً «شان هذا الامر شان شظية قنبلة في جوف جندي» يقول هذا ويهز كتفيه فيقول لنا تجادن «قسوا قلوبكم يا شباب»

كل هذه الفظائع قد حدثت منذ ساعات قليلة لان الدماء لا تزال طريئة على الارض ولاننا نجد الكل موتى فلا نضيع وقتاً في تفحصهم بل نسرع لنخبر مركز المولجين بالمحامل . وما امر نقل الجرحى والموتى من اعمالنا حتى واننا لا نحسد من يقومون به ولا نود ان نسلبهم عملهم

.....

على بلوك منا ان يذهب ليستكشف موضع العدو ويعرف قوته. وها انا منذ عودتي من ماذونيتي اشعر بالتصاق غريب بارفاقي الجنود فاتطوع ان اذهب معهم في مهمتهم هذه. فنتفق على خطة هي ان ندخل الى منطقة العدو بين الاسلاك وهناك ننبث منفردين ويزحف كل منا على حدة. وبعد برهة وجيزة اجد حفرة من حفر القنابل غير عميقة فاختبىء فيها ومنها اتطلع الى ما هو امامي

اننا الان تحت نيران المدفعية في حالة متوسطة وهي تئز حولنا من كل جانب . اجل ان اطلاق المدافع هذه المرة غير قوي ولكنه يكفي بان يوجب على الواحد منا ان يحتفظ بالحفرة المختبىء فيها

هذا وتنتشر فوقنا القنابل التي تفتح كالمظلة وترسل نورها الى مسافات بعيدة وتحت هذه الارض ساكنة جامدة يضيء عليها نور هذه المظلات الضئيل وما هي لحظة الا ويعود الظلام الدامس يكتنفها . قد قيل لنا ونحن في الخنادق ان امامنا الجنود السودانيين فهذا امر سافل لانه من الصعب روية هولاء ولهذا هم ذخيرة ثمينة للاستكشاف وزد على ذلك انهم حمقى جهلاء . خذ لك مثلاً ان احدهم بالاستكشاف لم يدرك الخطر المحدق به اذا اشعل سيكارته فاشعلها وبهذا اهتدى اليه كاتزنسكي وكروب ورمياه بالرصاص فقتلاه وما كان عليهما الا ان يصوبا بندقيتيهما الى السيكارة المشعلة المحترقة

تسقط بقربي قذيفة لم اسمع دويها قبلاً فاذوب خوفاً . انا في هذا المكان منفرد وحيد ولا معين لي وقد يكون ان عينين ترقبان حركاتي وهما اللتان قذفتا هذه القذيفة علي لتقطعني ارباً ارباً . اما انا فاحاول ان اعود الى رشدي . اجل لم تكن هذه المرة الاولى التي اذهب بها مستكشفاً وليست مخاطرها اكثر مما اعتدنا عليه ولكنها المرة الاولى بعد عودتي من ماذونيتي وزد على ذلك انني اجهل الارض وما عليها وما يحيط بها

فاعود اشجع نفسي مقتنعاً ان لا مبرر ابداً لخوفي وانه من الممكن ان لا يكون احد في هذا الظلام الدامس يراقبني ودليلي في ذلك ان النار ليست حامية الوطيس . ان كل هذا لا يجديني نفعاً فلا ازال مضطرباً حائراً الامر الذي جعل افكاري اصواتاً اسمعها وتنتقل الى دماغي . فاسمع امي تحذرني من مخاطر الحرب وارى الروسيين السجناء بلحاهم الطويلة مستندين الى الحاجز وفي مخيلتي صورة واضحة عن الكنتين في ڤالنسيا وامامه سينما وكراس وها خوفي وعذابي يصوران

لي اني ارى بندقية فوهتها مصوبة علي تتحرك معي كيف اتحرك دون ان تحدث ادنى صوت فيتصبب العرق من كل المسام في جلدي. ومع هذا ابقى منطرحاً في الحفرة وانظر الى ساعتي فاجد انه لم يمر سوى دقائق قليلة . العرق يتصبب على جبيني والدموع تتساقط من عيني ويداي ترتجفان واني الهث لهثاً متقطعاً وما هذا الا علامات الخوف الحيواني ان يطير راسي ويتدحرج امامي

ثم تتحول كل جهودي الى ما اعتدت عليه الا وهو ان ابقى منطرحاً على الارض فها يداي ورجلاي ملصوقة في الارض فاحاول ان اقلعها من الارض فلا افلح. اعود واضغط بنفسي الى الارض فاعجز عن ان اتقدم ولو زحفاً مسافة قيراط فاصمم النية ان ابقى حيث انا. ولكن بغتة يمر في مخيلتي ما يوبخني على تصميمي هذا فاخجل من نفسي لاني في مامن فارفع نفسي عن الارض لاتفقد ما حولي وتحدق عيناي خارقة الظلام فترتفع قذيفة منيرة فاعود الى الحفرة وبهذا تستعر في داخلي نيران حرب اخرى اود ان اخرج من الحفرة ولكني اعود اليها اونة بعد اخرى فاقول لذاتي مشجعاً نفسي «يجب ان اخرج من هنا وما النيران حولي سوى نيران الارفاق وزد على ذلك ان لي حياة واحدة فان خسرتها فخسارتي مفردة»

ان كل ذلك نتيجة الماذونية التي تمتعت بها فاحاول ان اخفف علي ما انا فيه من شعور الخجل فلا افلح فيضعف امري اكاد يغمى علي ثم ارفع نفسي وازحف على ذراعي مسافة قصيرة جارًا ورائي جسمي واضطجع على حافة الحفرة نصفي الاعلى فوقها والنصف الاخر فيها

اعود فاسمع اصواتاً ورائي فارجع بكليتي الى الحفرة. وبامكاننا ان نعرف الاصوات التي نحذر منها رغم قصف المدافع فاصغي لاتحقق

هوية من اسمع اصواتهم ورائي فاذا هم ارفاقي ثم اسمع اصواتاً مخفوضة مكمومة. لهجتها تدلني انها اصوات كاتزنسكي. فللحال تدب في حرارة جديدة فهذه الاصوات وهذه الكلمات الواطئة وهذه الخطوات في الخندق ورائي كلها تنجيني من وحدتي المخيفة ومن خوفي من الموت الذي كاد يسحقني ويقضي علي وهذه كلها لي وهي اثمن عندي من الحياة ذاتها والاصوات هذه اشهى لي من اصوات الامومة وهي اقوى ما شعرت به واكثر تعزية لي من كل شيء لي هي اصوات ارفاقي وكفى فانا الان لست قصبة مرضوضة منفردة في الحياة فانا لهم وهم لي نشاطر الواحد الاخر خوفاً واحداً وحياة مشتركة فالواحد منا اقرب الى رفيقه من عاشق الى متيمته وفي كل بساطة اقول يمكن الآن ان اخبىء وجهي في احضانهم والتجىء اليهم . هولاء اصحاب الاصوات والالفاظ التي خلصتني وها هم سيبقون معي وبقربي

.....

اقوم بحذر من مخبئي وازحف الى الامام كالحية ثم اسير على قوائمي الاربع خطوات قليلة حافظاً كل الوقت ما يسهل علي الرجوع انظر ذات اليمين وذات الشمال فارى نيران المدافع تنتشر في كل مكان وهذا مما يسهل علي رؤية الاشباح لاحفظها دليلاً لي في رجوعي فاجرب ان اصل الى رفاقي

لا ازال خائفاً ولكن خوفي هذه المرة خوف عاقل وهو بالحقيقة ليس خوفاً بل حذر متناه للغاية. الليل شديد الرياح والاخيلة في ضوء نيران المدافع ترقص وتتحرك. وضوء هذه النيران ينير اشياء كثيرة وبالوقت نفسه لا يوضح امراً. انظر الى امامي فلا اجد شيئاً فاتقدم مسافة طويلة ثم اعكف واقفل راجعاً كل هذا وانا لا ازال

بعيداً عن ارفاقي ولا اقف لهم على اثر وكلما اتقدم خطوة الى الخنادق التي فيها ارفاقي الجنود ازداد سرعة ورجاء

وبينما انا في هذه الحال يستولي علي خوف اخر وذلك لأني وانا في هذا المكان فقدت معرفتي الجهات الاربع فاجلس القرفصاء في حفرة لاعرف اين انا وكثيراً ما يقفز الجندي الى خندق فرحاً طروباً ولكنه عندما يصل اليه يجد انه قد اخطا المحج

بعد برهة وجيزة من الزمان اصغي الى ما حولي فلا استفيد شيئاً بل ابقى مضللاً . ان الحفر التي حفرتها القنابل كثيرة ومتشابكة وهذا ما يضللني جداً ويمنعني عن ان اعرف الجهة التي يجب ان اسير فيها. من الممكن ان يكون زحفي وتقدمي محاذيين الى صفوف الجنود واذا استمررت في التقدم لا ينتهي سفري ابداً فاعود بدائرة كبيرة وازحف بجهة معاكسة

لتصب لعنات الارض كلها على الاسهم النارية التي يستعملونها للاستكشاف. فهذه تبقى تحترق ما يقارب ساعة يعجز الفرد في خلالها ان ياتي بحركة ما وان خانته قواه وقام بحركة ولو جزئية تصب عليه شآبيب الرصاص. انني في هذه الحالة في ياس لا خلاص منه فيجب ان اخرج مما انا فيه. فابتدىء ان اتقدم خطوة واتردد اخرى ثم ازحف كالسرطان على الارض وهذا ما يجعل الدماء تسيل من يدي سيل الينابيع لانني في زحفي التقط الشظايا الحادة كموسى الحلاقة وامسك قطع الخشب المتناثرة. ومراراً كثيرة اظن ان الليل قد انهزم وبدت طلائع الفجر في الافق ولكنني حالاً اتحقق ان هذا الفكر وليد تصوراتي وخيالي وعندئذ يتحقق لي تدريجاً ان حياتي وموتي متوقفان على الجهة التي ازحف فيها

وبينما انا في هذه الوساوس تنفجر بقربي قنبلة ويعقبها بلمحة بصر اثنتان ثم يكثر اطلاق المدافع فاتاكد ان «الحديدة حامية» والمدافع تقصف فلا خلاص لي الا ان ابقى مضطجعاً في الحفرة ويظهر ان الهجوم قد ابتدا وها الاسهم النارية الاستكشافية لا تنقطع. فانزل في الحفرة منكمشاً والماء فوق ركبتي الى وسطي وعندما يبتدىء الهجوم ارمي بنفسي في الماء ووجهي الى اسفل مغروزاً في الوحل الى درجة اقدر بها ان احفظ نفسي من الاختناق وفي حالة كهذه علي ان اتماوت وبغتة اسمع احتدام المدافع في اطلاقها فللحال ارمي بنفسي في الماء وخوذتي معلقة في عنقي وفمي فوق الماء ليسهل علي التنفس. اجلس في هذه الحفرة بدون حركة غير انه في موضع بقربي يسقط شيء فيجمد الدم في عروقي ولكنه يخشخش فوق راسي وينطلق وهكذا انجو من الموجة الاولى. يسود علي الان فكر واحد هو ـ ماذا اعمل اذا قفز الى الحفرة التي انا فيها احدهم فللحال استل «خنجري» وامسكها بيدي واخبئها في الوحل فاذا قفز الى هذه الحفرة احدهم فاني اهاجمه ويخطر على بالي بان اقطع عنقه بسرعة حتى تتعذر عليه الاستغاثة ولا خلاص لي الا بهذه الطريقة اذ من المؤكد ان يكون من ينزل منهم في حفرتي خائفاً مرتعباً مثلي

فاذا كان الخوف يدفعنا للمخاصمة والاقتتال فلماذا لا اكون البادىء في اخماد انفاس خصمي

مدفعيتنا تضرم نارها وتسقط منها قنبلة بقربي وهذا ما يهيجني لدرجة الوحشية فكانه لم يبق علينا الا ان تحصدنا مدفعيتنا فاشتم والعن واصر باسناني وهي في الوحل وما هيجاني هذا الا ضرب من الجنون فالتجىء اخيراً الى التنهدات والصلاة. ان انفجار القنابل يصم اذاني واعتقد

ان لا خلاص لي الا بقيام جنودنا بهجوم مضاد. فالصق راسي بالارض واصغي الى الرعود المشتبكة المتتابعة كانها انفجارات في مقالع الحجارة ثم ارفع راسي لاسمع الاصوات التي فوقي

المدافع لا تزال في غنائها واعرف ان الحواجز التي صنعناها من الاسلاك الحديدية قوية جداً مشتبكة بعضها ببعض بكل شدة وها مجارٍ كهربائية قوية تتصل ببعضها . اما نيران البنادق واصواتها فتزداد ومع كل هذا لم يخرق العدو صفوفنا بل بالعكس عليه ان يتراجع فاعود الى مخبئي في الوحل مشوش الافكار مضنوك الاعصاب. والقرقعة والطنين والزحف وما يخالط كل هذا من المسموعات يكاد يصير امامي جسماً ملموساً. صدت هجمات العدو وقد حصدته النيران

.....

لقد تحسنت الحال نوعاً. فاسمع خطوات مسرعة فوق الحفرة التي انا فيها يمر الاول ثم الثاني ولكن اصوات المدافع سلسلة غير منقطعة متزاحمة الحلقات . احاول ان ادور الى جهة معاكسة فبغتة اسمع صوت وقوع شيء ثقيل بقربي يعقب الوقوع صوت تكسر اشياء وجسم يقع عليه في الحفرة ويتدحرج حتى اراه عند قدمي

على كلٍ ان هذا لم يدع لي مجالاً للافتكار او التصميم ولذلك اطعنه طعنة المجانين ولا ارى سوى جسده امامي يتشنج ويتقلص وينتصب ويرتخي ويسقط ثم اعود الى رشدي فاجد ان يدي مبللة ولزجة والرجل يغرغر ويبقبق فتنزل اصواته هذه علي كانها الرعد لا بل اقوى واخاله يصرخ عند كل تنفس صراخاً يصم الاذان والحقيقة ان كل ذلك انما هو دقات قلبي المسرعة فاحاول اسكاته فاحشو فمه بالتراب واعود اطعنه لانه يجب ان يصمت لئلا يهتدي الي العدو

بصراخه . واخيراً امتلك ناصية نفسي فاجدني للحال عاجزاً عن رفع يدي لايذائه. فانسل الى ابعد زاوية عنه واجلس هناك حذراً لمقابلة كل مفاجئة عيناي مرتبطتان به لا احولهما عنه ممسكاً بخنجري مستعداً ان انقض عليه اذا ابدى ادنى حركة ولكن من اين له ذلك فاني اسمعه في حشرجة الموت

لا يمكنني الآن ان اراه بوضوح فلي اشتهاء واحد هو ان اهرب منه. واذا كنت لا اتم هذا بكل سرعة فيصعب علي الامر جداً بعد الآن. اجرب ان ارفع راسي فاجد الخروج من هذه الحفرة مستحيلاً فالمدافع تحصد الاخضر واليابس واذا فزت بالصعود من حفرتي تصيبني القنابل مرات عديدة قبل ان اخطو خطوات قليلة. فاعود اتفحص الحال وارفع خوذتي لاتمكن من معرفة علو قذف القنابل فباقل من لحظة تصيبها قنبلة فتسقط من يدي. نيران المدافع وقنابلها واطئة تلامس وجه الارض وزيادة عن ذلك ان مقري لا يبعد عن صفوف الاعداء فاذا حاولت الفرار مما انا فيه قد تصيبني رمية احد افراد العدو.

يزداد النور فاصير على احر من الجمر منتظراً هجوم صفوفنا وها عقد اصابعي كلها ابيضت لانني عضضتها مرات كثيرة من خوفي متمنياً ان تخمد هذه النيران فيجيء الي ارفاقي. تمر الدقائق الواحدة تلو الاخرى وانا لا اجرا ان انظر الى الجسم الاسود في الحفرة وبعد تحمس ومحاولات عديدة انظر الى ما وراءه وانتظر الفرج وانتظر وانتظر ولكن تئز فوقي القنابل وها هي بانطلاقها ذات الشمال والجنوب وذات الشرق والغرب قد حاكت فوق راسي شبكة فولاذية لا تنقطع دائمة الاتصال. انظر الى يدي فارى الدماء تسيل منها فالتقط حفنة من التراب واضعها على جلدي فيصير التراب وحلاً وعليه لا اعود ارى

الدم. النيران تزداد اضطراماً وحالتها في الفريقين المتخاصمين متعادلة واخال ان ارفاقي يحسبونني الان في عداد المفقودين وقد انتهى بي كل امر

.....

الوقت الان الصباح الباكر والمرئيات واضحة تمام الوضوح غير ان البقبقة تستمر ترن في الحفرة فاضع اصابعي في اذني لاريحهما من هذا الصوت ولكني اضطر ان اقلع عن هذه الواسطة لانه علي ان اسمع الاصوات الاخرى ففيها الموت او الحياة. يتحرك الشخص امامي فارتجف بكليتي وبدون اختياري انظر اليه فتبقى عيناي مرتبطتين به. رجل ذو لحية صغيرة راسه على ذراعه ويده الاخرى على صدره لان الدماء تسيل منه تظهر عليه علامات الوهن والضعف. فاقول لنفسي انه ميت وبانه لا يشعر بشيء وما هذه الاصوات الا اصوات خارجة من جسده فروحه قد فارقته. ولكنه يحاول ان يرفع راسه فيرتفع صوت التنهدات ويرتمي راسه على ذراعه فالرجل ليس ميتاً ولكنه يحتضر فاسحب قوائمي نحوه وازحف قليلاً انتظر برهة ثم استانف السير واعود الى الانتظار وهكذا سفر وانتظار مسافة ثلاثة يردات رحلة طويلة للغاية مرعبة مخيفة احسبها الدهر بطوله ولكنني اصل اخيراً اليه فاجلس بقربه

يفتح عينيه ويحدق بي ونظراته فيها منتهى الخوف والجزع. ان جسده لا يبدي حراكاً ولكن عينيه تظهران بمظهر الخوف الشديد تودان الهرب والنجاة مما يحدق بهما واني اخال ما فيهما من هذه القوة كافٍ ان يطير بالجسد المقعد العاجز عن كل حركة ويقطع اميالاً عديدة بقفزة واحدة. الجسد جامد لا يتحرك والحشرجة والتنهدات

قد درست معالمها والعينان لا تزالان تصرخان وقد اجتمع فيهما كل ما بقي من الحياة للهرب والانعتاق من هذا الخوف لا بل من الموت الزوام لا بل قل مني انا . فاضعف ولا اقدر على احتمال هذا المنظر فاسقط على يدي ثم اهمس لنفسي «حاشا ان يكون ذلك» غير ان العينين تتبعانني وها انا عاجز عن ان ابدي حركة ما ما زالت هاتان العينان في هذه الحفرة . تسقط يده عن صدره ببطء ومسافة قراريط قليلة فهذا ما يقلل من قوة العينين الجاحظتين فانحني اليه واهز راسه واهمس لنفسي «حاشا لي ان يكون ذلك» فارفع يدي واقول علي ان اريه اني اود مساعدته فاضع يدي على جبهته فترتجف عيناه وتفقدان لمعانهما وتخور قوى اجفانه وها كل جذب بين الموت والحياة قد انقضى فاضع راسه بحالة طبيعية. فمه لا يزال مفتوحاً وهو يحاول ان يتلفظ ببعض الكلمات. شفتاه يابستان بحاجة الى الماء غير ان زجاجتي المملوءة ماء بعيدة عني. ولكن تحتنا حفرة فيها ماء ممزوج بالوحل فانزل الى الحفرة واملأ منديلي من الوحل واضع كفي تحت المنديل لالتقط الماء الذي يقطر منه فآخذ هذه له فيشربها بكل شراهة فاعود الى الحفرة مرة ثانية. وهذه المرة افك ازرار ردائه حتى اذا كان بالامكان تضميد جراحه اضمدها. علي ان افعل هذا مهما كلفني الامر حتى اذا وقعت في ايدي اخصامي وانا في الحفرة يرونني احاول مساعدة رفيقهم فيرفقون بي. اما هو فيحاول ان يمانع في الامر ولكنه يعجز عن ذلك لضعف يديه. قميصه مزررة من على ظهره وملتصقة بصدره فما لي الا ان امزقها فانظر الى حولي والتقط الخنجر ثانية وابتدىء بالعمل وللحال تعود تلك القوة المخيفة الى عينيه فيفتحهما واذا فيهما الصراخ المزعج والشعور المؤلم فاضطر ان اطبقهما واهمس في اذنيه «اني

اساعدك ايها الرفيق. ايها الرفيق ايها الرفيق».واكرر كلمة ايها الرفيق مرات عديدة لاوكد له صدق قولي

في صدره ثلاث طعنات والاقمطة التي معي تكفي لتضميدها كلها ولكن لا يزال الدم يتفجر من جراحه فاضغط على الجراح بكل قواي وهو يئن ويتنهد هذا كل ما اقدر على عمله. فما علينا الان سوى الانتظار فننتظر

.....

تمر الساعات ويعود الانين والحشرجة من اونة الى اخرى . ما اطول ساعات احتضار المائت واكثرها. انا اعرف تمام المعرفة ان نجاته مما هو فيه مستحيل وقد حاولت ان اقنع نفسي بانه يعود الى الحياة ولكن امالي هذه كلها تضمحل عند الظهر بظهور حشرجته وانينه ولو لم افقد مسدسي بزحفي اليه لكنت اجهزت عليه به غير اني لا اقدر البتة ان اطعنه بخنجري ثانية

عند الظهر اكاد اجن لان الجوع كاد يبتلعني واني اطلب شيئاً آكله بدموع سخية لانني لا اقدر على مقاومة ما بي من الجوع فاعود الى بركة الوحل انقل منها ماء الى المحتضر واشرب منها انا ايضاً

هذا هو الرجل الاول الذي قتلته بيدي وجهاً لوجه. ان كاتزنسكي وكروب ومولر قد اختبروا هذا الامر وهذا يصيب الكثيرين في الهجوم بالسلاح الابيض ووصول المتحاربين وجهاً لوجه. غير ان كل لحظة من لحظات هذا الجندي المحتضر تذيب قلبي فبجانبه الزمن وبيده خنجر يطعنني به طعنات متوالية وما هذا الخنجر الغير المنظور سوى افكاري والزمن

اني افديه بكل غالٍ وعزيز وما اصعب اجباري على البقاء في هذه

الحفرة اسمع انينه واراه يحتضر. يموت الساعة الثالثة بعد الظهر فعندها اتنفس الصعداء ولكن راحتي هذه لا تدوم الا لحظات قليلة فان السكون والسكوت لاعظم وقعاً في النفس من الانين والحشرجة فاعود واتمنى بقاء الحشرجة والانين وما يرافقهما من حالات الصوت المختلفة كالبحة والصفير والشهيق والازيز وغير ذلك

ان ما اجريه الان ضرب من الجنون ولكن ما العمل وعلي ان آتي بعمل فاقوم واضجع المائت في وضعية طبيعية مع انه الان لا يشعر بشيء واغمض عينيه. عيناه كستناويتان وشعره اسود جعدي. اما فمه فممتلىء وناعم تحت شاربيه وانفه معقوف قليلاً. اسمر البشرة وهي ليست الان صفراء كما كانت وقت احتضاره ولكن هذا الاسمرار يصير سريعاً اصفرار الموت ويصير لون وجهه غريباً كلون الوجوه العديدة التي رايتها فوجوه القتلى في ساحة الحرب كلها متشابهة

زوجته تفتكر به الان واني اوكد بانها لا تعرف بما اصاب زوجها وتظهر عليه علامات انه قد ارسل لها كتاباً من زمن قصير فعليه ستصلها مكاتيبه بعد اسبوع وقد يجوز ان يكون احدها قد ضل الطريق فيصلها بعد شهر ولهذا لها ان تحادثه وتناجيه بعد شهر من تاريخه

ان حالتي تزداد سوءاً واعجز عن ايقاف مجرى افكاري فاسال نفسي ما عسى ان يكون شكل زوجته هل هي مثل السمراء في شاطىء الترعة المقابل. هل لي الحق ان ادعي ملكيتها لانه قد يجوز لي ان اغتنمها جزاء ما عملت. يا ليت كانتورك بقربي الان ويا ليت امي تراني الآن

كان من الممكن ان يعيش هذا الافرنسي ثلاثين سنة بعد لو كان الطريق المؤدي الى خنادق صفوفنا اكثر رسوخاً في ذاكرتي مما

هو عليه الان او لو ابتعد هو بركضه عن الحفرة التي انا فيها يردين فقط . لو كان هذا لكان الان بين ارفاقه يكتب رسالة جديدة لزوجته. ان هذا امر لا يمكنني التوغل فيه فهذا نصيب كل فرد في الجبهة. لو كانت رجل كمريخ ستة قراريط الى اليمين لما اصابه ما اصابه او لو كان انحناء هاي وستوس اقرب الى الارض بثلاثة قراريط لكان الان بين الاحياء . لو لو لو...

.....

يسود السكوت فاتكلم لنفسي هرباً من هول وقع السكوت علي كما يجب ان اتكلم ثم اعود واخاطب من هو امامي قائلاً «ايها الرفيق لم ارد ان اقتلك فاذا عدت وقفزت الى حفرتي فاني لا اقتلك بشرط ان لا تحاول انت ذلك . كنت في ذهني شخصية وهمية وهذا الخيال في مخيلتي يستحق ما اجريته بك فانا لم اطعن سوى هذا الخيال او قل الصورة الذهنية التي رسموها في مخيلتي. اما الان فاعرف الحقيقة الناصعة التي لا مفر منها بانك رجل مثلي . كنت قبلاً لا اراك الا وبيدك القذائف وعلى كتفك بندقيتك وباليد الاخرى الخنجر وعلى وجهك كل ما في الانسان من وحشية وشراسة اما الان فارى زوجتك ووجهك وفوق ذلك ارى نصيبنا المتشابه المتماثل. فعفوك ايها الرفيق . عفوك. اه لا نرى الحقائق الا بعد فوات الفرصة. فاعجب لماذا لم يخبرونا من قبل انكم قوم تعساء مثلنا وان امهاتكم قلقات عليكم كامهاتنا وان خوفكم من الموت هو خوفنا منه بعينه وبانكم تقاسون في احتضاركم ما نقاسيه نحن. اه لماذا لم يخبرونا بكل ذلك. فعفوك ايها الرفيق اقول عفوك ليس الا. واني لاعجب ايضاً كيف يمكن ان تكون انت عدوي. فاذا طرحت عني اسلحتي وثياب الجندية واذا فعلت انت هذا ايضاً لكان من

السهل ان نكون صديقين حميمين لا بل اخين كعلاقتي مع كاتزنسكي والبرت. قف ايها الرفيق الحبيب ولك من حياتي عشرون سنة فها اني الان لا اعرف ما المنفعة لي منها كلها»

هدا روعي نوعاً ولكن نيران الجبهة لا تزال مضطرمة والمدفعيات تمطرنا شآبيب غزيرة من قنابلها وهذه مصوبة علينا بكل دقة فلذلك لا يمكنني الخروج من هذه الحفرة . فاعود الى الكلام مع الرفيق امامي فاقول «ساكتب الى زوجتك واخبرها بكلما جرى. يجب ان لا يخبرها بالامر احد سواي وزد على كل ذلك فاني ساسرد لها كل ما قلته لك الان. يجب ان لا تقاسي عذاباً في امر معيشتها فاني ساعاونها واعاون ابويك ايضاً»

ان ازرار رداءه قد فكت وسهل علي ان اتناول محفظته ولكنني اتردد في عملي هذا ففي المحفظة اسمه وطالما اجهل اسمه يسهل علي نسيان هذه الحادثة. فالزمن المقبل يمحوها من مخيلتي. اما اسمه فيبقى راسخاً في ذاكرتي لا يمكن لزمن او دهر ان ينزعه مني وهو يبقى قوة لا اقدر على التغلب عليها تعيد لي ذكرى هذا الحادث فاراه بنفسه واقفاً امامي. ولكنني امد يدي مترددًا ايضاً واتناول محفظته فتسقط الى الارض ويسقط منها صور ورسائل فاجمعها لاعيدها الى المحفظة ولكن حالتي العصبية هذه وعدم استقراري على امر وشدة جوعي والخطر المحدق بي والساعات الطوال التي قضيتها مع هذا الميت جعلتني يائساً. اني اطلب خلاصي من هذا العذاب المتسلط علي المتجسم امامي ولكني كمن يضرب جذع شجرة قاسٍ بيده المتالمة كثيرًا مع قطع النظر عما يصيبه من عمله هذا

بين ما التقطته صورة امراة وابنة صغيرة ومن ورائهما حائط مكسو

بالعشب الاخضر ورسائل فاتناول الرسائل واحاول قراءتها. اجل اني لا افهم القسم الاكبر منها اذ يصعب علي قراءتها ولاني لا اعرف من الافرنسية سوى القليل ولكن كل كلمة افهمها تصير خنجراً يطعنني في صدري او رصاصاً يخترق احشائي

ان هذه التصورات والتخيلات قد ملأت افكاري لدرجة لا تطاق وعندها اتاكد باني لا اجرا قط ان اكتب الى هولاء المساكين كما كنت عزمت عليه. ان هذا من المستحيل والصورة تظهر انهم قوم فقراء فالافضل اذا اتيح لي في المستقبل ان ارسل لهم كمية من المال دون ان يعرفوا المرسل فانوي ان اقوم بهذا وهذا اخر ما اعزم عليه وهذا اخر ما استعين به على ما يخامرني من هذه العاصفة الفكرية. هذا الميت قد التصق بحياتي فعلي ان اقوم باعمال عديدة واعد مواعيد عديدة واكثر النذور لانجي نفسي من هذا العذاب الفكري. وللحال اقسم قسماً اعمى ان اعيش له ولعائلته فاحاول ان اقبله علامة المصالحة وفي اعماق قلبي رجاء ان ما افعله ينجيني من هذا العذاب ويخرجني من حالتي الحرجة هذه. وزد على ذلك اني اعتقد ان كل هذا حيلة حربية صغيرة واذا نجوت من كل ما يحيط بي من المخاطر ساهتم بايفاء ما نذرت . وللحال اتناول محفظته واقرا «جيرارد ديڤال. منضد حروف». فاتناول قلمه واكتب به على مغلف عنوان عائلته ثم ارجع كل شيء الى ردائه. قد قتلت عاملاً في مطبعة فيجب ان اكون عاملاً في مطبعة ثم اكرر هذا القول مرتبكاً «عاملاً في مطبعة»

.....

يهدا روعي تماماً بعد ظهر هذا النهار واجد ان لا مبرر البتة لكل مخاوفي وها اسمه لا يزعجني قط وقد عبر عني جنوني فاقول الى المائت

بكل هدوء وسكينة «ايها الرفيق اليوم انت وغداً انا. ولكن اذا اتيح لي ايها الرفيق ان انجو من هذا الغضب فاني اقاومه واحاربه ـ هذا الغضب الذي قضى علي وعليك. قضى عليك فخسرت حياتك وعلي فاخسر ...؟ اخسر حياتي ايضاً كيف كانت النتيجة. فاعدك ايها الرفيق . ان حالة كهذه لن تعود»

تقارب الشمس لمغيب وانا منهوك جائع . وما الامس لي سوى ضباب يضمحل ولا رجاء لي ان اخرج من حيث انا. فيقع علي سبات وانا لا افقه ان الليل يقترب مني بجيوشه. يظهر الغسق ويبان لي ان كل هذا يسير بسرعة متناهية وسيعود الظلام بعد ساعة. الامر الذي لا يكون في الصيف الا بعد ثلاث ساعات. بعد ساعة واحدة فقط يسود الظلام. فبغتة ارتجف خوفاً اذ قد يحدث في هذه الفترة ما لم يكن في الحسبان. افتكاري بالمائت لا يجديني نفعاً فاقلع عنه. وها رغبتي في الحياة تحطم تحت قدمي كل هذه الافكار ولا يبقى امامي سوى الرغبة في الحياة والتمسك باهدابها ليس الا. ولكي ابعد عني كل شؤم اكرر بدون فكر او قصد القول «اني افي كل نذوري اني افي كل نذوري» اقول هذا متاكداً باني لا اقوم بجزء منها

ثم يخطر لي ان من الممكن ان يصليني ارفاقي انفسهم ناراً حامية فتصيبني رصاصاتهم اذا خرجت من مخبئي هذا لانهم لا يعرفون اني انا السائر نحوهم. اجل اني سارفع صوتي عالياً عندما يمكن ذلك لاعلمهم بوجودي وليعرفوني وسابقى مطروحاً على فم حفرتي حتى ياتيني جوابهم

يظهر النجم الاول. ويهدا غليان الجبهة فاتنفس تنفساً عميقاً وبينما انا في هذا الانفعال اقول لنفسي «لا مجال للحماقة والجنون الان يا

بول. قد هدا غليان الجبهة وبعد هذا تنجو مما انت فيه يا بول». انادي نفسي باسمي الاول لانني بهذا اخال رجلاً اخر يكلمني ولهذا تاثير عظيم فيّ في حالة كهذه. يزداد الظلام حلكاً فيسكن انفعالي وانتظر منتبهاً الى كل حركة حتى يرتفع في الفضاء الصاروخ الاول فازحف الى خارج الحفرة وانسى المائت لان امامي الليل الطويل والحقل المقفر الواسع وعندما ينير الصاروخ على الأرض انظر الى امامي فارى حفرة اقفز اليها حالما ينطفي ضوء الصاروخ وهكذا في كل فرصة من حفرة الى اخرى فاقترب الى صفوفنا . وبينما نور احد هذه الصواريخ يشق عباب الفضاء انظر الى امامي فاذا شيء يتحرك وسط الاسلاك ثم يقف جامداً فامتنع عن كل حركة. اعود في المرة التالية وارى الامر نفسه . اجل انهم خارجون من خنادقنا فيخامرني الشك بامرهم ولكنني حالاً ارى على رووسهم الخوذ التي نلبسها فاتاكد انهم ليسوا من الاعداء فاصرخ وللحال يرن في اذني جوابهم «يا بول يا بول» فاجيبهم ثانية صارخاً. فها كاتزنسكي والبرت يحملان محملاً يطلبانني

«هل انت مجروح يا بول»

«كلا». ثم ننزل الى الخندق بقربنا واطلب اليهما ان يعطياننني طعاماً التهمه كالذئب الكاسر ويعطيني مولر سيكارة فاخبرهما بكلمات قليلة ما جرى لي وما هذا بالامر النادر فحدوثه كثير متواصل وما النادر في الامر الا الهجوم ليلاً. مرة في روسيا بقي كاتزنسكي يومين وراء صفوف العدو بعدها تمكن من الرجوع الى معسكرنا. اما انا فلا اخبرهما عن منضد الحروف المائت ولكنني في الصباح التالي ابوح لهما بكل شيء فيهونان علي قائلين «لم تجرِ الا ما عليك اجراءه والا

ما الغاية من وجودك بين المحاربين وهذا امر ليس في طاقتك تغييره». فاصغي اليهما واجد في قولهما تعزية وتسلية وبحضورهما معي في هذا المكان قوة لي: وان ما قلته للمائت وانا في الحفرة معه لم يكن سوى هذيان وثرثرة. وليزيدني نشاطاً يقول كاتزنسكي «انظر انظر هناك». انظر الى صفوفنا فارى بعض الجنود وبنادقهم على متاريس امامهم وعليها نظارات «تلسكوب» يراقبون صفوف العدو وبين اونة واخرى نسمع طلقاً نارياً يعقبه صراخ فنقول «ان هذه اصابت المرمى» «هل لاحظت كيف انه قفز في الهواء» ان الاونباشي اولرخ يعود مفتخراً ويصيب مرماه وبهذا اليوم هو الأول في اصاباته فقد زاد عن الكل بثلاث اصابات لا يمكن انكارها. فيسالني كاتزنسكي «وما قولك بهذا» فاهز راسي فقط. ثم يستانف البرت الكلام ويقول «اذا استمر اولرخ على عمله هذا فقد يمنحونه وساماً هذا المساء» ثم يقاطعه كاتزنسكي «او قل قد يرقونه الى صف الضباط». ثم ينظر الواحد منا الى الاخر واقول لهما «اني لا اقوم بهذه الاعمال». فيجيبني كاتزنسكي «لا فرق بالامر. فالافضل اذن ان تراقبها الان». يعود الاونباشي الى عمله وتعود قنابل بندقيته تصطاد من عن اليمين والشمال من يعبر امامها. ثم يقول لي البرت «لا تقلق البتة مما اصابك. بل نم نوماً عميقاً». وها انا الان لا افهم لماذا ثارت فيّ افكاري كما مر ولعل ذلك لاني اضطررت ان ابقى مع الميت زماناً طويلاً. وبعد كل هذه الامور يمكننا القول «وما الحرب سوى حرب» هذا وبندقية اولرخ تستمر في عملها

الفصل العاشر

امامنا قرية اخلاها سكانها لانصباب قنابل مدفعيتنا عليها فكان نصيب ثمانية منا ان نحرسها . وما اسهل هذا العمل واحلاه. علينا بنوع خاص ان نراقب مخازن المؤونة لان هذه لم تفرغ بعد والمنتظر ان تكون مؤونتنا نحن من هذه المخازن واظنهم احسنوا الانتقاء فنحن افضل كل الجنود لهذا العمل . كاتزنسكي والبرت ومولر وتجادن وديترنك وكل «البوطة». اجل ان هاي من زمرتنا قد مات ولكن هذا لا يؤثر ابداً في سرورنا وها نصيب فرقتنا احسن جداً من نصيب الفرق الاخرى التي تكبدت خسائر جمة

نختار مقراً لنا في دهليز مصفح بالسيمنت ينزل اليه بسلم ومدخله محاط بحائط منفرد من السيمنت وهانحن في هذا المكان ننتفع من هذه الفرصة اشد الانتفاع فلا يكفينا ان نجلس ونمد ارجلنا بل علينا ان نمتع انفسنا بالراحة الحقيقية المعدة لها في مكان كهذا. الحرب وما فيها من الياس والقنوط لا تسمح لنا ان نكون لمدة طويلة ذوي عواطف حساسة وشعور رقيق. وهذا امر يكاد يكون مستحيلاً وبالاخص اذا لم تكن الامور سيئة. بعد كل هذه الحيثيات لا يمكننا ان نكون غير عمليين. الامر الذي يجعلني ان ارتجف عندما افتكر ولو لوقت قصير بالايام التي مرت بنا قبل الحرب غير ان هذا الفكر ينصرف عني سريعاً

علينا ان نقابل كل حركة نقع فيها باهون ما نقدر عليه ولهذا نجدنا

مستفيدين من كل سانحة خير الاستفادة ونرانا ونحن في اشد ساعات الخوف نكثر النكات «والخلط» ولا يمكننا ان نكون عكس ذلك وهذا فقط ما يشجعنا وان هذا ما يدفعنا في مقرنا الجديد ان نباشر العمل بكل جد وحماس واي عمل ناتيه. فها نحن نشحذ قرائحنا لننظم اغنية عن الأكل والنوم ليس الا

فاول عمل ناتيه ننشر المراتب «الحصر» في ارض الغرفة وهذه نجيء بها من البيوت . الراحة مرغوب فيها في كل حال حتى ان الجندي يطلب الجلوس على اشياء ناعمة. ننشر المراتب في كل ارض الغرفة تاركين بقعة في وسطها عارية ثم نذهب ونجيء بحرامات وبفرش من الريش واشياء اخرى للرفاهية فالمدينة ملأى من هذه. اجد والبرت سريرًا من خشب الماهوغني الذي يمكن نقله من مكان الى اخر وعليه اغطية من الحرير الازرق و«الخرج» الجميل. اذا كنا نتركه حيث هو نكون مجانين فلذلك ننقله بعجلة حتى صار العرق ينصب علينا كانه الينابيع المتفجرة وزد على ذلك ان نصيب هذا السرير يكون العدم والاتلاف اذا تركناه فتصيبه القنابل فيتحطم

اذهب مع كاتزنسكي لاستكشاف البيوت وباقل من القليل نجد اربع وعشرين بيضة طرية وكيلو من الزبدة اللذيذة. ولكننا بغتة نسمع صوت تكسر في غرفة الاستقبال ونرى موقد الحديد يخرق الحائط ويمر بنا ثم يصطدم بالحائط الاخر الذي يبعد عنا يردين فيخرقه ايضًا. ان في البيت ثقبين وموقد الحديد قد نقل الينا كما وصفنا من البيت المجاور حيث حلت القنبلة. فيصيح كاتزنسكي «خنزير صغير» فنجد في البحث عنه ثم نفتح اذاننا ونصغي جيدًا ونسرع الى جهة الصوت وبغتة نقف جامدين لاننا نرى في الزريبة امامنا خنزيرين صغيرين فنفرك اعيننا

لنتاكد صحة ما نراه فنجدهما لا يزالان في الزريبة ثم نركض ونلتقطهما. خنزيرين صغيرين

ان وليمتنا بهما لوليمة ملوكية. ثم بجانب البيت الذي احتللناه وعلى بعد عشرين يرداً منه بيت صغير كان ماوى احد الضباط وفي المطبخ موقد كبير وطاقمان كاملان من كل الاواني كالطناجر والمقلاة حتى ان هناك ايضاً قطعاً صغيرة من الحطب وبالحقيقة ان هذا المطبخ المثل الاعلى لكل طباخ. وها اثنان من ارفاقنا يقضيان النهار بطوله يفتشان في الحقول المجاورة يطلبان البطاطا والجزر واللوبياء. اجل ان نفوسنا قد كرهت المقددات والمحفوظات في العلب وها نحن نتوق الى اكل الخضروات الطرية. ثم في غرفة المائدة نجد زهرتين كبيرتين من القرنبيط

فللحال نذبح الخنزيرين ويهتم كاتزنسكي بهما. اجل اننا بحاجة الى اقراص البطاطا لناكلها مع «الروستو» فللحال ناخذ غطاء علبة من التنك نثقب فيها بمسمار ثقوباً كثيرة ثم نستخدمها مبرشة وثلاثة منا يلبسون قفازاتهم كي لا تدمي المبرشة اصابعهم واثنان غيرهما يباشران تقشير البطاطا وهكذا كل منا له قسطه في العمل

على كاتزنسكي الاهتمام بطبخ الخنزيرين والجزر واللوبياء والقرنبيط. وهو يحضر «صالصه» بيضاء للقرنبيط وانا اهتم بقلي اقراص البطاطا فاضعها في المقلاة اربعة اربعة وبعد ان تبقى على النار مقدار عشر دقائق ادفعها الى الهواء ثم اعود واتلقاها بالمقلاة وهذا لتنقلب راساً على عقب. نحن نصطف حول الخنزيرين اصطفافنا حول مذبح وبينما نحن في لذتنا هذه ياتينا زائران هما جنديان في فرقة اللاسلكي فنظهر لهما كرمنا وندعوهما لمشاركتنا بوليمتنا هذه فيجلسان في

غرفة الاستقبال حيث هناك بيانو فيضرب احد الزائرين عليها ويغني الاخر ونحن الباقين نشاركهما بهذا السرور مع اننا قرب النار نعد الطعام. لم ننس الخطر المحدق بنا فطيارات الاستكشاف وقد عرفت مقرنا من الدخان الصاعد من المدخنة تمطرنا وابلاً مدرارًا من قنابلها وهذه القنابل من النوع الذي بوصوله الى الارض يحفر حفرة صغيرة ولكنه يتجزا الى قطع صغيرة تتطاير في كل الجهات ثم تاخذ الاصابات تزداد اقتراباً الينا ومع هذا لا نهمل نحن ما نعده من الملذات الطيبات وها شظيتان تدخلان الى المطبخ من شباكه العالي. قد تم طبخ الخنزيرين اما امر الاعتناء باقراص البطاطا فصار صعباً لان المتفرقعات تزداد عدًا واقتراباً حتى ان الشظايا تدخل الى المطبخ من الشباك بصف متواصل وكل مرة اسمع انفجارًا اركع على ركبة واحدة وبيدي المقلاة وما قلي من الاقراص ملتصقاً بالحائط الذي فيه الشباك الذي تدخل منه الشظايا ثم اعود الى عملي في قلي الاقراص. ان قنابل الانكليز قد توقفت عن الغناء وها قنبلة منها سقطت على البيانو فطحنتها وبعد كل هذا قد تم اعداد كل شيء فندبر امر نقلها الى مخبئنا. ينطلق اثنان منا بعد الانفجار التالي انطلاق السهم حاملين الطناجر المطبوخة فيها الخضراوات فنراقبهما حتى يتواريا عن انظارنا ثم نسقط الى الارض في الانفجار التالي وبعده يندفع اخريان كل منهما يحمل ابريقاً فيه القهوة الممتازة وهذان يصلان مقرنا قبل الانفجار التالي وبعدهما يقف كاتزنسكي وكروب حاملين بيت القصيد صحفة كبيرة عليها الخنزيرين اللذيذين فيستعدان كمن يستعد للركض ثم يقفزان ويندفعان يطويان الخمسين يردًا باقل من لمح البصر وابقى انا وحدي لاتم قلي اقراص البطاطا هذه التي اعشقها. وبقائي ليس

الا لقلي اربعة اقراص فقط. اضطر ان ارتمي الى الارض مرتين قبل انجاز عملي هذا ثم امسك الصحفة وعليها عرمة من الاقراص واحشر نفسي وراء باب المطبخ منتظراً سنوح الفرصة لاطير بغنيمتي هذه فاسمع اولاً هسهسة ثم انفجاراً بعده اركض محتضنا القصعة بكلتي يدي وبينما انا على وشك الدخول اسمع صوت انفجار القنابل فاقفز كالغزال الشارد الى داخل البيت والتصق بالحائط وها الشظايا تتطاير وتضرب بحائط السمنت حولي فانزل على السلم الى الدهليز واسقط فتجرح يداي ولكنني احافظ على الاقراص فلا افقد واحدة منها والقصعة لم يدن منها ضرر

نبتدىء وليمتنا هذه الساعة الثانية بعد الظهر ونستمر بها حتى الساعة السادسة. وبعده نشرب القهوة حتى الساعة السابعة ونصف. اي قهوة نشرب الان. قهوة الضباط الممتازة وقد جئنا بها من بيت المؤونة الخاص ثم ندخن معها سيكاراً وسيكارات كلها خاصة بالضباط وهذه ايضاً من مخازن الاعاشة. وفي الساعة السابعة والنصف نبتدىء بالعشاء وعند الساعة العاشرة نرمي عظام الخنزيرين الى الخارج. وبعده نتمتع بما جلبناه ايضاً من بيت المؤونة من روم وكونياك وها نحن نتمتع مرة اخرى بسيكارات ثخينة ومشروب ممتاز فيقول تجادن «لا ينقصنا شيء من ملذات الضباط سوى ملذة واحدة وهي خليلاتهم الجميلات». نسمع في ساعة متاخرة في المساء مواء فننظر فاذا بالباب هرة برشاء. ندعوها ونعطيها شيئاً من فضلات الطعام وكاننا برويتنا الهرة تاكل تتجدد فينا الشهية فنعود الى التهام ما ابقينا عليه ثم نرتمي على اسرتنا. اه ما امر الليل ولقد اصابنا من جراء ملذاتنا هذه اسهال قوي اضطررنا معه ان نبقى كلنا في العراء متناوبين شاتمين كل الليل

ان احتراق البيوت ليلاً مشاعيل هامة وعليه استمرت القنابل تهطل بغزارة وتخرب ما تسقط عليه ولكن صفوف ناقلي الذخيرة لم ينقطع سيرها في شوارع القرية. واصابت قنبلة مخزن الاعاشة ففتحت في حائطه باباً جعل المكارين في صفوف نقل الذخيرة يندفعون رغم تطاير الشظايا الى مخزن الاعاشة يلتهمون الخبز كانهم ذباب. اما نحن فندعهم يعملون ما يحسن في اعينهم لانه اذا اعترضناهم بامر لما كانت بيننا سهلة. غير اننا نحتال على الامر بطريقة اخرى وذلك باننا نفهمهم المسالة باننا على حراسة البلدة ونعرف كيف نبلغ من يعنيهم الامر ولهذا نتمكن من القبض على العلب التي فيها المواد المقددة ونبدلها منهم بما لا وجود له عندنا. ان هذه حالة لا تهمنا وها عن قريب يتطاير الكل في الفضاء. ونحتفظ نحن بالشوكلاته ونلتهمها الواحاً الواحاً

نقضي في هذا المكان اربعة عشر يوماً اكلين شاربين كسالى لا يزعجنا احد. اما القرية فدرست معالمها من جراء القنابل ثم ما دام بيت المؤونة ملآناً فنحن بسعادة وسرور لا هم لنا ولا اهتمام وجل ما نتمناه ان نبقى في هذا المكان الى انقضاء الحرب

ان تجادن مسرف «خبّاص» فهو لا يدخن سيكاراته كلها بل يرميها في منتصفها والانكى انه يدعي بانه تعود على هذا الامر منذ صغره يقول هذا متعجرفاً متكبراً

واكثرنا سروراً كاتزنسكي ففي كل صباح يدعو اميل ان ياتيه بالسمك والقهوة وهكذا نقضي الايام بسرور لا مزيد عليه يعامل الواحد منا الاخر معاملة الآمر للمامور فهاك مثلاً يقول لير الى كروب «ان في اسفل رجلي ما يقرصني فاقتل القملة يا كروب». يقول هذا ويمد رجله الى امام كروب فيسحبه البرت برجله على السلّم

ثم يصدر الامر الى تجادن فيقول هذا «ايش»

«تقول ايش. قف وقل نعم يا سيدي. هذه اوامر الجندية يا تجادن»

اما تجادن فيردد قطعاً من غوته يعرفها وقد الفها

بعد مرور ثمانية ايام اخرى تصدر لنا الاوامر ان نتصرف من هذا الفردوس فيجيء لنقلنا لوريان كبيران مكدس عليهما صفائح من تنك. فنضع انا والبرت فوق الاكداس السرير الخشبي الذي مر ذكره وعليه اغطية الحرير والفراش الناعم والخرج الخ. ومن وراءه كيس كبير محشو بكل ماكول لذيذ وفي طريقنا نفتحه من اونة الى اخرى لنتمتع بمحتوياته من المقددات والمخللات والسيكارات . هذا ولكل منا كيس كبير ملبود. قد غنمنا انا وكروب كرسيين هزازين كبيرتين نضعهما على السرير ونجلس عليهما كانا في «تياترو» فخم. يظللنا الحرير الازرق «ناموسية» على السرير كانا في هودج وكل منا يدخن سيكاراً كبيراً نمتع انظارنا من هذا العلو بالمناظر الممتدة. وبيننا الهرة في قفص ببغاء وامامها قصعة فيها اللحم. يسير بنا اللوريان على مهل ومن ورائنا القنابل تذري في الهواء بقايا القرية الخالية من كل بشر

بعد هذا بايام قليلة تصدر لنا الاوامر ان نذهب الى قرية لنخرج سكانها منها وبطريقنا نمر بهم هاربين ينقلون امتعتهم اما على ظهورهم او بعربات يجرونها امامهم بايديهم . نراهم منحني الظهور على وجوههم علامات الياس والحزن مسرعين مستسلمين الى الاقدار والصغار ممسكون بايدي امهاتهم وهنا وهناك نرى الصبايا يقدن الصغار ملتفتات الى الوراء. والقليلون من هولاء الصغار يحملون دمى قذرة للغاية والكل يسيرون كان على رووسهم الطير

نسير صفاً الواحد قرب الاخر. الافرنسيون لا يصبون قنابلهم على قرية لا يزال سكانها فيها ولكن لا تمر دقائق قليلة الا ويمتلىء الفضاء بازيز القنابل وتفتح الارض براكينها فيعلو الصراخ وها قنبلة تصيب مؤخرة صفنا فتتفرق ونرتمي على الارض ولكنني اشعر ان الغريزة التي كانت في قد ارتحلت عني تلك التي كانت كل مرة تدفعني ان اقوم بدون معرفة مني وفي حالة كهذه بما هو عين الصواب. فللحال يطرا على بالي فكر يرافقه خوف يكاد يخنقني الا وهو «اني مقتول لا محالة» وفي لحظة اخرى اشعر بضرب على رجلي فانظر واذا البرت قربي يصرخ ويصيح. فاصيح به ان يسرع لاننا في العراء لا يحمينا شيء فيتمايل ويركض وانا ابقى بقربه ثم نصل بركضنا هذا الى سور اعلى منا فيمسك كروب بغصن شجرة وارفعه بيدي فيصرخ متالماً ثم ارجحه فيقفز من فوق السور الى الجهة المقابلة واتبعه انا بقفزة واحدة ونصل الى حفرة مملوءة من الوحل والعشب فيصيب وجهنا منها ما لا يستحب ولكن الحفرة مخبا حسن للغاية فننزل فيها وتعلو المياه عنقينا وها نحن نخبىء راسينا في الماء كلما ازت فوقنا رصاصة او قنبلة وبعد ان نجري هذا ما لا يقل عن اثنتي عشرة مرة اشعر بتعب ينهك قواي

يقول لي البرت «دعنا نخرج من هذه الحفرة والا سقطت فيها ومت غرقاً»

«اين اصابتك الرصاصة يا البرت»

«في ركبتي»

«اتقدر على الركض»

«اظن انه يمكنني ذلك»

«اذن فلنخرج»

ونضع نصب اعيننا حفرة مقابل الطريق ونركض اليها. اما القنابل فتتبعنا كانها الصق بنا من اخيلتنا. ان الطريق التي نسلكها تؤدي بنا الى مخازن الذخيرة وهذه اذا سقطت عليها قنبلة واحدة اجهزت علينا كلنا ولم تترك راساً على كتف. فنحول ابصارنا عما نركض اليه ونركض في زاوية منحرفة في العراء. وفي اقل من القليل اجد البرت يمشي متثاقلاً فيرمي بنفسه على الارض ويقول لي «سر الى الامام وساتبعك عن قريب» فامسكه بذراعه واهزه «انهض يا البرت لانك اذا ارتميت هنا لا تقوم ابداً. قم وانا اعينك في سيرك». وبعد سير وتعب نصل الى مخبا ينزل فيه البرت واضمد انا جراحه. لقد اصابته الرصاصة فوق ركبته. ثم بعد هذا انظر الى نفسي فارى سراويلي مغموسة بالدم والدم ينزف من ذراعي فيضمد البرت بدوره جرحي. وها هو الان يعجز ان ياتي بحركة فننظر الواحد الى الاخر متعجبين كيف امكننا السير والركض مسافة هذا مقدارها. اجل الخوف وحده الذي دفعنا الى كل هذا والخوف يجعلنا ايضاً ان نركض على ارومتينا بدون ارجل. ازحف قليلاً وانادي الى من في عربة لحمل الجرحى فياتون الينا ويضعوننا في العربة مع الجرحى الكثيرين وبين الفرقة او نباشي من الفرقة الصحية فيحقننا في صدرينا بما هو مضاد لداء الكزاز (تتانوس)

.....

نرتب الامور ان اكون في غرفة التضميد قرب البرت. يقدمون لنا نوعاً من الشوربا هي بالحقيقة ماء حار ولكننا نشربها بشراهة لاننا جائعان وبتذمر لاننا اعتدنا على طعام افضل منها جداً. اخاطب

البرت قائلاً «الى البيت هذه المرة يا البرت»

«عساه يتم هذا فلنرجوه. غير انني اود ان اعرف ما اصابني»

تزداد الامنا ونشعر ان الاربطة نار تحرقنا فنشرب الماء بكثرة كوباً بعد الاخرى

يسالني كروب «اين اصابتني الرصاصة يا بول»

«على بعد اربعة قراريط فوق الركبة» اما الحقيقة فان البعد قيراط واحد

وبعد سكوت برهة وجيزة يقول «قد عزمت على الانتحار فيما اذا راوا لا مندوحة من قطع رجلي . الموت افضل من حياة المقعد العاجز» وهكذا نسكت منتظرين ما يخبئه لنا الدهر وافكارنا تكلمنا وتحدثنا

.....

عند المساء ينقلوننا الى غرفة «التقصيب» فاخاف جداً وللحال افتكر بما يجب علي عمله لانجو مما هو مخبا لي في هذه الغرفة. كلنا يعرف ان الجراحين في مراكز التضميد يلجؤون الى القطع والبتر لادنى سبب لانهم يرون القطع والبتر اسهل لهم من الترقيع وزد على هذا ان الجرحى كثيرون واشغال الجراحين كثيرة ايضاً وللحال افتكر بكمريخ وما قاساه وعليه فاعزم ان امنعهم عن تبنيجي ولو كلفني الامر ان اكسر راسين من رووسهم

يجيء الطبيب ويدفع شيئاً في الجرح ليفحصه وللحال يستولي على عيني ظلام دامس ثم يقول لي «لا يمكنك البقاء على ما انت عليه» ويسعل سعالاً متقطعاً. ارى في يديه الالات الجراحية تلمع كانها من الحيوانات السيئة الطباع واوجاعي لا تطاق . ثم يمسك ممرضان يدي فافلت احداهما منهما واحاول ان اسحق نظارتي الطبيب بها. فينتبه الطبيب

قبل وقوع ما انويه ويقفز الى الوراء ثم يصرخ «الى البنج ايها الوغد» فيسكن ثائري واخاطبه قائلاً عفوك سيدي الطبيب. اني سوف لا ابدي حركة فارجوك ان تبعد عني البنج»

فيقول ضاحكاً «لا باس بما تطلبه». ثم يتناول الاته ويستانف عمله. الجراح هذا اشقر اللون لا يتجاوز الثلاثين من العمر على وجهه اثار جراح عديدة ذو نظارتين قبيحتين للغاية. اراه يزيد في عذابي وها هو لا يجري امراً سوى دفع الات في الجرح الى جهات مختلفة والنظر الي وعلى وجهه كل علامات الخداع فماهي لحظة الا وتقع يداي على مبضعه واحاول ان البط برجلي دلو الماء بقربي قبل ان ارفع صوتي او تظهر علي علامات استعداد لهذا العمل. ولكنه يعثر على شظية قنبلة فيخرجها من الجرح ويرميها لي وتظهر عليه علامات الارتياح والسرور لمقدرتي على ضبط نفسي ودليلي بهذا انه ياخذ رجلي بكل اعتناء ويضعها ضمن خشبتين ويقول لي «ستذهب غداً الى البيت» ثم يطلي رجلي بالجفصين. وعندما التقي بكروب اقول له بان غداً سيجيء قطار لنقل الجرحى وما علينا الا ان ندبر الامر مع الضابط لنبقى معاً يا البرت . فانتهز الفرصة واضع في جيب الضابط سيكارات وحلويات واخبره همساً بما صنعت فيعجب برائحة السيكارات ويقول لي «هل عندكم من هذه الشيء الكثير» فاجيبه «هاك غيره ولرفيقي ـ مشيراً الى كروب ـ الشيء الكثير منها ونرجو ان نعطيك بعضها غداً من شباك القطار المرسل لنقل الجرحى» فيفقه للحال ما نقصده فيعطينا اشارة القبول بما نعرفه ويعود ويشم رائحة السيكارات التي في جيبه. نقضي الليل بطوله وعيوننا لم تذق طعم الكرى فسعة من الجرحى في الغرفة التي نحن فيها قد انتقلوا الى العالم الاخر احدهم يرنم

بصوته العالي ترانيم دينية قبل ان يلفظ نفسه الاخير. والاخر يزحف من سريره الى شباك الغرفة ويجلس بقرب الشباك كانه يودع ما يراه خارج الغرفة

.....

ان المحامل المضطجعون عليها الان في ساحة محطة سكة الحديد في العراء وها المطر الغزير ينصب علينا لا يحمينا منه سوى الاغطية الخفيفة التي علينا وعلينا ان ننتظر ساعتين كاملتين بحالة كهذه. غير ان الضابط الذي اعطيناه السيكارات بالامس يعتني بنا اعتناء الام باولادها. اجل ان الامي واوجاعي لا تنسيني هذا الضابط وما اعددناه له فمن وقت الى اخر اعطيه سيكارة مما وعدناه به والنتيجة انه يجيء لنا بغطاء من المشمع يضعه علينا. ثم اعود بالذاكرة الى القرية وما فيها فاخاطب البرت قائلاً «سقى الله يا البرت السرير وما عليه من الرياش وافتكر بالهرة العزيزة» وما رايك بالكرسيين الكبيرين»

اجل الكرسيان الكبيران والبليش الاحمر عليهما. فكنا كل مساء نجلس عليهما كاننا من صف اللوردات ثم بعده نؤجرهما على معدل سيكارة بالساعة. وكان بالامكان ان تصير المسالة متاجرة لا بل قل صفقتين رابحتين للغاية

«وما قولك يا البرت باكياسنا المملوءة مؤونة» ان هذه الافكار تجعلنا حزانى عابسين . كان بالامكان ان ننتفع من كل هذه ولو تاخر القطار يوماً واحداً لعرف كاتزنسكي بامرنا وعرف مقرنا وجلب لنا كل هذه الاشياء. فنلعن حظنا وبؤسنا. نشرب الان احقر انواع الشوربا وفي اكياسنا الذ الماكولات واطيبها. غير ان ضعفنا يمنعنا ان نهتم بالامر ونبني عليه «علالي وقصور» ولما يصل القطار تكون المحامل

المضطجعون عليها قد صارت مبللة لكثرة ما انسكب عليها من المطر الغزير وها الضابط يهتم جداً بان اكون والبرت في غرفة واحدة قريبين الواحد من الاخر. في القطار عدد ليس بالقليل من ممرضات الصليب الاحمر اللواتي يضعن كروب على سرير ويطلبون مني ان اصعد الى السرير الذي فوقه. فانظر الى السرير واصيح متعجباً «يا الهي» فتجيبني الاخت الممرضة «وما بالك يا صاح» فارمي بنظري على السرير واراه كله نقياً كالثلج عليه الاغطية من الكتان الابيض الناصع لا تزال عليها اثار الكي بينما قميصي لم تغسل منذ ستة اسابيع عليها الوحل قراريط. فتستانف الاخت كلامها وتقول بكل لطف «الا يمكنك الصعود بدون مساعدة احد»

«بدون شك اقدر على هذا ولكن ارجوك اولاً ان تنزعي عن هذا السرير ما عليه من الشراشف والكتان»

«لاني قذر كالخنزير. فاذا رميت بنفسي على هذه تصير...»

«قذرة نوعاً. لا باس بالامر فيمكننا غسلها

فتتهيج اعصابي واقول لها «لا. لا. ليس هذا بل الحقيقة اني لا اراني مستحقاً هذه النظافة وهذا الترتيب»

«انتم لا تتاخرون عن الخنادق والعمل فيها فكيف تابى نحن غسل هذه. الامر سهل جداً»

احدق بها فاراها صبية قصيرة القامة مجعدة الشعر نظيفة مرتبة لا لطخة البتة عليها. وهذا حال كل من في هذا القطار ما خلا الجنود الامر الذي يجعلنا ان نتاكد ان القطار هذا خاص بالضباط فقط وكل من فيه وهو غير ضابط يشعر بانه غريب وهذا بعض الاحيان يخيفه. اما هذه الصبية فيظهر انها لن تتركني وشاني الا بعد صعودي الى

السرير فاحاول ان افهمها ولو بالاشارة عما يمنعني عن اتمام ما تطلبه مني فتقول «اذن وما يمنعك» فاصدقها الخبر واقول «القمل القمل» فتقهقه ضاحكة وتقول «اولا يحق لهولاء ايضاً ان يكون لهن فراش وثير ولو مرة في الحياة». فعندماتقول لي هذا الكلام اقفز الى الفراش واغطي نفسي بما عليه من الشراشف والكتان وبينما انا في هذه الحالة يمر الضابط المعهود يتلمسنا بيديه فنعطيه ما وعدناه وبعد هذا بساعة نشعر بحركة القطار وسيره

.....

يجيء الليل فلا اقدر ان انام وها كروب مثلي . القطار يسير الهوينا بدون انزعاج اما انا لا ازال في حيرة من امري انام على فراش وثير وفي قطار واسير نحو بيتي هذا ما لم نكن نحلم به فاهمس الى البرت واساله عن... فيقول لي ان المكان من عن يمين الباب فانزل من سريري اتلمس طريقي لان الغرفة مظلمة وما هي الا لحظة الا واسقط الى الارض فاشتم والعن ثم يفتح الباب فتدخل الممرضة وبيدها ضوء وتظنني قد سقطت من على سريري فتعيدني اليه وتجس نبضي وتتاكد بان لا حمى علي. اجل اخجل جداً ان اخبرها عن حاجتي ولكن كروب صريح جداً فيخبرها الحقيقة وانال ما يريحني. وفي اليوم التالي اجد المسالة عادية لا خجل بها

القطار يسير الهوينا وبعض الاحيان يوقفونه لانزال الموتى وما اكثر وقفاته هذه

الحمى على البرت عالية جداً اما حالتي فاحسن منه جداً. يؤلمني وجود قمل تحت الجفصين يقرصني فيصعب علي الحكاك. ننام ونقطع الطريق بكل هدوء وبعد ثلاثة ايام نصل الى هربستال واسمع

الاخت المرضة تقول ان عليهن ان يرسلن البرت الى المستشفى في هربستال بسبب الحمى التي عليه. فاسالها الى اين مصيرنا نحن فتقول الى كولونيا. فاقول الى البرت «لا يفارق الواحد منا الاخر وسترى الامر بام عينك» . وعندما تجيء الممرضة المرة التالية تتفقدنا احبس نفسي فينتفخ وجهي ويحمر فتقف وتسالني «اموجوع انت» «جداً ايتها الاخت والغريب ان الالم هجم علي بغتة» . فتعطيني ميزان الحرارة وتنصرف وما اسهل علينا خداعهن بهذه الالعوبة فكاتزنسكي قد علمنا ماهية هذه الموازين فان كنت الان لا استخدم ما علمنا اياه كاتزنسكي لا استحق ان ادعى صديقه فاضع الميزان تحت ابطي وافركه باصبعي حتى يرتفع الزئبق فيه. ويبقى بارتفاع في كل الاحوال وهذه الخاصية خاصة بموازين الحرارة المختصة بالجندية. افرك الميزان فيرتفع الزئبق الى الدرجة ١٠٠ فاجد ان هذا لا يكفي لتنفيذ ما اريد. فاشعل عود نار تحته فيرتفع الى الدرجة ١٠١،٦ ثم تجيء الاخت فاعود الى حبس نفسي وتقلبي على فراشي وانظر اليها بعينين ملؤهما الالم المبرح ثم اهذي في حضرتها قائلاً «لا اقدر على احتمال هذا البتة». فللحال تكتب اسمي على ورقة. اني اعرف تمام المعرفة انهم لا ينزعون الجفصين عن رجلي اذا امكنهم الامر. ثم نصل الى المحطة وها البرت وانا في باحتها

.....

ان حسن حظنا هذه المرة يقودنا الى مستشفى الكاثوليك ومستشفيات الكاثوليك مشهورة بنظافتها وطعامها اللذيذ. اما وقد امتلات جنبات هذا المستشفى من الجرحى الذين جاؤوا في القطار معنا بينهم كثيرون في حالة الخطر الشديد فلم يتيسر للاطباء ان يفحصونا اليوم لقلة عددهم

وها العربات في المستشفى ذات الدواليب الكاوتشوك تسير في غرف المستشفى وعليها رجال ممدودون وهذه حالة في غير اوقات النوم شؤم ومكروهة ٠

الليل متعب لم يقدر واحد منا ان ينام وعند تباشير الصباح نهجع قليلاً غير اني استيقظ عند شروق الشمس فاجد الباب على مصراعيه واسمع في باحة المستشفى اصواتاً توقظ الباقين كلهم٠ بيننا رفيق سبقنا الى هذا المكان بيومين يخبرنا ان هذه الاصوات انما هي صلوات الاخوات الصباحية ويفتحن الابواب ليشاركهن بصلواتهن كل من في المستشفى

اجل ان نياتهن بعملهن هذا حسنة للغاية ولكنها تسبب لنا اوجاعاً لا تطاق فاقول «ما هذه الترهات٠ يصلين عندما تبتدىء جفوننا تغمض»

فيقول لنا الرفيق «في هذا الجناح من المستشفى الحوادث البسيطة فلهذا الراهبات يقمن صلواتهن فيه»

يتنهد البرت فاجن واصرخ بهن ان يسكتن٠ وبعد هذا بدقيقة تظهر راهبة بثوبها الاسود والابيض فيناديها احدنا قائلاً «الرجاء ايتها الاخت ان تغلقي الباب»

«اننا نقوم بفروض الصلاة ولاجل هذا ترى الابواب مفتوحة»

«ولكننا نود ان نبقى نياماً»

«الصلاة افضل من النوم وزد على ذلك ان الان الساعة السابعة «تقول هذا باسمة فيتنهد البرت ثانية فاصيح بها قائلاً «اقول لك ان تغلقي الباب» ٠ فتقف غير مهتمة بالامر وتقول «ولكننا نقوم بصلواتنا وهذه لكم ولنياتكم ايضاً»

«ولكني اريدك ان تغلقي الباب كيف كان الحال»

فتخرج ويبقى الباب مفتوحاً على مصراعيه ويستمر تلحينهن الصلوات يرن في الغرف واذاننا. فعندها اراني وحشياً فاقول «اني اعد حتى الثلاثة فان لم يبطل هذا الصياح سيتطاير في الغرفة اجسام واشياء»

ويقول اخر «وسافعل ذلك ايضاً» اعد حتى الخمسة ثم اتناول زجاجة وارميها من الباب الى باحة الدار فتسقط الى ارض الدار وتتكسر الى اجزاء لا يقل عددها عن الالف. فللحال يقفن عن الصلاة ويدخل الينا رهط من الاخوات يوبخننا على عملنا هذا فنصيح بهن ان يقفلن الباب فينهزمن كلهن وتكون الصغيرة التي جاءت قبلهن كلهن الاخيرة في انصرافها عنا فتهمس وتقول «انكم قوم وثنيون» وتنطلق ولكنها تغلق الباب وبهذا يتم النصر لنا

يحضر مفتش المستشفى عند الظهر ويوبخنا على عملنا ويتهددنا بقصاصات عديدة. ولكن ما هو مفتش المستشفى سوى كاتب بسيط مسموح له ان ينقل السيف وهذا اعتقاد الكل حتى الانفار في الجندية فهو ليس ضابطاً ليطاع. فنتركه يتشدق كما يريد. ثم يسالنا «من رمى الزجاجة»

وقبل ان افتكر ان اجيبه سلباً او ايجاباً يجلس رجل ذو لحية صغيرة في سريره ويقول «انا ذاك الرجل»

فيقول له «انت فعلت هذا»

«اجل. قد احرجت فاخرجت. ايقظتنا دون منفعة او فائدة ولذلك فقدت عقلي فاجريت ما اجريت» . يقول هذا وكل واحد منا متعجب من اقراره هذا وهو يتكلم بلهجة تجعل الكل يصدقون كلامه

«ما اسمك»

«جوزف هاماشر من فرقة الرديف الاحتياطي»

ينطلق المفتش و نرمي هاماشر بالاسئلة لماذا اراد ان يحمل مسؤولية عمل لم يقم به هو

«لا باس بذلك فلي رخصة للصيد»

فعندها نعرف ان للمرخص للصيد ان يعمل ما يشاء بلا اثم ولا حرج اما هو فيستانف الكلام ويقول «اصبت مرة بما كسر راسي وعندها اعطوني شهادة باني في اوقات خاصة اقوم باعمال جنونية لا يمكن ان اكون مسؤولاً عنها. ومنذ ذلك الحين حتى الان اتمتع بامور كثيرة لا يجرا احد ان يغضبني او يقاضني. وقد اخبرت المفتش اني الذي رميت الزجاجة لان الامر يسرني ولاني مزمع ان اعيد الكرة فيما اذا عدن الى صلواتهن وابواب غرفنا مفتوحة»

ان وجود جوزف هاماشر بيننا ومعه هذه الماذونية للصيد يسرنا للغاية . بعده تجيء العربات ذات الدواليب الكاوتشوك لتنقلنا فتشد اربطتنا وها كل منا يخور كالعجل

.....

معي في الغرفة سبعة انفار بطرس وهو في حالة خطرة جداً لانه مجروح في رئته وهو ذو شعر اسود جعدي وفرانز واختر بقربه وقد اصابته الرصاصة في ذراعه وكان في بادىء الامر بحالة مرضية للغاية ولكنه يصرخ الينا في الليل الثالث بعد وصوله الينا ان نقرع الجرس لتجيء الممرضة لان الدم ينزف من جراحه. فاقرع الجرس ولكن الممرضة الليلية لا تجيء والسبب اننا اثقلنا عاتقها بكثرة مطالبنا والسبب ان اربطتنا كلها جديدة وشديدة فكنا متالمين منها جداً وعليه كنا نطلبها لتضع رجل الواحد بوضعية خاصة وراس الاخر على مخدة اعلى حتى اخيراً تضايقت وتذمرت فخرجت واغلقت الباب وها

هي تحسب قرعنا الجرس هذه المرة من هذا القبيل فلا تجيء البتة. فنتظر هنيهة ولا مجيب فيعود فرانز ويطلب قرع الجرس فاعيد الكرة ولا مجيب. في هذا الجناح من المستشفى ممرضة واحدة ليلية لعلها تهتم الآن بامر اخر فاسال فرانز «هل انت على يقين ان الدم ينزف والا تعود هذه وتصب علينا لعناتها»

فيقول «ان الرباط مبلل . الا يقدر واحد منكم ان ينير الغرفة»

من اين يمكن ذلك وزر الكهرباء قرب الباب وكلنا عاجزون عن الوقوف فاعود انا واقرع الجرس قرعات متواصلة ولكن لا مجيب. لعلها نائمة. ان هولاء قليلات ويشتغلن ليلاً ونهاراً اكثر جداً من طاقتهن زد على ذلك تمسكهن المتواصل بالصلاة

ثم نسمع صوت جوزف صاحب ماذونية الصيد «هل اكسر زجاجة ما»

«اذا كانت لا تسمع رن الجرس فكيف يمكنها ان تسمع انكسار الزجاجة»

وبعد اللتيا واللتي يفتح الباب وتدخل متمتمة ولكنها عندما ترى حالة فرانز وضيقه تهتم بالامر وتكثر الحركة وتقول «لماذا لم يدعني احد منكم» .

«قرعنا الجرس مراراً عديدة ولا يقدر احد منا على المشي»

ان حالته سيئة جداً فتعتني به وتشد اربطة الجرح. وفي الصباح تنظر اليه فاذا وجهه اصفر كالزعفران بينما كان عليه بالامس كل علامات الصحة. ان ما اصاب فرانز يجعل الممرضة ان تكثر زياراتها لنا

.....

تطوع بعض الاحيان ممرضات الصليب الاحمر لمساعدة الراهبات ان هولاء فرحات ولكنهن غير خبيرات بالعمل فلطالما يزدن الامنا

عندما يرتبن اسرتنا وهذا يؤول لخوفهن وبالنتيجة تزداد ايضاً الامنا. اما الراهبات فاكثر اهلية للعمل لانهن يعرفن مداخل فن التمريض ومخارجه ويعرفن كيف ينقلننا ويحركننا ولكن يا ليتهن اكثر بشاشة بيد ان بعضهن ممتازات انساً ولطفاً وبشراً. فكل واحد منا يضحي باغلى ما لديه خدمة للاخت المتناهية لطفاً الراهبة ليبرتين تلك التي تنشر بشراً واياساً يميناً وشمالاً اين سارت وكيف توجهت واذا ادى الامر ان نقتحم النار اكراماً لها فلا نتاخر ابداً. وبالاجمال ان لا مجال لنا للتذمر لاننا نعامل في هذا المكان معاملة البشر

ان فرانز واختر يبقى ضعيفاً ولا تعود عافيته اليه فيخرجون به احد الايام ولا يعود. ان جوزف هاماشر يعرف مصيره فيقول لنا «اننا لا نراه فيما بعد وقد نقلوه الى غرفة المائتين»

فيساله كروب «وما تعني بقولك غرفة المائتين»

«اي غرفة المحتضرين»

«وما هذه»

«هي غرفة في زاوية هذا البناء ينقلون اليها كل من تدل عليه علامات رحيله الى ام عمرو . فيها سريران ولهذا يدعونها غرفة المحتضرين»

«ولماذا يتصرفون هذا التصرف»

«اولاً لانه يقل عملهم فيما يتعلق بالمحتضرين وثانياً ان الغرفة هناك قريبة جداً الى الرافع الى الغرفة التي يضعون فيها الموتى قبل دفنهم وقد يكون انهم يفعلون هذا حتى لا يرى الباقون المحتضر ثم ويكون لهم مجالاً اكبر لتحضيره اذا احتيج لذلك»

«ولكن ما قولك بالمحتضر»

فيهز جوزف كتفيه ويقول «في الغالب انه يفقد كل رشد ولا يعي على شيء »

«وهل يعرف الكل بامره»

«كل من قضى في هذا المكان زمناً معيناً يعرف كل هذه»

.....

يحتل زائر جديد بعد ظهر هذا النهار سرير فرانز واختر. وبعد هذا بيومين يقتفي هذا اثار سلفه فيبدي جوزف اشارات خاصة وفي كل يوم نرى عدداً وافراً يدخلون المستشفى ويخرجون منه وفي احيان كثيرة يجلس اقرباء الجرحى قرب اسرتهم يبكون او يتهامسون. امراة عجوز تلازمنا ملازمة الاخيلة ولكنها تنصرف عنا في الليل اذ لا يمكنها البقاء في المستشفى. ففي احد الاصباح تعود ولكنها تصل متاخرة رغم وصولها باكراً. وذلك لانها تجد في سرير ابنها جريحاً اخر اما ابنها ففي الغرفة المعينة للموتى قبل دفنهم تعطينا ما جلبته معها من التفاح وتنطلق

بعده تسوء حالة بطرس الصغير وتشتد عليه الحرارة فيجيئون اليه احد الايام بعربة المستشفى فيسالهم عن وجهة سفره فيقولون «الى غرفة التضميد» فينقلونه الى العربة ثم ترمي الراهبة رداءه على العربة كي لا ترجع اليه ثانية فيعرف بطرس معنى كل هذا ويقول «لا اود الرحيل من هنا» فيدفعونه بالعربة اما هو فينحت من ضعفه قوة ويصيح «لا اريد الذهاب الى غرفة المحتضرين»

«ولكننا سائرون بك الى غرفة التضميد»

«اذاً ما شانكم ورداءي» وبهذا ينخفض صوته ويصير ابح وعنده يهمس «اريد البقاء هنا». فلا يعيرونه التفاتاً بل يستمرون بجره

وعند وصولهم الى الباب يحاول ان ينتصب فيتمايل راسه ذو الشعر الاسود الجعدي وتغرورق عيناه بالدموع ويقول «ساعود اليكم. ساعود اليكم». فيغلق الباب وتتهيج اعصابنا كلنا ولكن لا ينبس الواحد منا بكلمة. بعده يقول جوزف «كثيرون قبله قالوا هذا القول. ومن يدخل الى هذه الغرفة لا يخرج منها ابداً»

.....

لقد اجروا لي العملية الجراحية. بعدها يستمر التقيؤ معي يومين كاملين وعظامي لن تتلاحم فيقول كاتب الجراح ان رجلي شخص اخر قد التوتا فكسرتا قصداً مرة اخرى». انه لامر مرعب

بين القادمين حديثاً شابان ارجلهما مسطحة في اخمصها فيكشف رئيس الجراحين هذا بزيارته المرضى ويطير فرحاً ويقول لهما «اننا سنصلح هذه لكما بعملية جراحية بسيطة للغاية وبعده تكون ارجلكما صحيحة سليمة». ثم يلتفت الى الاخت ويطلب اليها ان تكتب اسميهما في قائمة العمليات. ولكن عند خروجه يحذرهم جوزف من هذا الامر لانه يعرف كل حذافير هذه الحكاية ويقول لهما «لا تسمحا له بالامر فهو ماخوذ بهذه الالعوبة العلمية. وعندما يجد ما يمكنه من اجراء هذه العملية يجن فرحاً. اجل انه سيجري لكما العملية الجراحية ليريحكما من الارجل المسطحة في اخمصها وسينجح في ذلك لان ارجلكما ستكون بعد العملية خشبية لا محالة وهذه تدوم معكما الى انقضاء عمريكما»

فيسالنا احدهما «وما علينا ان نعمل في حالة كهذه»

«قولا لا. انتما لم ترسلا الى هذا المستشفى لاصلاح ارجلكما بل لابراء جراحكما. هل ازعجتكما ارجلكما في ساحة الحرب. يمكنكما

الان السير عليها ولكن اذا توفق ذاك الشقي واستولى على ارادتيكما بهذا الشان فتصيران مقعدين . انه بحاجة الى كلاب يجري عليها اختباراته. ان الحرب لزمن سعادة وسرور له وللجراحين الذين على شاكلته. انظرا الى الطابق الاسفل ففيه اكثر من عشرة رجال يخمعون ويعرجون لانه اجرى عليهم عملية جراحية كالتي نتكلم عنها. وعدد كبير من هولاء هنا منذ مدة طويلة. وها كلهم حتى ولا واحد منهم مشيته احسن منها قبل اجراء العملية. لا بل هي ارداً وارجل اكثرية هولاء ضمن الجفصين . وها كل ستة اشهر يعيد عليهم النغمة نفسها فيكسر ارجلهم قصداً ويخبرهم ان العملية ناجحة هذه المرة. تاكدا انه لا يجرأ ان يبدي رايأ او يقول كلمة اذا رفضتما طلبه»

فيقول احدهما «ها ها ايها الرجل اجل. الافضل جداً ان تكون مصاباً في رجلك من ان تصاب في جمجمة الراس. ولا احد يعرف ما يصاب به او ما هو مخبأ له اذا عدنا الى هنالك. فليجروا بي كل عملية ارادوها ما زلت ذاهباً الى البيت بعدها. الافضل ان يكون لك رجل خشبية من ان تكون بين الموتى»

اما الاخر فمن راينا لا يريد البتة ان تجرى العملية ولكن في الصباح التالي يظهر المارد ويخطب فيهما مدة فيقنعهما بصحة نظريته فيذعنان له وما عساهما يفعلان وهما نفران بسيطان وهو ضابط ذو امر ونهي. فينقلونهما وبعد ذلك يعودون بهما مبنجين وارجلهما في لفافات الجفصين

ان حالة البرت تزداد بؤساً فانهم قد بتروا رجله عند الفخذ ولهذا لايفوه بكلمة الا انه مرة قال انه سينتحر حالما يتمكن من الوصول الى مسدس

تصل الى المستشفى قافلة جديدة ويكون نصيب غرفتنا منها رجلين اعميين واحدهما شاب موسيقي. بتصرفه يمنع الراهبات ان يحملن سكيناً عندما يتقدمن لاطعامه اذ خطف من احدى الاخوات سكيناً اراد الانتحار بها. ورغم كل هذه الاحتياطات تمكن من الوصول الى ما يشفي غليله . فبينما الاخت تطعمه في احد الامساء يدعونها الى محل اخر فتنطلق تاركة الصحفة والشوكة على المائدة امامه فيتلمس الطاولة حتى يصل الى الشوكة فياخذها ويدفعها الى قلبه بكل قوته. ثم يتناول حذاءه ويدقها به باشد ما لديه من القوة. فنطلب المعونة والمسالة تحتاج الى ثلاثة رجال اقوياء لينزعوا الشوكة من جسده. وها اصابع الشوكة قد غرزت الى عمق في جسده ولكنه يضايقنا كل الليل بصراخه وانينه وفي الصباح يصاب بداء الكزاز (التاتانوس)

وهكذا يوم بعد يوم تفرغ الاسرة وتمتلىء ويوم بعد يوم يفعم المستشفى من انين المتالمين وتنهدات الموجوعين وحشرجة المحتضرين وها غرفة المحتضرين ضاقت بمن ينقلونهم اليها فيموت كثيرون على اسرتهم في غرفتنا حتى ان حوادث الموت اكثر جداً مما تقدر الراهبات على الانتباه اليها

يفتح الباب يوماً وتدخل العربة وعليها بطرس ضعيفاً هزيلاً ولكنه منتصب وتدفعه الاخت ليبرتين باسمة مشرقة حتى تصل به الى سريره فيلتقي عليه وها هو قد عاد من غرفة المحتضرين وكنا كلنا نحسبه بين الموتى فيجول بنظره الينا ويقول «وما رايكم بالامر الان» هذه الحادثة الاولى من نوعها فجوزف الان يقر ان ليس كل من يحملونه الى غرفة المحتضرين من عالم الاموات

تدريجاً يسمح لبعضنا ان ننزل عن اسرتنا ونمشي في الغرفة قليلاً

وقد اعطوني عكازاً لاخمع بها ولكنني لا انتفع بها كثيراً لانني لا اقدر على احتمال نظرات البرت الي بينما انا اخمع في الغرفة فعيناه ترافقانني حيث توجهت ولهذا اهرب منه في بعض الاحيان الى باحة المستشفى لاكون اكثر حرية في مشيي وخمعي

في الطابق السفلي كل حوادث الجرحى في الامعاء والسلسلة الفقرية وفي الراس والبتر المزدوج. وفي الجناح الايمن حوادث الجرحى في الفم والمصابين بالغاز وحوادث الانف والاذن والعنق وفي الجناح الايسر حوادث الجرحى في رئاتهم واكفالهم ومفاصلهم واحشائهم. ففي هذا المكان يمكن للفرد ان يتعلم مساحة جسم الانسان ويعرف المواضع التي يمكن ان تصيبه الرصاصة فيها

اثنان يموتان بداء الكزاز فتصير بشرتاهما صفراويتين وتتصلب ايديهما وارجلهما ولا يبقى للحياة فيهما من اثر الا في اعينهما. وعدد كثير من الجرحى تتدلى ايديهم او ارجلهم من اسرتهم وتحتها اوعية ينزل اليها الصديد من هذه الايدي والارجل وفي كل ساعتين او ثلاثة تفرغ الاوعية وغيرهم ينطرحون على الفراش مضمدين يتدلى من الاربطة اثقال يعجز عن حملها اشد البغال وذلك ليبقوا مستلقين على ظهورهم ممدودين

وارى ايضاً جراحاً في الامعاء مملوءة دائماً بالافراز ثم يريني كاتب الجراح صور الاشعة فيها عظام الورك او الركبة او الكتف مسحوقة ومطحونة

يكاد الفرد لا يصدق ان في هذه الاجساد المحطمة وجوهاً بشرية وحياة تتنازع البقاء يوماً بعد يوم. كل هذا في مستشفى واحد فقط وفي محطة صغيرة وها المئات لا بل الالوف بل قل مئات الالوف من هذه

في جرمانيا ومثلها في فرنسا ومثلها في روسيا ٠

ما اتفه ما يقال ويكتب عن المدنيات والتهذيب بينما يمكن وقوع مثل هذه٠ ان كل تلك اكاذيب وخرافات وها مدنية العالم في الوف السنين لم تقدر ان تمنع جري جداول الدماء واهراقها ولم تقدر ان تمنع ما يقاسيه الانسان من الالام والاوجاع في مئات الالوف من المستشفيات ٠ ففي مستشفى واحد بسيط فقط يمكن للمرء ان يعرف ماهية الحرب وفظائعها

اني شاب وابن عشرين ومع كل ذلك لا اعرف في الحياة الا الياس والخوف والموت وهوة حزن عميقة مغطاة بغطاء وهمي سطحي للغاية٠ واني ارى شعوب الارض تتطاحن وتقتتل٠ وبكل برودة وحماقة يقتل الواحد الاخر اطاعة لامر آمر والقاتل يجري عمله بكل ضمير صالح وهو لا يعرف الكم والكيف ٠ وارى ايضاً ان احذق البشر واقواهم عقلاً يخترعون الاسلحة وينمقون الكلمات والنعوت لتظهر الحرب مهذبة فيمكن ان تطول اقامتها في ادمغة المحاربين ٠ وها كل الرجال في عصري هذا واعني بهم الرجال هنا في جرمانيا وهناك بين صفوف الاعداء لا بل في كل العالم يرون ما اراه انا ٠ وها كلهم يمرون مثلي في بوتقة هذا الاختبار المؤلم٠ وما يصيب ابائنا واسلافنا اذا وقفنا امامهم لنعطيهم حساباً عما فعلناه ونفعله وما عساهم ينتظرون منا اذا جاء يوم تنتهي فيه الحرب ٠ عملنا الوحيد في سنوات عديدة القتل والقتل والقتل وهذا كان الحرفة الاولى التي احترفناها ومعرفتنا في الحياة محصورة في القتل والموت٠ واني اتساءل فيما عسى ان نصير اليه او ماذا يرتجى منا

٠٠٠٠٠

بعد اسابيع قليلة اضطر ان اذهب كل صباح الى دائرة التمسيد وهذا ما ساعد رجلي على ان تتحرك اما ذراعي فقد شفيت تماماً منذ زمن طويل

تصل قافلة جديدة من ساحة الحرب والاربطة الان من الورق لان القماش صار نادر الوجود . البرت يتعافى وجرحه كاد يشفى تماماً وبعد اسابيع قليلة عليه ان يذهب الى حيث يصنعون الارجل الاصطناعية ولكنه لا يزال سكوتاً اكثر كآبة مما كان عليه. وغالباً يصمت بغتة وهو يتكلم ويطرق الى الارض ولو لم يكن معنا لانتحر لا محالة ولكنه الان هُون عليه وبعض الاحيان ينظر الينا ونحن نلعب بالورق

اعطى ماذونية النقاهة. وامي لا تود ان ارجع الى ساحة القتال وهي ضعيفة هزيلة وحالتها اسوا جداً مما كانت عليه قبلاً. ولكنني دعيت الى فرقتي في ساحة الحرب فاعود الى خط النار يصعب علي فراق صديقي البرت كروب. غير ان المرء يعتاد على هذه الامور في الجندية

الفصل الحادي عشر

جئت الى الجبهة في المرة الاخيرة في الشتاء فكان عند انفجار القنابل تتطاير شظايا الصقيع والخطر من هذه لا يقل عن خطر شظايا القنابل ذاتها. اما الان فقد بدد الربيع جيوش الشتاء وهذا ما اراحنا من عد الاسابيع وها نحن نقضي اوقاتنا متنقلين بين الجبهة ومخيمنا الامر الذي اعتدناه .

الحرب مرض من الامراض الفتاكة كالسرطان والسل الانفلونزا

والدوزنطاريا . غير ان صرعى مرض الحرب اكثر جداً من صرعى الامراض الاخرى . وكيفية الموت في مرض الحرب اكثر تنوعاً وتبايناً منها في الامراض الاخرى . وفوق كل هذا انها اكثر خوفاً وجزعاً . وان هذه الحالة قد جعلت افكارنا مرنة كالطين تتكيف بتكيف الاحوال فان كنا تحت النار تكون مائتة وفي اوقات الراحة نراها حسنة لا باس بها . ونحن في ساحات فيها فوهات البراكين وقد اوجدت فينا في دواخلنا فوهات مثلها لا اقول هذا عنا نحن فقط بل هذا يصح على الجميع فكل الميزات التي كنا نتبجح بها قد انتهى امرها ونكاد ننساها والان نكاد لا نرى اثراً للتفوق والتربية والتهذيب فهذه امور اقتلعت من اصولها . ان هذه تنفع حاملها بعض الاحيان بايجادها له مركزاً ولكنها بالوقت ذاته يرافقها شر الا وهو التعصب والادعاء الامر الذي يجب اخضاعه . دخلنا الجندية كقطع النقود المختلفة الصور والهيئات ولكننا صهرنا وسككنا ثانية نقوداً واحدة بصور واحدة متماثلة . فاذا اردنا ان نبحث عن هذا التفوق والامتياز فعلينا اولاً ان نرجع المعدن الى اصله فنحن هنا في الدرجة الاولى جنود وبعدها اشخاص افراد ولكن يا للاسف بهيئة مخجلة وحالة غريبة

ان حالتنا حالة اخاء عام وشعور اخوي عظيم اوجدتها لنا عوامل مشتركة عديدة منها الاغاني الشعبية التي نغنيها ووحدتنا التي تشابه وحدة المحكوم عليهم لان المصائب المشتركة توحد المصابين . ومنها ايضاً اخلاص الياس والقنوط الذي يظهره الواحد منا للاخر وما هذا الاخلاص الا وليد حالتنا وقد اوجدها لنا الخطر المحدق بنا لا بل قل هي ابنة الهجران والتوتر اللذين يوجدهما الموت من مرض الحرب وهذا ما يجعلنا ان نجدّ كل ساعة وراء المسرات . هذا ونحن حزانى

لا ميل ولا رغبة لنا فيها واذا اراد احد ان يمتدح من هذه الحالة فليقل انها اعمال البطولة ولكنها اعمال تافهة واعجب اذا كان في العالم من يتوخاها ويجد وراءها. وهذه الحالة بعينها التي تجعل تجادن يسرع بالتهام الشوربا اذا سمع ان العدو يهجم علينا وذلك لانه يعتقد انه قد يكون بين الاموات بعد ساعة ام اقل. واعتقاده يجعلنا ان نمحص الامر ونبحث به بكل دقة فيما اذا كان تصرف تجادن بالشوربا صواب ام لا . كاتزنسكي يقول انه من الخطا المبين ان يملا الجندي معدته طعاماً ويواجه العدو. عليه ان يحسب امكانية اصابته بجرح في امعائه فيكون الجرح اذ ذاك اشد خطراً على المجروح

ان اموراً كهذه هي مشاكلنا ليس الا وهي هامة لنا جداً اذ لا يمكن ان تكون غير ذلك فهنا وعلى شفير الموت نجد الحياة في سير بسيط للغاية ومرتبطة فقط بالضروريات وما زاد على ذلك فانما هو مدفون في سبات عميق. وهذا السير البسيط يظهرنا في فطرة الانسان الاولى ويظهر اهتمامنا بالبقاء ولو كان لنا الحذاقة الكافية لنفرق بين الامور لكنا اما جننا او هربنا من الجندية او سقطنا في ساحة الوغى. ومثلنا هنا مثل رواد القطب فكل حركة او عمل يجب ان تؤول لحفظ حياة الرواد ولهذا يصوبون كل قواهم لهذه الغاية. كل شيء غير هذا قد اضمحل وتلاشى لانه يتطلب جهوداً واجتهاداً غير ضرورية تلك التي تنجينا من الغضب الحربي. وفي اوقات الراحة اطير بالذاكرة الى الايام السالفة وهذه تظهر كانها مرآة ملطخة مطموسة فينتصب ورائي شبح اهتمامي ببقائي الان فتتسلط علي الهواجس والوساوس فاجد نفسي غريباً ولكنني اعجب كيف ان تلك الشعاعة النشيطة العاملة التي لا اسم لها ولكنها تقول انها الحياة قد كيفت نفسها الى حالة كالتي نحن فيها

اجل ان كل الحالات الاخرى في سبات عميق والان الحياة احتياط مستمر تجاه الموت الزوام. وهذه قد جعلتنا حيوانات لا تفتكر نلتجىء الى الغريزة عند الحاجة وسلحتنا بالبلادة والبله حتى لا تندثر حيثيتنا ونسقط ارباً اربا امام الخوف لانه لو كان لنا من الفكر مقدار ذرة لسحقنا الخوف. . وهي توقظ فينا شعور الالفة والاخاء حتى لا نسقط صرعى في هوة الانفراد والنوى. وقد اوجدت فينا شعور عدم الاكتراث الموجود في الحيوانات البرية لكي يمكننا رؤية الايجابيات في كل لحظة رغم كل شيء ثم نخزن هذه الايجابيات لنحارب بها عند الحاجة «اللاشيئية»

هذه هي حياتنا حياة صعبة مغطاة بالوهم والامور السطحية وفيما ندر يصدر عنها حادثة تكون فريدة في بابها يدل اليها بالبنان. ولكن بغتة وبغير انتظار ينتصب شبح حنيننا الى الايام الاولى ذلك الشبح المخيف المحاط بسحابة الحزن

هذه دقائق الخطر وهذه التي تعلمنا ان كل تنظيم او تكييف انما هو حالة اصطناعية وليس امرنا به امر الراحة بل هو امر جهاد متواصل في طلب الراحة. فها نحن في حياتنا الخارجية نكاد لا نفرق شيئاً عن ساكني الادغال غير ان هولاء يمتازون عنا بكونهم داخلاً وخارجاً كما هم وبامكانهم الارتقاء اذا استيقظت فيهم قواهم الروحية الداخلية. اما نحن فعكس ذلك ان قوانا الداخلية تسير بنا الى الانحطاط وهي تبعد جداً عن كل ما اسمه رقي او ارتقاء. ان ساكني الادغال على فطرة الانسان الاول وهذا فيهم طبيعي اما وجودنا نحن في هذه الفطرة فاصطناعي وهذا التحول الى ادنى قد كلفنا غالياً ولم يتم الا بالقوة والجهود

ان استيقاظنا ليلاً من احلامنا ماخوذين بما يظهر لنا من الاشباح والاخيلة التي تتراكم حولنا متزاحمة يجعل الفرد منا ان يرى خائفاً مرتعباً وهن كل ما يمكنه الاستناد اليه وان ما يفصلنا عن الظلام الدامس او عن الخطر المخيف انما هو حجاب واهن يتمزق عند اقل حركة فنحن بالحقيقة شعاعات ضئيلة يحميها من عاصفة الفناء والجنون حائط واهن سريع السقوط ونحن وراء الحائط نرتجف ارتجاف نور الشمعة واحياناً ينطفىء هذا النور. وبعد هذا يصم اذاننا صوت المعركة ويجرفنا تيارها فنزحف اليها محدقين باعيننا متلمسين طريقنا في هذا الليل المدلهم ولا عزاء للواحد منا في هذا الليل سوى تنفس ارفاقه النيام. وهذا فقط ما يجعلنا ان ننتظر الفجر الاتي والصباح التالي

كل يوم وكل ساعة لا بل كل قنبلة وكل موت يحطم هذا السند الضعيف والسنون تمحوه بسرعة. واني اراه الان يتحطم حولي تدريجاً وهاكم قصة ديترنك الجنونية . كان ديترنك احد اولئك الذين دائماً ينفردون وكان سوء طالعه ان راى على منعطف الطريق وقرب مخيمنا شجرة كرز في حديقة بينما نحن راجعون من خط النار. تلك الشجرة العجيبة الغريبة وقد زادها جمالاً الشفق وما يحمله من الجمال. والشجرة كانت عارية من كل ورق يغطيها ثوب من زهرها ابيض قشيب جذاب متناه في الجمال . طلبنا ديترنك في المساء فلم نجده ولكنه عاد وبيده غصنان من شجرة الكرز مكسوان بازهارها الجميلة. فاخذنا نكثر النكتات بشانه «نمزح معه» ونساله فيما اذا كان مدعواً لعرس. فلم يبدِ جواباً بل بقي ملقياً على سريره. غير اني سمعت في الليل اصواتاً من جهته دلتني انها يجمع امتعته فللحال دب في روح الشك من جهته فتقدمت اليه وسالته عن سبب تصرفه هذا فقال انه لا

يفعل شيئاً فعدت وقلت له

«لا تجن يا ديترنك»

«لا شيء في الأمر . المسالة اني قلق ولا يغمض لي جفن»

«لماذا اتيت باغصان شجرة الكرز»

«لي ان اقطع اغصان شجرة الكرز اذا اردت ذلك بيد انه لي في وطني بستان كبير من هذه الاشجار وفي زمن الزهر تكون كل بقعة واحدة بيضاء. اه اليوم فصل الزهور واليوم هي بحلتها البيضاء الناصعة».

«علهم يرخصون لك عما قليل ان تذهب الى بيتك ولربما يسمحون لك ان لا تعود لانك فلاح»

هز راسه ليس الا ولكنه كان بعيداً في افكاره عما اقوله له. ان هيئة هولاء الفلاحين تتغير بكليتها في حالة تهيجهم فهي تظهر غريبة ومزيجاً من هيئة البقر وهيئة الحنين والشوق. لا بل يظهرون بلداء ومفكرين في آن واحد . ولكي احول مجرى افكاره طلبت اليه ان يعطيني قطعة خبز فاعطانيها دون ان ينبس ببنت شفة وهذا ما زاد شكوكي من نحوه لان المشهور عنه انه بخيل ممسك وعليه بقيت كل الليل مستيقظاً اراقبه. يظهر انه لاحظ اني اراقبه بدقة. لم يحدث شيء وظهر في الصباح التالي كعادته. ولكن في الصباح الذي بعده طلبناه فما وجدناه. للحال لاحظت تغيبه ولكني لم اخبر احداً لكي يكون له مجال ان يبتعد وها غيره كثيرون سنحت لهم الفرص فهربوا الى هولندا ولكن عندما قرئت الاسماء عرف امره وبعد ذلك باسبوع سمعنا ان الشرطة اولئك المحتقرين الممقوتين قد القوا القبض عليه وارسلوه الى جرمانيا وهذا ما يقطع لنا كل رجاء من جهته وبدون شك ان كل تصرفه كان تصرف مجانين ليس الا وهربه من الجندية حنين الى بيته واهله

وذويه وهو كان خللاً عقلياً موقتاً ولكن يا للاسف ان المجلس العسكري البعيد عن خط النار مئات من الاميال لا يعرف شيئاً من كل ما في الجبهة . وبعد هذا لم نسمع عن ديترنك خبراً

.....

تنتهي الامور معنا بطرق اخرى غير التي ذكرناها واعني بالامور الخطر المحدق بنا والاشياء المحصورة فينا التي مثلها مثل المرجل وقد ارتفعت حرارة المياه فيه الى فوق درجة الغليان ولنا في كيف لاقى برجر حتفه خير مثال

خنادقنا الآن قلبتها المدافع راساً على عقب وهي في هذه الحالة منذ زمن وصارت حالة الحرب في هذه الخنادق مطاطة لدرجة نشعر معها اننا لسنا في حرب الخنادق فعند استعار نيران الهجوم والهجوم المضاد تقدم وتقهقر لا يبقى سوى شراذم صغيرة تستبسل للمحافظة على فوهات ، وهذا الاستبسال مُرّ بحد ذاته والعدو قد اخترق صفوفنا الامامية ولهذا في كل مكان جماعات جماعات يحاربون في حفر حفرتها القنابل متجمعة الواحدة ملاصقة للاخرى

نحن في احدى هذه الفوهات والانكليز يتقدمون الينا بخط منحرف . وها هم يتغلبون على الميمنة في صفوفنا ويبذلون قصارى جهدهم ليصلوا الى ما وراءنا وها نحن محاطون من كل جانب . ومن الصعب علينا ان نسلم للعدو فالدخان والضباب فوق رووسنا يغطينا وهذا ما يحجب العدو عن ان يرى تسليمنا له ومن الممكن ايضاً اننا لا نريد البتة ان نسلم والفرد في اوقات كهذه يجهل كل شيء حتى نفسه . نسمع انفجار القذائف اليدوية يقترب الينا ومدفعيتنا تحصد النصف الدائرة التي امامنا وللحال يتسرب الينا الخبر ان المياه المبردة للمدافع قد نفدت

فنجمع بدلها مما هو مخبوء في اجسامنا ولهذا تتمكن من استمرار عملها ولكن هجوم العدو من ورائنا يتقدم نحونا وفي دقائق قليلة يقضي علينا كلنا. ثم وقد صار العدو منا على قاب قوسين ينفجر مدفع اخر وهو مخبوء في فوهة قريبة منا فاسكته برجر ثم صار الهجوم المضاد من ورائنا وعليه خلا لنا الجو فتمكنا من المواصلة مع مؤخر الجيش وبينما نحن في وضعية حسنة يخبرنا احد الذين يحملون الطعام الينا ان على بعد مئتي يرد كلباً من الكلاب التي نستخدمها لنقل الرسائل مجروح فينتفض برجر ويسال المخبر «واين ذلك» فيصف المخبر المكان وينهض برجر ليذهب اما ليجهز على الكلب او لياتي به. فنحاول جهد طاقتنا ان نمنعه فلا نفلح. منذ ستة اشهر لم يهتم برجر بالامر لان عقليته كانت اصح مما هي عليه الان. فيذهب وكل ما نقدر ان نقوله انه مجنون ومختل العقل. والجنون في الجبهة الحربية محاط بمخاطر جمة لانه يصعب على الفرد منا ان يرمي المجنون على الارض ويمسك به ليبقى ممدوداً عليها لينجو من الغضب المحيق به فكم بالحري وبرجر ستة اقدام طولاً وهو اقوى رجل في بلوكنا

بدون شك ان برجر قد اطبق جنونه والا لامتنع عن السير وسط هذه النيران المستعرة. ولكن ما العمل وهذه البروق التي تخرق كبد الفضاء فوقنا قد اثرت في عقله وخبلته. وهذه ايضاً تؤثر في الاخرين وبعضهم يتنقلون في العراء دون واق او حماية وغيرهم يهربون من الجندية وقد اصابت رجلاً فكان يحفر في الارض حفرة بيديه ورجليه واسنانه ليدفن نفسها فيها

اجل ان البعض يقلدون البعض الاخر في امور كهذه ولكن ميلهم

الى محاكاة المجانين في اعمالهم علامات الجنون بعينه فبرجر الذي يريد ان يجهز على الكلب تصيبه قنبلة في حوضه ومن يحمله يصاب في رجله وهو يحاول نقله الى موضع امين

.....

اصابت مولر قذيفة في امعائه خصه بها احد الاعداء وبقي في قيد الحياة بعدها نصف ساعة مالكاً لحواسه مقاسياً امر الالام. وقبل ان يقضي سلمني محفظته ووهبني حذائيه الذين ورثهما عن كمريخ . البسهما فاجدهما يلائمانني تمام الملائمة. واعد تجادن ان اهبه اياهما بعد موتي

تمكنا من دفن مولر ولكن لا اخاله باقياً في راحته هذه زمناً طويلاً وها صفوفنا تتقهقر لان في الجهة المعاكسة امداد عسكري جديد من الانكليز والاميركان لهم من اللحوم والخبز والماكولات ما يزيد عن حاجتهم ومعهم عدد وافر من المدافع الجديدة والطيارات اما نحن فنصيبنا الجوع والهزال وطعام رديء ممزوج بمواد غريبة تسبب لنا الاوجاع والامراض . واصحاب المعامل في جرمانيا فيزدادون غنى وثروة ونحن تذيب الدوزنطاريا امعاءنا . يجب على الذين يعيشون في بيوتهم ان يروا هذه الوجوه التاعسة الصفراء التي اتلفت وهذه القامات المنحنية التي استنزف الالم والاسهال دماءها وها هم بشفاه مرتجفة والام مبرحة يعجزون حتى عن الكلام الواحد للاخر

ان مدافعنا قد كلت من كثرة الاستعمال ولم يبق لها سوى قنابل قليلة جداً وها خزاناتها قد بريت فصار اطلاقها غير مصوب لجهة معينة بل يصب حيث اتفق حتى كان بعض الاحيان تقع قنابلها علينا ولم يبق لدينا سوى القليل من الخيل وامدادنا العسكري ليس الا صبيان فقيري

الدم بحاجة كلية الى الراحة يعجزون عن حمل عددهم وكل ما معهم من فنون الحرب انهم يعرفون كيف يموتون

لا يفهمون شيئاً من طرق الحرب فهم يعرضون بانفسهم الى ان تصيبهم القذائف فيموتون. وطيار واحد قد حصد منهم وهو في سبيل التسلية بلوكين كاملين عند نزولهم من القطار وقبل ان يسمعوا بما يسمونه مخبأ او واقٍ

فعندها يقول كاتزنسكي لنا «ان جرمانيا قد فرغت الان». وها نحن قد قطعنا كل امل بانتهاء هذه الحالة وصارت افكارنا لا تمتد الى هذا الحد. الواحد منا يقدر ان يوقف الرصاصة عن جريانها وذلك لانها تصرعه فيقع مجندلاً او انها تجرحه فينقلونه الى المستشفى وهناك اذا لم تبتر رجلاه يقع في ايدي اولئك الجراحين في اركان الحرب الخاملين صليب «الخدمة الحربية» فهولاء يقولون له «لا باس من وجود رجلك اقصر من الاخرى فان كان لك مقدار ذرة من الشجاعة فلا حاجة لك الى الركض في الجبهة. انك من الصنف الاول اذهب»

يخبرنا كاتزنسكي بقصة سارت بين الجنود سير البرق وراجت على طول الخط من جبال الفوج الى بلاد الفلمنك ومآلها ان احد هولاء الجراحين كان يدعو الجنود ليفحصهم تقدم اليه احدهم دون ان ينظر اليه يقول له «حالة حسنة من الصنف الاول اننا بحاجة الى جنود» ثم يرفع كاتزنسكي صوته ويقول اما الرجل فقال للجراح «ان رجلي الان خشبية فان عدت الى الجبهة يطير راسي وعندها يضعون لي راساً خشبياً وعندها اصير اهلاً لاكون جراحاً في الجيش» وعنده نقهقه كلنا من الضحك

قد يكون بين هولاء الاطباء عدد وافر من الاكفاء ولكن لا بد

للجندي من ان يقع مرة من المرات العديدة التي لا تحصى والتي فيها يفحص الاطباء الجنود بايدي احد هولاء الذين يفتخرون بانهم يجعلون المقعد من الصنف الاول ويحولون ابناء الصنف السابع الى ابناء الصنف الاول . ان في الجندية قصصاً عديدة مثل هذه وبعضها يزيد عن هذه مرارة ولكن هذه لا تحمل في طياتها ادنى عصيان او فتنة في الجيش بل هي من قبيل تسمية الشيء باسمه الحقيقي وفي الجندية الشيء الكثير من الظلم والخداع والدناءة . كان رجوع الفيلق المرة بعد المرة الى الجهاد الذي لا امل بانتهائه وهجوم الجيش المتقهقر المنشل المرة تلو الاخرى ليس شيئاً

ان الدبابات كانت اولاً موضوع سخرية وهزء اما الان فهي حراب مخفية يهجمون بها مصفحة على صفوفنا فنراها تجسم لنا شبح الحرب المخيف

لا نرى المدافع التي تصب غضبها علينا والمشاة من العدو الهاجمون علينا رجال مثلنا اما هذه الدبابات فهي الآت تزحف دواليبها زحفاً لا نهاية له كالحرب فما هي الا التدمير بعينه تسير على الفوهات وفي الاخاديد ولا شعور لها او عاطفة وسيرها هذا لا يقف البتة وما هي سوى اسطول من حيوانات فولاذية دائمة الصراخ مصفحة ومسلحة بالاسلحة رمادية اللون لا يمكن ان تصاب بادنى اذى وهي تسحق في سيرها المائت والمجروح والحي فترتجف عظامنا فينا عند رؤيتها واذا قابلنا اسلحتنا بضخامة حجمها تكون الاسلحة قشاً وعصياً وتكون القذائف عيدان الكبريت

القنابل والغاز وسرب الدبابات تسحق وتكسر وتتلف . الموت ليس الا

الدوزنطاريا والانفلونزا والتيفوس تغلي وتخنق نتيجتها كلها الموت ليس الا

يسقط قائد بلوكنا برتنك صريعاً في هجوم ما٠ وهو احد اولئك الضباط المشهورين في الجبهة على طول الخط والاول في الهجوم الى كل محل فيه «الحديدة حامية» يقود بلوكنا منذ سنتين دون ان يصاب بجرح وعليه لا بد من وقوع شيء في النهاية

مستولون على فوهة ومحاطون بالعدو من كل جهة ثم يهب علينا ريح مملوءة من نتانة زيت الكاز ودخان البارود ثم نرى شخصين احدهما يحمل رامية اللهيب والاخر يحمل تلك التي يندفع منها اللهيب وهاذان اذا اقتربا منا قضي علينا ثم انه يستحيل علينا التقهقر٠ فنصليهما ناراً حامية غير انهما يتقدمان الينا فنرانا والموت يقترب الينا وبرتنك معنا في الفوهة يصعب علينا اصابتهما لانه يجب ان نرميهما بالرصاص ونحن في مخبئنا ولهذا لا يمكننا التصويب عليهما فلما يرى برتنك هذا يتناول بندقيته ويزحف الى خارج الحفرة ثم يصوب بندقيته عليهما ويرميهما بالنار ولكن رصاصة منهما تصيبه غير انه يستمر باصلائهما النار ثم يصوب عليهما واخيراً تنفجر في يده البندقية فيرميها الى الارض ويرجع الى الحفرة صارخاً «حسناً حسناً»٠ انه اصاب المتاخر منهما فيسقط الى الارض وبسقوطه تقع منه التي يندلع منها اللهيب فتضرم النار حيث الاثنان فيحترقان٠ ولكن برتنك اصيب بجرح في صدره وبعد هذا تصيبه شظية تطير بذقنه وهذه نفسها تكفي ان تفتح لغماً في ورك لير فيئن لير ويحاول ان ينهض مستنداً الى يديه ولكن انصباب الدم من جرحه كان كافراغ انية من الماء فباقل من القليل نضب ما فيه من الدم ومات كل هذا ولم يقدر احد منا على اسعافه٠

ما المنفعة التي استثمرها لير من معرفته الرياضيات المعرفة التامة لما كان تلميذاً في المدرسة

.....

تمر بنا الشهور ونجيء الى صيف ١٩١٨ ذاك الذي هو اشد الايام خوفاً واهراق دماء فتقف الايام بقربنا ملائكة لابسة اشعة الشمس الذهبية وظلام الليل الدامس لا يمكننا ان نفهم مرادها وتقف على شفير الفناء والاضمحلال. وها كل فرد يعرف ان صفقتنا خاسرة لا محالة ومع هذا الكلام عن هذه المعرفة قليل جداً. نعرف اننا نتقهقر ونتقهقر وانه ليس بامكاننا ان نعيد الكرة بهجوم بعد هذه الهجمات العنيفة ونعرف ان خزائننا قد نضب من الرجال والاسلحة والمعدات. مع كل هذا تستمر الحرب ويبقى الموت مستحكماً

ايها الصيف صيف ١٩١٨. في كل ايامنا لم نتعلق بالحياة ونطلبها ببخلها طلبنا اياها الان. ها شقائق النعمان الحمراء في المروج تحيط بمخيماتنا. والحشرات الصغيرة على اوراق العشب المساءات الحارة في غرفنا المظلمة الباردة ثم الاشجار السوداء العجيبة الغير المدركة تنطح السحاب في الغسق والشفق. النجوم والمياه الجارية الاحلام والنوم كلها تجعلنا ان ننادي الحياة الحياة

في صيف ١٩١٨. في كل هجومنا وسيرنا الى ساحة الوغى لم نتالم ساكتين كتالمنا هذه المرة عندما يصدر لنا الامر ان نعود الى خط النار. ها الهواء مفعم من الاشاعات عن الهدنة والسلم الامر الذي يزيد في تعذيبنا ويجعل تقدمنا الى خط النار اكثر صعوبة علينا

في صيف ١٩١٨. في كل اوقاتنا في الجندية لم نجد المعيشة في الجبهة اكثر مرارة وخوفاً منها في هذه الساعات وفيها اطلاق المدافع

ففي هذه الساعات الوجوه المصفرة مرمية في الوحل وايدينا ممسكة بفكر واحد. الا وهو «لا.لا.لا تفعلوا هذا الان هي الدقيقة الاخيرة»

اه صيف ١٩١٨. ان نسمة الرجاء التي تهب على الحقول التي احرقتها الشمس هي الحمى الثائرة حمى الضجر وعدم الصبر حمى الفشل والياس وما يؤلمنا اكثر من خوفنا من الموت السوال الذي نكرره «لماذا لماذا لا يضعون حداً لهذه. او بالحري لماذا هذه الاشاعات عن قرب النهاية»

.....

في الجو طيارون عديدون لهم بذواتهم ثقة عمياء يطاردون الفرد مطاردة الارنب وللمقابلة اقول ان تجاه كل طيار جرماني خمسة من الانكليز والاميركان وتجاه الجندي الالماني الواحد الجائع الشقي خمسة من جنود العدو على اتم الاستعداد والراحة. ومقابل الرغيف الجرماني الواحد خمسون علبة من علب اللحم عند اولئك المعاكسين فنحن لم نغلب لاننا كجنود نفوقهم اختباراً واهلية ولكننا سحقنا بقوات تزيدنا عداً لا تقاوم ولا تقهر

من ورائنا الاسابيع الطويلة الممطرة الجلد ابرش وما يسيل على الارض ابرش والموت ابرش. فان خرجنا تبلل الامطار اثوابنا حتى تصل الى عظامنا وزد على ذلك نبقى في هذه الحالة طول بقائنا في ساحة الوغى لن «ننشف» والذين لا يزالون يلبسون احذية ذات الساق العالي يضعون اكياس رمل في اعلاها حتى لا ينزل الوحل على اقدامهم بسرعة. اسلحتنا وثيابنا وكل شيء لنا صار سائلاً ويذوب في هذا السائل لكثرة الامطار حتى الارض نفسها قد صارت كلها قطعة واحدة تخرق المياه الى احشائها فيها برك تجري منها بسير لولبي

جداول الدم الحمراء وفيها يغرق على مهل المائت والمجروح ومن هو في قيد الحياة

تعود العاصفة وتجرفنا ويرافق هيجانها وابل غزير من الشظايا وتنقل الينا صراخ الجرحى وعويلهم الذي يشبه صراخ الاطفال وفي الليل تسير الحياة المحطمة في تنهدات عميقة وانين مؤلم الى السكون الدائم والنوم الذي لا نهاية له. ها الوحل يغطي ايدينا والطين على اجسامنا والمطر يملأ عيوننا ثم بعد كل هذا يشتد الحر ويكثر انصباب العرق الذي لا يطاق. ففي احد ايام الصيف الاخيرة يسقط كاتزنسكي بينما هو ينقل الطعام الينا. نحن الاثنان وحدنا. اضمد جراحه ويظهر ان الرصاصة اصابت العظم وطحنت ساقه فيتنهد كاتزنسكي يائساً ويقول «جاءتني في الاخير . عند النهاية» فاهون عليه واقول «ومن يعرف كم تطول مدة هذا الاختباط وها انت الان قد نجوت». ينزف الدم من الجرح وعليه لا يمكنني ان اتركه لوحده واذهب لاجيء له بحاملي محامل الجرحى وزد على ذلك لا اعرف اذا كان بالقرب منا مركز لهم. وبما ان كاتزنسكي خفيف الوزن احمله على ظهري واسير به الى غرفة التضميد ونجلس مرتين للراحة والامه مبرحة ولكننا نقلل الكلام والمحادثة جداً وها انا قد فككت ازرار ردائي ليسهل علي التنفس وها العرق ينصب علي وقد تورمت وجنتاي للتوتر العصبي الذي اصابني بحملي هذا ومع كل ذلك احثه على احتمال اوجاعه اذ لا يمكننا البقاء في هذه البقعة الشديدة الخطر. «هل اتقدم بك يا كاتزنسكي»

«يجب علينا ذلك»

فارفعه حتى يمكنه الوقوف على رجله المجروحة بكل اعتناء

ودراية ثم يقفز على ظهري واضع يدي تحت رجله السليمة واسير في طريق صعبة تحيط بها المخاطر من كل صوب لان القنابل لا تزال تئز فوق رووسنا فاسرع قدر المستطاع لان الدم ينصب من رجل كاتزنسكي حتى الارض هذا ونحن نعجز ان نحتمي من الانفجارات كما ينبغي لانه قد يذهب عنا الخطر قبل ان نتمكن من الوصول الى المخبا الذي نود الاحتماء به ولكننا نرتمي في حفرة صغيرة وننتظر قليلاً حتى تنقشع عنا غيمة القنابل واناول كاتزنسكي قليلاً من الشاي وندخن سيكارتين واقول الى كاتزنسكي حزيناً مغموماً «اه يا كاتزنسكي سنفترق اخيراً» اما هو فيبقى صامتاً وينظر الي

«هل تذكر يا كاتزنسكي عملنا مع الوزة وكيف نجيتني من انصباب القنابل لما جئت حديثاً الى الجبهة وجرحت للمرة الاولى. اتذكر يا كاتزنسكي اني بكيت هذه حادثة منذ ثلاث سنوات تقريباً»

فيهز راسه ايجاباً. ان فكرة بقائي وحيداً تهزني جزعاً فاذا اصيب كاتزنسكي بشيء فلا يبقى لي صديق

«يا كات علينا ان ندبر الامور حتى يرى الواحد منا الاخر اذا استتب السلم قبل رجوعك الينا»

«وهل تظن انهم يحكمون انني من الصنف الاول ورجلي هذه حالتها». يسالني هذا السوال وبنفسه مرارة لا تقاس

«بدون شك تتحسن حالتها جداً اذا تمت لها الراحة المطلوبة. وها المفصل لم يصب بادنى اذى. فهي لا محالة تعود كما كانت»

«اعطني سيكارة اخرى»

«قد يتاح لنا ان نشترك معاً في عمل ما بعد هذه الحال»

انيَ يائس تعيس يستحيل علي احتمال الفكر بانني لا ارى كاتزنسكي

ثانية كاتزنسكي هذا صديقي ذو الكتفين المنحنيين والشاربين الصغيرين الذي اعرفه ولا اعرف غيره كما اعرفه كاتزنسكي هذا الذي قاسمته وقاسمني كل ما في هذه السنوات من سراء وضراء. لا اطيق ابداً ان ابتعد عنه ولا اراه

«كيف كان الحال اكتب لي هنا عنوانك في وطنك يا كاتزنسكي وهاك عنواني»

اقول هذا واكتب في محفظتي عنوانه غير اني اشعر بهجرانه اياي مع انه جالس بقربي. اولا يمكنني ان ارمي رجلي برصاصة كي ابقى معه. ثم انظر اليه فاراه قد اصفر وجهه فيقول لي «دعنا نتقدم» فاقفز للحال مندفعاً لاسعافه واحمله على ظهري واركض حذراً بركضي ان لا احركه كي لا يتالم. يبس حلقي وها لون كل شيء يتغير امام عيني تارة احمر ثم اسود اما انا فاتمايل تعباً منهوكاً حتى اصل اخيراً الى غرفة التضميد وهناك اقع على ركبتي ولكن لا تزال لي القوة ان ارتمي الى جهة رجل كاتزنسكي السليمة وبعد دقائق قليلة اجرب ان انهض من تحت حملي هذا فترتجف يداي ورجلاي ولكن اقوم واتلمس زجاجة الماء التي احملها وبكل صعوبة اجدها فاشرب منها قليلاً وابتسم فرحاً لنجاة كاتزنسكي ولكني اسمع لغطاً وكلاماً لا افهمه الا بعد برهة وجيزة الا وهو قول احد الممرضين انه كان بامكاني ان اتخلص من كل هذه المشقة والاتعاب فانظر اليه مستفهماً عما يقول فيشير بيده الى كاتزنسكي ويقول «لا حراك به قد مات»

اما انا ايضاً لا افهم ما يقول واقول له «قد اصيب في ساقه»

فيقف الممرض ولا يتحرك بل يقول «ومع هذا فهو ميت»

فادور الى جهة كاتزنسكي وعيناي لا تزالان وعليهما غشاء والعرق

ينزل من جفني فامسح العرق على وجهي وانظر الى كاتزنسكي فاذا به لا يتحرك فاقول الى الممرض «قد اغمي عليه»

«اني اعرف هذه الامور اكثر منك هو ميت واني اراهنك بمبلغ كبير»

فاهز راسي واقول «انه مغمي عليه كنت احادثه منذ عشر دقائق فقط. لا تزال الحرارة في يديه» فامر يدي تحت ابطه لافرك صدغيه بقليل من الشاي فاحس برطوبة فاعود واجرها الى مؤخر راسه فارى الدم عليهما وللحال يقول لي الممرض «ارايت الحقيقة الان»

وبينما انا احمله هارباً لانجو به اصابته شظية تائهة صغيرة للغاية في راسه كانت القاضية عليه كل هذا دون ان اعرف بها . فانهض بكل بطء. ثم يسالني وكيل الاونباشي هل تود ان تاخذ اشياءه والدفتر الذي يقيد فيه معاشه فاهز راسي بالايجاب فيعطينيها كلها . ثم ياخذ الممرض ويسالني «انسيبه انت»

لا. لا. لا نسابة بيننا. ولكن ايمكنني الان السير .هل تحملني رجلاي ثم ارفع عينيّ وافحص بهما كل ما هو حولي وادور معهما دائرة اولى ثم الاخرى ثم اقف في وسط هذه الدائرة وارى ان كل هذا امر عادي. والمائت هو جندي بسيط ستانسلوس كاتزنسكي وبعد هذا لا اعرف شيئاً

الفصل الثاني عشر

الوقت الان الخريف ولم يبق من تلك الايدي العاملة الخبيرة سوى القليل . ولم يبق من ارفاقي في الصف السبعة سواي. وها كل فرد يتكلم عن الهدنة والسلم والكل ينتظرونها بفارغ الصبر. ثم ان ظهرت هذه الاشاعات بانها اوهام وخداع فتنفجر المراجل لان رجاء الكل فيها كبير والامال بالحصول عليها عظيمة ومن الصعب تحطيم الرجاء والامال دون الهيجان والغليان فالمسالة الان اما السلم او الثورة والعصيان

اتمتع براحة تدوم اربعة عشر يوماً لاني ابتلعت قليلاً من الغاز ولهذا اجلس في الحديقة وفي الشمس النهار بطوله وها الهدنة تتقدم الينا بخطوات مسرعة واني اصدق قدومها وعما قليل سارجع الى البيت هنا تقف افكاري ولا تتقدم الى الامام وها كل ما يحوم حولي وما يكتنفني انما هو شعور وطمع بالحياة ومحبة بالبيت وشوق للخلاص من هذه الدماء والتسمم ولكن ذلك بدون غاية او قصد

لو رجعنا الى بيوتنا في السنة ١٩١٦ وخلصنا من هذه الاوجاع والالام كان بامكاننا ان نذلل العواصف اما الان فنعود الى بيوتنا تعابى منهوكين مشتتين لا معنوية لنا ولا رجاء نعجز عن ايجاد سبيل لنا فيما بعد ومع كل هذا يسوء البشر فهمنا لان الجيل الذي كبر قبلنا فرغم كونه عبر معنا في هذه الصعوبات والاختبارات المؤلمة كان لهم بيوت واعمال يرجعون اليها الان ويستانفون كل علاقة لهم بها وينسون الحرب بكل

سرعة. والجيل الذي يبلغ الرشد بعدنا فغريب عنا لا يربطنا به شيء وعليه يزاحمنا فيزحمنا ويطردنا

سنكون غير نافعين لاحد حتى لذواتنا وسنكبر ونشيخ والقليلون منا سيكيفون ذواتهم الى محيطهم والبعض سيجرفهم التيار والاخرون سينتشرون في العالم يسيرون فيه متعجبين ماخوذين ولكن ستلتهمنا كلنا السنون وتسير بنا كلنا الى الفناء

وقد يكون ان كل هذه الافكار تاولات واضغاث احلام تمليها علي السويداء ويشرحها لي الحزن والياس وهذه تتحطم وتفنى ايضاً عندما اعود الى وطني واجلس تحت اشجار الحور واسمع حفيف اوراقها. لا يمكن للحزن والياس واطلاق المدافع والمواخير العديدة التي ترددنا اليها ان تكون قد سلبتنا وافنت ما فينا من الامال في الاشياء المقبلة وما نراه من الوف الوجوه في المستقبل ولذة الاحلام الهنيئة التي نجنيها من الكتب وافكار المفكرين وما تهمس به في اذاننا فضيلة المراة وعفافها ودليلنا على ذلك هذا الشوق والحنين الى اوطاننا عندما نسمع بالهدنة والسلم الامر الذي يحرك عواطفنا الحنين الذي نجهله ولكنه يوقعنا في الارتباك

فهنا في الجبهة نرى اليوم الاشجار فرحة وفي حلة ذهبية وها كباث الدردار (كبوش) الحمراء بين الاوراق الخضراء وها كل ما في البرية ابيض الى ابعد ما يمد اليه النظر وها الكنتينات تكثر فيها الدمدمات والهمس عن اقتراب السلم ووصول الهدنة

فاقف. اما انا فهادىء ساكن ادع الاشهر والسنين تتقدم الي فهي لا تحمل الي امراً جديداً ولا تقدر ان تجيئني باكثر مما لي الان فانا وحيد فريد لا رجاء لي وعليه اقدر ان اقابلها بلا خوف ولا وجل

فالحياة التي حملتني سالماً كل هذه السنوات لا تزال في قبضة يدي وامام عيني ولا اعرف اذا كنت اخضعتها ام لا ولكنني اعرف امراً واحداً انه ما دامت في يدي فتشق في العالم طريقاً لنفسها بقطع النظر عما في داخلي من الارادة والعزم

.....

لقد صُرع في تشرين الاول في السنة ١٩١٨ في يوم كانت الجبهة فيه على طولها ساكنة هادئة وكانت تقارير الجندية تتردد في افواه الكل «لا شيء جديد في الجبهة الغربية». وها هو سقط ومضطجع على الارض كانه نائم نوم الطمانينة والراحة واذا ادرناه على ظهره نجد ان عذابه والامه في احتضاره لم يطل امره وعلى وجهه كل علامات الهدوء والطمانينة كانه فرح لانتهاء الامر

CLOSED AREA

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

CA:838:R384aA:c.1
رمارك ،اريك ماريا
في الجبهة الغربية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01064556

A.U.B. LIBRARY

CLOSED AREA

CA:838:R384aA
رمارك
في الجبهة الغربية .
Borrower's

CA
838
R384aA

CA
838
R384aA
c.1